الطبعة العربية الأصلية

بريدا

رواية

مؤلِّف الرائعة العالميّة «الخيميائي»

باولو كويلو

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



من أنا؟

أول سؤال تطرحه بريدا.. سؤال بسيط للوهلة الأولى لكنه الأخطر حين يتعلق الأمر بالإنسان وقدره.

لم تقنع بريدا حياتُها، فكانت تبحث عن الأغرب، واستدرجها السحر وطقوسه، لكنها كانت تدرك في قرارتها أن ما تبحث عنه كان أبعد من السحر وأعمق منه كثيراً.

اتجهت إلى المجوسي الساكن في الأقاصي، وفي أجواء ممزوجة بالرهبة وحب الاطلاع، تعلّمت الكثير، وغادرت لتلتقي ويكا التي أدخلتها في تجارب لم تكن آمنة قط.

بريدا أجواء آسرة لما فيها من غرابة في الطرح وفي أشكاله؛ وتتضمن بحثاً دائباً عن المعرفة، لكن تفلت أفكار خطرة تكشف بعضاً من أسرار الحياة، وتفسّر ظواهر مرّت بنا ووقفنا أمامها مراراً ولم نستطع تفسيراً لها أو فهماً لكنهها.

هل نحن روح واحدة توزَّعت على كل هذه الأجساد؟!

ISBN 978-9953-88-238-3



شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب: ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٢ - ٠٩٦١١٣٥٠٧٢٢
تلفون+فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٠٩٦١١٧٥٢٥٤٧
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

بريدا

پاولو كويلو

ترجمة:
عزة طويل
أنطوان باسيل
تدقيق لغوي: روحي طعمة



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

نُشر في الأصل بالبرتغالية، بعنوان: Brida
نُشرت هذه الطبعة بالاتفاق مع سانت جوردي وشركاه، برشلونة، أسبانيا بوكالتهم عن باولو كويلو
موقع باولو كويلو على الإنترنت:
http://www.paulocoelho.com
Blog باولو كويلو: www.paulocoelhoblog.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص. ب.: ٨٣٧٥ ـ بيروت لبنان
تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ـ ٧٥٠٨٧٢ ـ ١ ٩٦١+
تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+
email: tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الثانية ٢٠١١
ISBN: 978-9953-88-238-3

تصميم الغلاف: داني عواد
الإخراج الفني: بسمة تقي

مقدمة الكاتب لسلسلة رواياته الصادرة بالعربية

كان أحد كبار متصوّفي الإسلام يُحتضر، وسوف ندعوه هنا حسن، عندما سأله تلميذ من تلاميذه:

- «من كان معلّمك أيها المعلّم؟».

أجاب: «بل قل المئات من المعلّمين. وإذا كان لي أن أسمّيهم جميعاً، فسوف يستغرق ذلك شهوراً عدة، وربما سنوات. وينتهي بي الأمر إلى نسيان بعضهم».

- «لكن، ألم يكن لبعضهم تأثير فيك أكبر من تأثير الآخرين؟».

استغرق حسن في التفكير دقيقة كاملة، ثم قال:

«ثلاثة، في الواقع، تعلّمت منهم أموراً على جانب كبير من الأهمية:

«أوّلهم كان لصاً. فقد حدث يوماً أنني تُهت في الصحراء، ولم اتمكّن من الوصول إلى البيت إلّا في ساعة متأخرة جداً من الليل. وكنت قد أودعت جاري مفتاح البيت، ولم أملك الشجاعة لإيقاظه في تلك الساعة. وفي النهاية، صادفت رجلاً طلبت مساعدته، ففتح لي قِفل الباب في لمح البصر.

«أثار الأمر إعجابي الشديد، ورجوته أن يعلّمني كيف فعل ذلك، فأخبرني بأنه يعتاش من سرقة الناس. لكنني كنت شديد الامتنان له، فدعوته إلى المبيت في منزلي.

«مكث عندي شهراً واحداً. كان يخرج كل ليلة، وهو يقول: سأذهب إلى العمل. أما أنت، فداوم على التأمّل، وأكثِرْ من الصلاة. وكنت دائماً أسأله عندما يعود، عمّا إذا كان قد غنم شيئاً. وجوابه يتّخذ، على الدوام، مِنوالاً واحداً لا يتغيّر: «لم أوفَّق في اغتنام شيء هذا المساء. لكنّني، إن شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد».

«كان رجلاً سعيداً. لم أره يوماً يستسلم لليأس جرّاء عودته صفر اليدين. من بعدها، خلال القِسم الأكبر من حياتي، عندما كنت أستغرق في التأمّل يوماً بعد يوم، من دون أن يحدث أي شيء، ومن دون أن أحقق اتّصالي بالله، كنت أستعيد كلمات ذلك اللص: «لم أوفّق بشيء هذا المساء، لكنّني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد'. كان ذلك يمنحني القوةَ على المتابعة».

- «ومن كان المعلّم الثاني؟».

- «كان كلباً. فقد حدث أن كنتُ متوجّهاً إلى النهر لأشرب قليلاً من الماء، عندما ظهر هذا الكلب. كان عطِشاً أيضاً. لكنه، عندما اقترب من حافة النهر، شاهد كلباً آخر فيه. ولم يكن هذا غيرَ انعكاسٍ لصورته في الماء.

«دبّ الفزع في الكلب، فتراجع إلى الوراء وراح ينبح. بذل ما في وسعه ليُبعد الكلبَ الآخر، لكنّ شيئاً من هذا لم يحصل بالطبع. وفي النهاية، قرّر الكلب، وقد غلبه الظمأ الشديد، أن يواجه الوضع، فألقى بنفسه في النهر. وكان أن اختفت الصورة هذه المرة».

توقّف حسن قليلاً، ثم تابع:

- «أخيراً، كان معلّمي الثالث ولداً. فقد حدث أن رأيته يسير في اتجاه الجامع، حاملاً شمعة بيده، فبادرته بالسؤال: هل أضأت هذه الشمعة بنفسك؟ فردّ عليّ الصبي بالإيجاب. ولما كان يُقلقني أن يلعب الأولاد بالنار، تابعت بإلحاح: اسمعْ يا صبيّ: في لحظة من اللحظات كانت هذه الشمعة مُطفأة. أتستطيع أن تخبرني من أين جاءت النار التي تُشعلها؟

ضحك الصبي، وأطفأ الشمعة، ثم ردّ يسألني: وأنت يا سيدي، أتستطيع أن تخبرني إلى أين ذهبت النار التي كانت مشتعلة هنا؟

«أدركت حينها كم كنت غبياً. من ذا الذي يُشعل نار لحكمة؟ وإلى أين تذهب؟ أدركت أن الإنسان، على مثال تلك الشمعة، يحمل في قلبه النار المقدّسة للحظاتٍ مُعيّنة، لكنّه لا يعرف إطلاقاً أين أشعلت. وبدأت، منذ ذلك الحين، أُسِرّ بمشاعري وأفكاري إلى كل ما يحيط بي: إلى السُحب والأشجار والأنهار والغابات، إلى الرجال والنساء. كان لي، طوال حياتي، الآلاف من المعلمين. وبتّ أثق بأن النار سوف تتوهّج عندما أحتاج إليها. كنتُ تلميذَ الحياة، وما زلتُ تلميذها. لقد استقيتُ المعرفةَ وتعلّمت من أشياء أكثر بساطة، من أشياء غير متوقّعة، مثل الحكايات التي يرويها الآباء والأمهات لأولادهم».

تُبيّن لنا هذه القصة الجميلة المقتبسة من موروث التصوّف في الإسلام، أن إحدى أقدمْ الطرق التقليدية، التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة جيله، كانت القصص والروايات. وفي ما يتعلّق بي، كانت الثقافة العربية إلى جانبي خلال معظم أيام حياتي، تُبيّن لي أموراً لم يستطع العالم، الذي أعيش فيه، أن يفقه معناها. واليوم، أستطيع للمرة الأولى، أن أردّ على المكرمة بمثلها، وأنا أرقب كتبي تنشرها «شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - لبنان»، في المنطقة نفسها التي

كثيراً ما أثارت مُخيّلتي. وإنّني مُمتنّ للناشر السيد تحسين الخياط لما أبداه من حماسة لجعل أعمالي في متناول قرّاء العربية، من خلال ترجمتها، ترجمة اتّسمت بالجديّة، بعد حصوله منّي، وفقاً للأصول المعتمدة، على حقوق النشر.

وأودّ أخيراً، أن أتوجّه بالشكر إلى الوكيلة - المشاركة والصديقة، سوزان ناصيف، التي جعلت بحماستها، هذا الحلم ممكناً، ذلك أنني ما كنت، من دونها، لأستطيع إشراك هؤلاء الناس، الذين أحمل لهم الإعجاب الشديد، بمكنونات قلبي.

باولو كويلو

«... أو أية امرأة لها عشرة دراهم أن أضاعت درهماً واحداً، ألا توقد سراجاً وتكنس البيت وتفتش باجتهاد حتى تجده.

وإذا وجدته تدعو الصديقات والجارات قائلة افرحن معي لأني وجدت الدرهم الذي أضعته»

إنجيل لوقا ٨ - ٩: ١٥

إلى ن.د.ل. الذي حقّق المعجزات... وإلى كريستينا، إحدى هذه المعجزات... وبريدا

تنبيه

في كتابي «مذكرات مجوسي[*]»، استبدلت باثنين من تعاليم رام، ممارسات حسية تعلّمتها أيام عملت في حقل الدراما. وبالرغم من أن النتائج جاءت مماثلة حرفياً، فإنني تلقّيت تأنيباً صارماً من معلمي، الذي قال لي: «قد تكون ثمة طرق أسهل وأسرع، لكن هذا لا يهم، فالأهم هو أن الحكمة ينبغي ألّا تتغيّر».

لهذا، فإن الطقوس الواردة في «بريدا» هي نفسها الطقوس التي اتُّبعت لعقود من الزمن عبر حكمة القمر، وهي حكمة مميزة، تتطلّب خبرة وممارسة، علماً بأن ممارسة تعاليم مثل تلك الحكمة من دون مرشد، تُعَدّ خطرة، غير مستحسنة وغير ضرورية. كما أنها قد تعوّق البحث في الروحانيات.

باولو كويلو

(*) «مذكرات مجوسي»، هو العنوان الأصلي لرواية «حاج كومبوستيلّا»، قبل أن يقرّر كويلو تغيير عنوانها.

تمهيد

تعوّدنا الجلوس حتى ساعاتٍ متأخرة من الليل في أحد مقاهي لورد. كنت حينها حاجاً على طريق روما المقدسة، تلزمني أيّام رحيل كثيرة لكي أكمل بحثي عن موهبتي. كان اسمها بريدا أوفرن، وهي قيّمة على أحد امتدادات تلك الطريق.

ذات ليلة، سألتها إن تأثرت يوماً، ولا سيما عند بلوغها أحد تلك الأديرة التي تشكّل جزءاً من الدرب المكوكبة التي يسلكها المطّلعون على الأسرار الكونية في البيرينيه.

- لم أزر البيرينيه يوماً.

تفاجأت، فقد كانت رغم كل شيء تتمتع «بموهبة».

- «كلّ الطرق تُفضي إلى روما».

هكذا قالت، مستعينةً بمثل قديم لتُفهمني أن «المواهب» قد توقظ أينما كان.

- لقد سلكت طريقي عبر إيرلندا.

خلال لقاءاتنا المتتابعة، روت لي قصة. وحين انتهت سألتها إن كان بإمكاني أن أكتبها يوماً. أبدت موافقتها المبدئية، لكنها ثابرت على وضع العقبات. طلبت إليّ عدم ذكر الأسماء الحقيقية،

وسألت من هم القرّاء المحتملون لكتابي، وكيف يمكن أن تكون ردود أفعالهم.

- ليس لديّ أي فكرة، لكنني أعتقد أن لديك أسباباً أخرى جعلتك تختلقين هذه المشكلات كلها.

- أنت محق، فهذه حكاية شخصية، ولست متأكدة من أنها ستأتي بإفادةٍ لأيّ كان.

بريدا، هذا الخطر سنجتازه معاً! يفيد نصٌّ قديم من التعاليم أن كل شخص يمكن أن يتّخذ أحد موقفين: إمّا أن يبني، وإما أن يزرع. البنّاءون قد يستغرق عملهم أعواماً، لكنهم في النهاية يُنجزونه، ثم ينتبهون إلى أن الجدران التي بنتها أيديهم تطوّقهم، فالحياة تفقد معناها بمجرّد توقّف البنيان.

وهناك أيضاً أولئك الذين يزرعون. فهم يصمدون في وجه العواصف، وكلّ ما في المواسم من تقلّبات، ونادراً ما يرتاحون. الحقول تنمو بلا توقّف، بعكس الأبنية. وهي، في الوقت الذي تتطلّب اهتماماً مستمراً، تجعل من الحياة في عيني فلاحيها مغامرةً رائعة.

يعترف الفلاحون بعضهم ببعض، فهم يدركون أن كل نبتةٍ تحمل في تاريخها نموّ العالم بأكمله.

الكاتب

إيرلندا

آب/أغسطس ١٩٨٣ - آذار/مارس ١٩٨٤

صيف وخريف

بادرتْ: أريد تعلّم السحر.

حملق المجوسي فيها. كانت ترتدي «جينزاً» عتيقاً وقميصاً عادياً، وفي عينيها تلك النظرة المتحذية التي تعتلي الوجوه الخجِلة، ولا سيما في غياب أي حاجةٍ اليها.

فكّر: لا بد أنني أبلغ من العمر ضعف سنّها. لكنه أدرك، برغم ذلك، أنه قبالة شقّ روحه.

- اسمي بريدا. اعذرني لأنني لم أقدم نفسي. لقد طال انتظاري لهذه اللحظة، وها إني أكثر توتّراً مما تصوّرت.

- لمَ تريدين تعلّم السحر؟

- لأنه قد يوصلني الى إجاباتٍ عن بعض تساؤلاتي حول الدنيا، وكي أمتلك الطاقات السحرية، وحتى أتمكن أيضاً من الرجوع في الزمن والطواف في المستقبل، إن كان ذلك ممكناً.

لم تكن تلك المرة الأولى التي يزوره فيها أحدهم وفي جعبته تساؤلات مماثلة، وهو الذي غرف معلّماً مرموقاً في مجال التعاليم، تبنّى تعليم العديد من الفتية، مؤمناً بأن العالم بأسره سيتحوّل إذا تمكن من تغيير من حوله. لكنه ارتكب خطأً، ولا ينبغي أن يخطئ المعلّمون.

- ألا تعتقدين أنك ما زلت شابة؟

- أنا في الحادية والعشرين. فإذا رغبتُ في تعلّم البالية، لاعتبروني هرمة!

* * *

أشار إليها المجوسي لتتبعه. مضيا عبر الغابة، يتوسّطهما الصمت. شرع هو يراقب ظلال الأشجار تطول وتراوغ الاتجاهات بعجلة، مدفوعة بسحبٍ تغوص في الأفق، وراح يفكّر: إنها جميلة، لكنها تبلغ من العمر نصف ما أبلغ. وأدرك أن معنى ذلك عذاب أليم.

صمتُ ذاك الرجل إلى جانبها أضجرها، فهو لم يكلّف نفسه حتى التعليق على ملاحظتها الأخيرة. كانت أرضُ الغابة رطبة، تسترها أوراق الأشجار المتناثرة. هي أيضاً لفتتها حركة الظلال معلنةً دنوّ الليل. فالظلام سيحلّ ويستلقي ولا مصباح في حوزتهما. خاطبت بريدا نفسها: عليّ الوثوق به. إيماني بأنه يستطيع تعليمي السحر يحتّم عليّ أن أثق بأن في إمكانه توجيهي عبر الغابة.

أكملا سيرهما. كان كأنه يهيم، عابراً من جانب إلى آخر، محوّلاً اتجاهه حتى في غياب كل ما يعرقل مسيرته. اجتازا مراراً دروباً دائرية، مارّين في البقعة نفسها مرات ثلاثاً، وأربعاً.

وضعت احتمال أنه يمتحنها. كانت مصمّمة على اجتياز التجربة حتى النهاية، محاولة إقناع نفسها بأن كل ما كان يحصل، بما في ذلك الدروب الدائرية، ليس فيه ما يثير الريبة، وهي التي اجتازت مسافة طويلة جداً تعلّق كبير أمل على لقائها المجوسي. دوبلين تبعد أكثر من ٩٠ ميلاً، والباصات التي تصل إليها مرهقة جداً، ومواعيد انطلاقها غير محددة. وجب عليها أن تستيقظ باكراً لتبدأ رحلة تستغرق ثلاث ساعات، لتصل بعدها إلى

القرية، فتسأل من تقابلهم عن مكانه، مضطرة إلى توضيح حاجتها إلى رجل في مثل غرابته.

وبعد عناء طويل، أخبرها أحدهم في أي موضعٍ من الغابة يحلّ عادة خلال النهار، محذّراً إياها من أن المجوسي قد سبق أن حاول إغواء إحدى فتيات القرية.

فكّرت في سرّها: لا بدّ من أنه رجل مثير. كانا يتوغّلان صعوداً، فإذا بها تأمل لو أن الشمس تتريّث متقاعسةً في السماء. كانت خائفةً من التعثّر فوق الأوراق الرطبة.

«لماذا هذه الرغبة الشديدة في تعلّم السحر؟»، سألها.

سُرّت بريدا لكسر حاجز الصمت، وأعادت عليه إجابتها السابقة.

لكنها لم تقنعه.

- قد تكون رغبتك هذه عائدة إلى كون السحر غامضاً خفياً، أو لأنه يوفّر إجابات لم يتوصّل إليها سوى القلائل، على مدى حيواتهم، أو ربما لكونه يستحضر الماضي الرومانسي.

لم تجب بريدا، لأنها لم تكن تعرف بما تجيب. كانت قلقةً من ردّ قد لا يروق للمجوسي، فتمنّت لو يعود إلى صمته.

بلغا أخيراً قمة تلّةٍ، بعد أن عبرا الغابة بأكملها. هناك، كانت الأرض صخرية، خاليةً من أي نبات، لكن خطر الانزلاق عليها كان أقلّ، فسهلت عليها خطواتها برفقة مرشدها المجوسي.

جلس عند أعلى نقطة، وطلب إليها القيام بالمثل.

- جلس آخرون في هذا المكان من قبل. هم أيضاً جاءوا طالبين تعلّم السحر، لكنني قدّمت كل التعاليم اللازمة. أعدت إلى

الإنسانية ما أعطتني إياه. واليوم، أريد أن أبقى وحيداً، أتسلّق الجبال وأعتني بالنباتات وأناجي ربيّ.

ردّت بريدا: هذا ليس صحيحاً.

أجابها مستغرباً: ما الذي ليس صحيحاً؟

- قد تكون رغبتك في مناجاة ربك صادقة، لكن من المؤكد أن ادّعاءك ابتغاء الوحدة، ليس كذلك.

ندمت بريدا على قولها. فعفويتها دفعتها إلى تلك الكلمات، ولم يعد من مجالٍ لتصحيح خطئها. قد يكون ثمة أشخاصٌ يبتغون الوحدة. وقد تكون حاجة النساء إلى الرجال أشدّ من حاجتهم إليهن.

لم يبدُ على المجوسيّ أي انزعاجٍ حين أجاب:

- سأطرح عليك سؤالاً، وعليك التزام الصراحة القصوى في إجابتك. وإذا قلتِ الحقيقة، فلكِ ما تطلبين. لكن إذا لجأت إلى الكذب، فلا تعودي إلى هذه الغابة أبداً.

تنهّدت بريدا بارتياح. فكلّ ما عليها قول الحقيقة ليس إلا. كما أنها لطالما افترضت أن للمعلّم مطالب عدة ينبغي لكل طالب أن يحقّقها لكي يُقبل مريداً.

وبينما كانت عيناه مسمَّرتين فيها، قال: «لنفرض أنني بدأت تعليمك ما أعرفه. فلنفرض أنني أريتك الكونين المتوازيين اللذين يحيطان بنا، وقدتك إلى الملائكة، وإلى حكمة الطبيعة، وأرشدتك إلى خبايا حكمة الشمس وحكمة القمر، وجاء يومٌ، قصدت فيه وسط البلدة لشراء بعض الأطعمة وقابلت حبَّك المنتظر هناك... في وسط الشارع...».

فكّرت بينها وبين نفسها: ما كنت لأعرف كيف أميّزه، لكنها قرّرت أن تلزم الصمت. وها هو سؤال المجوسي يغدو أصعب مما تصوَّرت.

«... ينتابه الشعور نفسه، فيتوجّه نحوكِ. يستدرجكما الحبّ. تثابرين على دروسك معي. خلال النهار، ألقّنك حكمة الكون، وأثناء الليل، يُعلّمكِ حكمة الحبّ. ثمّ يأتي يوم، لا يعود فيه بإمكان هاتين الحكمتين أن تتعايشا، فيجب عليكِ الاختيار».

تأنّى المجوسي للحظات. فبعد أن طرح سؤاله، اعتراه الخوف من جواب الفتاة. فوصولها إلى الغابة في ذاك العصر، عَنى نهاية مرحلة في حياة كل منهما. أدرك ذلك، لأنه عارفٌ التعاليم ونيّات المعلّمين. كان بحاجةٍ إليها، تماماً كحاجتها إليه. لكن، كان لديه شرطٌ وحيد: أن تجيب عن سؤاله بصدقٍ تام.

استجمع شجاعته، وقال: أجيبي الآن بمنتهى الصراحة هل ستتخلّين عما تعلّمته حول كلّ الإمكانات والأسرار التي يكشفها لك عالم السحر، من أجل البقاء مع حبك المنتظر؟».

نظرت بريدا بعيداً. كانت الجبال والغابات تمتد حولها، وفي الأسفل أنوار البلدة تسطع شيئاً فشيئاً، معلنة «تحلق العائلات حول موائد العشاء. هؤلاء كانوا يعملون بكدّ وأمانة، ويخافون إلههم، ويسعون إلى مساعدة أخيهم الإنسان. ذلك كله لأنهم عرفوا الحبّ، فغدا لحياتهم معنى. هؤلاء فهموا كلّ ما يدور في هذا الكون من دون أن يسمعوا حتى بحكمتي الشمس والقمر.

قالت: لا أرى أن بحثي في الروحانيّات يمكن أن يناقض سعادتي الشخصية.

كان لا يزال محدّقاً إلى عينيها حين ألحّ عليها: أجيبي، هل ستتخلّين عن كل شيء من أجل ذاك الرجل؟

أحست بريدا برغبة جامحة في البكاء. فالسؤال لم يكن سؤالاً، بقدر ما كان دعوةً إلى خيارٍ، هو أصعب ما قد يواجهه المرء في حياته. سبق لها أن تأمّلت في هذا الخيار مراراً، وهي التي شعرت يوماً بأن لا شيء في الدنيا يفوقها أهمية. لقد عاشرت كثراً. ومع كلٍّ منهم خُيّل إليها أنها وجدت الحب. لكنها في كلّ مرة، كانت تشهد تلاشيه كلّ لحظة. خبرت بريدا الكثير، لكنها لم تجد أعقد من الحبّ وأكثر التباساً منه. وها هي اليوم مغرمة بشاب يكبرها قليلاً، يدرس الفيزياء، ويملك نظرة إلى الحياة مغايرة كلياً لنظرتها. مرة أخرى، آمنت بالحبّ ووثقت بمشاعرها، لكن خيباتها المتكررة أفقدتها ثقتها بكل شيء. ومع ذلك، كانت في مواجهة أعظم رهانات حياتها.

استمرت في تفادي نظرات المجوسي التي تحاصرها. شردت في البلدة والأضواء المتلألئة المنبعثة منها. مذ وُجد الإنسان، وهو في سعيٍ مستمر إلى فهم الكون من خلال الحبّ.

نطقت أخيراً: سأتخلّى عن كل شيء.

لا يمكن لهذا الرجل الماثل أمامها فهم ما يختلج في قلوب البشر. فهو امتلك الطاقة وأدرك خفايا السحر، لكنه لم يَخبر البشر. شعره أشيب، وبشرته أحرقتها خيوط الشمس، ولديه قوام من تعوّد الدروب الجبلية الصعبة. جاذبيّته لافتة، وعيناه تبوحان بجوهرٍ تخبّبه مشاعر البشر العاديين.

هي أيضاً خاب أملها، لكنها لم تستطع كذباً.

- انظري إليّ.

أحست بريدا بالخجل، لكنها استجابت.

- قلتِ الحقيقة. سأكون معلّماً لك.

حلّ الظلام الموعود. كانت النجوم تتلألأ في سماءٍ غاب عنها القمر. أمضت بريدا ساعتين تخبر المجوسيّ قصة حياتها، محاولة التنقيب عن الحقائق التي قد تبرز اهتمامها بالسحر؛ باحت له بكل ما تختزنه ذاكرتها من رؤى طفولةٍ، إلى هواجس ومناجاة باطنية. لكنها عبثاً حاولت. فكل ما في الأمر أنها وجدت نفسها مدفوعة بحاجتها إلى المعرفة، لذا أخذت دروساً في علم التنجيم والتارو والأعداد السحرية.

- بالكاد تُعَدّ هذه لغات، كما أنها ليست الوحيدة. فالسحر ينطق بكلّ لغات القلب.

- إذاً، ما هو السحر؟

بالرغم من الظلام، فإن بريدا شعرت بانصراف المجوسي عنها. كان غارقاً في أفكاره، شارداً في السماء، يستشفّ إجابة ربما.

قال أخيراً: هو جسرٌ، يخوّلكِ عبور العالم المنظور إلى ما وراء المنظور، ويمنحكِ دروس العالَمين وعِبَرَهما.

- وكيف السبيل إلى عبور ذاك الجسر؟

- بالاهتداء إلى الطريق، ولكلٍّ منا طريقه.

- هذا ما جئت سعياً إلى اكتشافه.

فسّر المجوسي قائلاً: أمامك طريقان، حكمة الشمس التي ترشدك إلى الأسرار من خلال الفضاء والعالم الذي يحيط بنا،

وحكمة القمر التي تعتمد الزمن وكل ما تحتبسه ذاكرة الزمن.

فهمت بريدا. فحكمة الشمس تتمثّل في الليل والأشجار، وفي الرجفة التي تستحوذ على جسدها، وفي النجوم المتناثرة في السماء. وحكمة القمر تتجسد في ذاك الرجل الذي يقف قبالتها الآن، حاملاً حكمة الأسلاف مشرقةً في عينيه.

كأنه قرأ أفكارها، علّق المجوسي: لقد سلكتُ طريق حكمة القمر، لكنني لم أكن يوماً لأعلّمها، بل أعلّم حكمة الشمس.

ردّت بريدا، وقد أربكتها نغمة الرقة التي استشعرتها في صوت المجوسي:

إذاً، انقل إليّ حكمة الشمس.

- سأنقل إليك كل ما تعلّمتُه. لكن لحكمة الشمس دروباً عدة، وعلى المرء الإيمان بقدرة كلّ شخصٍ على تعليم نفسه.

كانت بريدا على حق، فقد ردّد صوت المجوسي نغمة فيها من الحنو والدفء ما أرعبها بدلاً من أن يُطمئنها.

- أنا واثقة من قدرتي على فهم حكمة الشمس.

حوّل المجوسي نظره عن النجوم ليركّزه في الشابة. أدرك أنها لم تكن جاهزة بعدُ لتلقّي حكمة الشمس، وأن عليه هو تلقينها إياها. ثمة مريدون ينتقون معلّميهم.

- قبل أن تبدأ حصتنا الأولى، أريد تذكيركِ بأمرٍ واحد: حين تجدين طريقك، عليكِ ألا تخافي. عليك التحلّي بما يكفي من الشجاعة لارتكاب الأخطاء. الخيبة، الهزيمة، اليأس، أدواتٌ يستخدمها الله لإرشادنا إلى الطريق.

- غريبةٌ هذه الأدوات، فهي غالباً ما تُثني المرء عن المتابعة.

أما المجوسي، فكان يعي الباعث وراء هذه الأدوات، وقد سبق أن اختبرها بالجسد والروح.

أصرّت بريدا: علّمني حكمة الشمس.

طلب إليها المجوسي أن تتكئ على الصخرة وتسترخي.

- لا حاجة إلى إغماض عينيك. انظري إلى العالم من حولك. شاهدي ما تستطيعين، وافهمي قدر ما تستطيعين، فحكمة الشمس تتجلى معرفةً سرمدية مع كل خطوة.

لبّت بريدا طلب معلّمها، برغم شعورها بأنه يتقدّم بسرعة بالغة.

- هذا درسك الأول والأهم، ابتكره متصوّف إسباني أدرك معنى الإيمان، وكان اسمه سان خوان دي لاكروز.

تفرّس المجوسي في وجه الفتاة تعلوه اللهفة والإصرار. تمنّى في قلبه أن تفهم تعاليمه، فهي رفيقة روحه، وإن لم تكن قد أدركت ذلك، وإن تكن لا تزال شابة يسحرها هذا العالم، بما فيه من أشياء وبشر.

عبر الظلام، تتبّعت بريدا طيف المجوسيّ يتراجع نحو الغابة مختفياً وراء ظلال الأشجار إلى يسارها. كان الخوف يتملّكها جزاء بقائها وحيدة هناك، لكنها حاولت الاحتفاظ بهدوئها. ذاك كان درسها الأول، وعليها عدم إظهار توترها.

قبلني تلميذةً له، ولا يمكنني أن أخيّب ظنّه. غمرها شعورٌ بالرضا، لكنها عجبت لسرعة حدوث كل شيء. لم تشكك بريدا يوماً في قدراتها، وكانت فخورة بنفسها وبالدافع وراء رحلتها. كانت متأكدة من وجود المجوسي في مكانٍ قريب، يراقب تحرّكاتها وردود أفعالها، متفحصاً قدرتها على تعلّم درسها الأول. أوصاها بالشجاعة، وعليها التحلي بها، رغماً عن صُوَر تلك الأفاعي والعقارب التي شقّت طريقها عبر الصخرة حيث تعيش، زحفاً نحو مخيّلتها. فالمجوسي سيعود بعد قليل ليتلو عليها درسها الأول.

كانت بريدا تحثّ أنفاسها، تردّد لنفسها: أنا امرأة قوية، محكمة الإرادة. لقد حازت تميّزاً بوجودها في الغابة مع ذاك الرجل الذي أحبه البعض، وهابه البعض الآخر. استعادت لحظات العصر الذي أمضياه معاً، ولا سيما تلك اللحظة التي استشعرت خلالها برقة تنساب في صوته.

لعلّه وجد بي ما يثير اهتمامه، أو رغب حتى في ممارسة الحب

معي. وهي تجربة ما كانت لتُعَدّ سيئة، لولا تلك النظرة الغريبة في عينيه.

«يا لغباء أفكاري». ففي خضمّ بحثها عن الحقيقة، عن درب المعرفة، وجدت نفسها تتأمل في المرأة المجردة داخلها. حاولت إزاحة هذه الأفكار، وعندها أدركت كم من الوقت قد مضى على ترك المجوسي لها في وحدتها.

بدأ الخوف يتسلّل إليها، ولا سيما في ظلّ تلك الآراء المتضاربة كلها، التي سمعتها عن المجوسي. فالبعض اعتبره أقدر المعلمين، في يده تحويل اتجاه الريح واختراق السحب بسطوة التفكير منفردة. وهي أعاجيب افتتنت بها بريدا تماماً كغيرها.

وبرغم ذلك، فقد أكد لها آخرون، ممّن حضروا الصفوف نفسها وتلقّوا الدروس عينها، وبقوا على هُدُب عالم السحر، أنه مجرّد مشعوذٍ حدث أن استغلّ قدراته لتدمير أحدهم بعد أن وقع المجوسي في حبّ زوجته. لذا، حُكم عليه بالطواف في الغابات المتوحدة.

فكّرت بريدا: ربما كانت الوحدة هي التي جعلته أكثر جنوناً. عاودتها الرجفة معلنةً بداية هلعٍ. وبالرغم من يفاعتها، كانت تدرك الإساءة التي قد تخلّفها الوحدة في النفس البشرية، والتي تزداد شدة مع التقدم في العمر. كما أنها قابلت أناساً فقدوا وهج الحياة لعجزهم عن استكمال صراعهم مع وحدتهم، فاستحالوا في النهاية ضحايا إدمانهم عليها. هؤلاء، بمعظمهم، آمنوا بعالمٍ بعيد عن الوقار، لا هالة له ولا مجد فيه، وأمضوا أمسياتهم ولياليهم يناقشون بإسهاب أخطاء الآخرين. هؤلاء بلغت وحدتهم قضاة الكون الذين نُثرت أحكامهم مع الرياح الأربع، لتبلغ كلّ من يهمّه الإصغاء. لكنها خضت المجوسي بأن مست عقله.

فجأة، علا صوت في الجوار. قفزت بريدا من مكانها. شعرت بضربات قلبها تتسابق وتتلاطم في صدرها. تبخّرت كل الثقة التي حاولت التمسك بها. نظرت حولها، لكنها لم تجد شيئاً. اجتاحتها موجةٌ من الرعب عصفت بكيانها، وتملّكت جسدها كله.

فكّرت في ضرورة أن تتمالك نفسها، لكنها لم تجد إلى ذلك سبيلاً. راحت الأفاعي والعقارب وأشباح الطفولة تتقافز أمام عينيها. وصل بها الرعب إلى حدٍّ لم تعد معه تستطيع تمالك هدوئها. مثلت أمامها صورةٌ أخرى، صورة ساحرٍ جبّار تعاقد مع الشيطان على تقديمها ذبيحةً له.

زعقت قائلة: من أنت؟ لم يعد يعنيها الانطباع الذي تولّده عند أحد. أرادت فقط الخروج من الغابة.

لم يُجب أحد.

كرّرت: أريد الخروج من هنا! ساعدوني!

لا أحد، سوى الغابة وضجيجها الغريب. تمكّن منها الخوف، فاصابها دوارٌ شعرت معه بأنها ذاهبة في غيبوبة. لا يمكنها ذلك. لقد تيقّنت من أنه ليس في الجوار، ومن المؤكد أن الغيبوبة لن تُجدي نفعاً. لذا، ينبغي لها أن تسيطر على نفسها.

جعلتها أفكارها هذه تدرك أن جزءاً منها يصارع للتحكم في زمام الأمور. خاطبت نفسها: لا ينبغي أن أستنجد بأحد. فصرخاتها قد تجتذب سكّان الغابة الآخرين. وهؤلاء غالباً ما يكونون أخطر من أي حيوان برّي. راحت تحدّث نفسها برفق: لديّ إيماني. إيماني بالله وبملاكي الحارس الذي قادني إلى هنا، ويلازمني مع كل خطوةٍ أخطوها. لا أعرف شكلاً له، لكنني واثقة بأنه قريب.

كلماتها الأخيرة كانت مقطعاً من إحدى التراتيل التي حفظتها

في طفولتها. منذ سنوات لم تخطر في بالها هذه الترتيلة التي لقّنتها إياها جدّتها المتوفاة منذ زمن قريب. وبمجرد تمنّيها أن تكون مع جدّتها، شعرت بحضورٍ محبّب. كانت بريدا قد بدأت تميّز فارقاً شاسعاً بين الخوف والخطر.

«إنه يقطن بقعة الأسرار في الأعالي...».

عاودتها الترتيلة من أولها، كلمة بكلمة، لكأن جدّتها تتلوها أمامها الآن. ظلّت تردّد الأبيات لبعض الوقت. وبرغم خوفها، غمرها بعض الهدوء. لم يكن أمامها خيار: فإما أن تسلّم أمرها لله ولملاكها الحارس، وإما أن تستسلم لليأس.

شعرت بوجود ملاك حارس وفكّرت، في سرّها: عليّ الإيمان به. لا يمكنني أن أفسّره، لكنه حاضر. سوف يحيطني طوال الليل، لأنني لن أجد طريق العودة وحدي. في صغرها، كانت بريدا تستيقظ في الليل مذعورة، فيحملها والدها إلى النافذة ليُريها البلدة حيث يعيشون. درَج على محادثتها عن حرّاس الليل: عن بائع الحليب الذي يتجوّل في الخارج ليوصل «بضاعته»، وعن الفرّان الذي كان يعمل آنذاك في صنع خبزهم اليومي. كان والدها يحاول طرد الأشباح التي ملأت ليلها، ليُحِلّ محلّها أولئك الذين يحرسون ظلام الليل. يقول: ليس الليل سوى جزء من النهار.

ليس الليل سوى جزء من النهار، أي إنها تستطيع أن تأمن للظلمة تماماً كما تأمن للنور. دفعها الظلام إلى استدعاء ذاك الملاك الحارس. ينبغي أن تثق به. وهذه الثقة هي ما يسمّى الإيمان. لم يتمكن أحد من فهم الإيمان يوماً، لكن ها هي تختبره، تخوض غماره في أحلك الليالي. لا سبب لوجوده سوى اعتقادها به. هكذا هي المعجزات، تكون لمن يؤمنون بها. فجأة، أدركت ما كان يحصل.

فكّرت، لقد قال المجوسي شيئاً عن الدرس الأول. شعرت، حينها بأنها فهمت ما يجري: الملاك الحارس وُجد لأنها آمنت به. بدأ التعب يحلّ ببريدا بعد ساعات التوتر الطويلة. حاولت الاسترخاء، ومع كل لحظة تمر، كان يراودها شعورٌ أقوى بالعناية.

كانت تتحلّى بالإيمان. وهو ما سيمنع العقارب والأفاعي من العيش في الغابة مجدّداً. الإيمان سيبقي ملاكها الحارس متيقّظاً يرعى وحشتها.

أرخت جسدها على الصخرة، وغطّت في نومٍ ساكنٍ، وعميق.

كان النهار قد حلّ حين استيقظت بريدا، والشمس قد أرخت ستائرها الذهبية على كل شيء. شعرت ببردٍ خفيف. ثيابها شبه بالية، لكن الغبطة غطّت روحها، لأنها أمضت الليل بساعاته وحيدة في الغابة.

بحثت عن المجوسي في كل مكان، بالرغم من يقينها من أنها لن تجده. لا بدّ من أنه يجول في الغابة الآن محاولاً مخاطبة القادر، متسائلاً ربما إن تمتعت تلك الفتاة التي حضرت لزيارته في الليلة الفائتة، بما يكفي من الشجاعة لتعلّم أوّل تعاليم الشمس.

خاطبت بريدا الغابة: لقد تعلّمتُ عن الليل الحالك. أدركت أن البحث عن الله ليلٌ حالك، وأن الإيمان ليلٌ حالك. وليس في ذلك في الحقيقة ما يثير الدهشة، ذلك أن كلّ يومٍ يمرّ علينا هو بالنسبة إلينا ليلٌ حالك. ليس لأحدنا أن يتنبأ بأحداث اللحظة القادمة، ومع ذلك ترانا نمضي قُدماً، لأننا نمتلك الثقة، ولأننا نتحلّى بالإيمان.

أو ربما لأننا ببساطة لا ندرك ما في اللحظة القادمة من غموض. لا يهم، فكل ما يعنيها أنها فهمت.

فهمت أن كلّ هنيهة حياة فعلُ إيمان.

وأن في استطاعة المرء أن يملأها عقاربَ وثعابين، أو أن يشحنها قدرة رعائية خصبة.

فهمت بريدا أن الإيمان لا يفسَّر، فهو ببساطة ليلٌ حالك ليس أمامها سوى أن ترفضه، أو أن تقبله.

عاينت بريدا ساعتها فأدركت أن النهار سيمضي. كان عليها اللحاق بالباص والسفر لساعاتٍ ثلاث، والتفكير في حجة مقنعة تتلوها على حبيبها. فمن المؤكد أنه لن يصدق قصة إمضائها ليلة كاملة بمفردها وسط الغابة.

صرخت في وجه الأشجار: حكمة الشمس في غاية الصعوبة! لم أكن أتوقع أنني سأضطر إلى تعليم نفسي!

حوّلت نظرها نزولاً نحو البلدة. رسمت مسيرة العودة عبر الأحراج وانطلقت. رمت نظرةً أخيرة على الصخرة، وصرخت مودّعة بفرح:

- ثمةَ شيءٌ آخر. أنت رجلٌ مثيرٌ للاهتمام.

متكئاً على جذع شجرةٍ هرمة، راقب المجوسي الفتاةَ تتوارى خلف الغابات. لقد أصغى إلى مخاوفها، وأنصت إلى نحيبها طوال الليل. وقد ساورته نفسه أن يلاقيها ليحضنها، لينتزعها من ذعرها، وليخبرها أنها ليست في حاجة إلى هذا النوع من التحدي.

أفرحه أنه لم يفعل. وشعر بالفخر لأن تلك الفتاة، رغم كل حيرتها الشابة، هي رفيقة روحه.

في وسط دبلن، مكتبةٌ متخصصة في مسائل السحر والتنجيم. يقصدها الناس بتوجيهٍ من معارفهم، ذلك أن صاحبها لا يستعين بالدعاية في الجرائد والمجلات، ولكم تُسعده خبرة زبائنه ودقتهم.

ورغم ذلك، فإن المتجر يعجّ دوماً بمرتاديه. سمعت به بريدا، وتمكّنت مؤخراً من الحصول على عنوانه من أستاذ مادة الترحال الفضائي التي كانت تتلقى دروساً فيها. قصدت بريدا ذات عصر بعد دوامها، المكتبة، وأعجبت بالمكان. ومنذ ذاك اليوم، وهي تغتنم كل وقت فراغٍ للاطّلاع على الكتب دون شراء أي منها، لسبب بسيط هو أنها مستوردةٌ، وبالتالي باهظة الثمن. كانت تتصفّحها، تتأمل رسوم بعضها، متلقّفة غريزياً ذبذبات المعرفة المتراكمة. تجربتها مع المجوسي، جعلتها أكثر تعقّلاً. شعرت بأنها ستعاتب نفسها لأنها عاشت تجارب كان في وسعها فهمها من الأساس. أحست بأن شيئاً مهماً سيفوتها، وبأنها ستظلّ تكرّر التجارب نفسها مراراً، إذا ما ثابرت على ما هي عليه. لكنها لم تكن تملك شجاعة التغيير. كان عليها أن تصارع باستمرار كي تتبيّن طريقها: اختبرت الليل الحالك، وتأكّدت من أنها لا ترغب في اتّخاذه جسراً لها. ورغم شعورها بالخيبة، أدركت عجزها عن تجاوز نفسها.

الكتبُ أكثر أماناً، والرفوف تفيض بنسخٍ من أبحاث مخطوطة منذ مئات السنين في مجالٍ لم تجرؤ سوى قلّة على إثرائه. وعبر

صفحات تلك الكتب، تبرز أسرار السحر والتنجيم، وتبدو مستهزئة بالجهود الفائضة تستنزفها الأجيال في سبيل هتك غموضها.

كان لدى بريدا سببٌ وجيه آخر يدفعها إلى زيارة المكتبة، هو مراقبة الزبائن. أحياناً، كانت تدّعي القراءة في أطروحةٍ خيميائية معقّدة لتمعن في مراقبة النساء والرجال الذين يرتادون المكتبة. هؤلاء في الغالب يكبرونها سناً، هم يعرفون ما يريدون، ويتوجهون دوماً نحو الرف الصحيح. كثيراً ما حاولت تخيّلهم في خلواتهم. بدا بعضهم حكيماً للغاية، وقادراً على إيقاظ قوى وقدرات لا يعرف منها الفانون شيئاً. آخرون بدوا في محاولةٍ يائسة لاستحضار إجاباتٍ نسوها منذ زمن؛ إجاباتٍ لا معنى للحياة من دونها.

لاحظت أيضاً أن الزبائن المداومين يتجاذبون دوماً أطراف الحديث مع المالك. كانوا يثيرون موضوعات عجيبة كمراحل القمر، وخصائص الأحجار، والنطق الصحيح للمصطلحات الشعائرية.

تحلّت بريدا ذات مساء، بما يكفي من الشجاعة لتقوم بالمثل. كانت عائدة من عملها في أحد الأيام التي يكون فيها كل شيء على ما يرام. خطر لها أن تفيد قدر المستطاع من حسن طالعها، وانتقائها الجيد للموضوع، فافتتحت الحديث قائلة:

أعلم بوجود مجتمعات سرية.

كانت «تعرف» شيئاً.

بالكاد رفع المالك عينيه عن حساباته، ورمقها بنظرة ملؤها العجب.

أكملت مترددة وقد أحبطت عزيمتها: كنت برفقة المجوسي في فولك. وقد أخبرني عن حلكة الليل، وعلّمني أن طريق الحكمة تعني عدم الخوف من ارتكاب الأخطاء.

نجحت بريدا في اجتذاب إصغاء المالك إلى حديثها، فلا بد أنها مميزة، وإلا لما تكبّد المجوسي عناء تعليمها.

أخيراً، ردّ الرجل قائلاً: إن كنت تعلمين أن الطريق تتمثل في حلكة الليل، فلم إذاً، تحتاجين إلى الكتب؟

أدركت بريدا أنها أخطأت بذكر المجوسي، فأجابت: لأنها ليست الطريق التي أريد.

ألقى المالك نظرة متفحصة على المرأة الشابة الماثلة أمامه. فبرغم امتلاكها «موهبة» واضحة، فإن من دواعي الاستغراب أن يخصص لها المجوسي كل ذاك الوقت. لا بدّ أن في الأمر شيئاً ما. قد يكون كلامها مختلقاً، إلا أنها تحدثت عن حلكة الليل.

قال: غالباً ما تزورين المكتبة. أراك تدخلين فتقرئين بعض الكتب، ثم تغادرين دون أن تشتري شيئاً. أجابت، وقد شعرت برغبته في متابعة الحديث: لأنها غالية. لكنني قرأت كتباً عدة وحضرت صفوفاً.

راحت تتلو عليه أسماء معلّميها، متعمّدة إثارة المزيد من الإعجاب لديه.

لم تجر الأمور مجدداً، كما توقعت، فقد قاطعها المالك ليذهب إلى خدمة زبونٍ أتى مستفسراً عن وصول كتابٍ كان قد طلبه، يصوّر مواقع الكواكب على مدى السنوات المئة القادمة.

عاين أكياساً كانت موضوعة تحت صندوق المحاسبة، فتبيّنت بريدا أن فيها طوابع من جميع أنحاء العالم.

كانت تزداد توتراً وانفعالاً، بعد أن اختفى كل أثرٍ للشجاعة

لديها. كان خيارها الوحيد هو الانتظار حتى تحقق الزبون من وصول كتابه الصحيح. ودفع ثمنه، وتسلّم الباقي، ثم غادر. التفت المالك حينها إلى بريدا من جديد، فقالت وقد اجتاحت الدموع عينيها: لا أعرف كيف أكمل.

سألها الرجل: ماذا تجيدين؟

أجابت: ملاحقة ما أؤمن به.

كان هذا الرد الوحيد الممكن، فقد أمضت بريدا حياتها في السعي وراء معتقداتها. مشكلتها الوحيدة أنها كانت تؤمن بشيء جديد كل يوم.

كتب المالك اسماً ما على الورقة التي كان يدوّن حساباته عليها، ثم مزق القصاصة التي كتب فوقها، وتركها للحظات في يده. قال: سأرشدك إلى عنوان.

- في زمن ما، كان الناس يجدون في التجارب السحرية أحداثاً طبيعية. آنذاك، لم يكن للكهنة وجود، ولا أحد يهتم بسبر أغوار السحر وخفاياه.

لم تعرف بريدا إن كان يشير بحديثه إليها.

سأل: هل تعرفين ما السحر؟

- جسرٌ يصل بين العالم المنظور والعالم اللامنظور.

مدّ إليها يده وفيها القصاصة. كان قد دوّن عليها رقم هاتف واسماً: ويكا.

خطفتها بريدا منه، ثم شكرته وغادرت. حين وصلت إلى الباب، التفتت إليه وقالت:

أعلم أيضاً أن السحر يتحدث بلغاتٍ عدة، حتى لغة أصحاب

المكتبات الذين يتظاهرون باللؤم، في حين أنهم في غاية الكرم واللطف.

قبّلته من بعيد وغادرت. أبعد المالك نظره عن حساباته، ووقف متأملاً محلّه. لقد علّمها المجوسي تلك الأشياء كلها لسببٍ ما، فمن المؤكد أن موهبتها وحدها ليست سبباً مقنعاً لاهتمامه بها. لا بد من أن ثمة دافعاً أقوى، وهذا ما ستكشفه ويكا.

كان وقت الإقفال قد حان. لاحظ صاحب المكتبة مؤخراً أن نوعية زبائنه قد تغيّرت، فغدوا أصغر سناً. ه قد تحققت نبوءة جميع تلك الكتب التي تعجّ بها الرفوف، فقد بدأت الأمور تعود إلى مجاريها.

يقع المبنى القديم في وسط البلدة، في مكانٍ لم يعد يؤمّه سوى السيّاح الذين يحنّون إلى بعضٍ من رومانسية القرن التاسع عشر. على بريدا الانتظار لأكثر من أسبوعٍ لتنال موافقة ويكا على زيارتها، وها هي تقف الآن في مواجهة عمارةٍ رمادية غامضة، تصارع لتكبح لهفتها. كان المبنى تماماً كما تصوّرته، المكان الملائم لسكن روّاد المكتبات.

لم يكن فيه مصعد. تسلّقت بريدا السلالم متباطئةً في محاولةٍ لتوفير بعضٍ من نَفَسِها حتى بلوغها الطابق المنشود. وحين وصلت، قرعت جرس الباب الوحيد الذي وجدته.

علا صوت نباحٍ من الداخل. مرّ بعض الوقت قبل أن تفتح الباب امرأةٌ رشيقة وأنيقة تبدو عليها ملامح الجدية.

قالت بريدا: لقد اتّصلت قبل أن آتي.

أشارت إليها ويكا لتدخل. وجدت نفسها في غرفة معيشةٍ مطليةٍ بكاملها بالأبيض، تزيّنها جداريات من الفن الحديث موزعةً في كل مكان: لوحاتٍ معلّقة على الجدران، ومنحوتاتٍ وأواني أزهار مرصوفة على الطاولات. غلّقت على الحائط، ستائر بيضاء ترشح نوراً صافياً.

كانت الغرفة مقسمة بذكاء، بحيث تتسع لبعض الأرائك وطاولة طعام ومكتبة تتراصف فيها الكتب. كلّ ما في الغرفة

ينمُّ عن ذوقٍ رفيع، ذكّر بريدا بمجلات الهندسة والديكور التي كانت تعاينها في ركن الصحف.

فكّرت: لا بدّ أن هذا كله كلّف ثروة.

قامت ويكا بمرافقتها عبر الغرفة الواسعة، وأوصلتها إلى فسحةٍ فُرشت بأريكتين إيطاليتين مصنوعتين من الجلد والفولاذ، تتوسطهما طاولة زجاجية ذات أرجل فولاذيةٍ قصيرة.

تكلّمت ويكا أخيراً قائلة: أنتِ لا تزالين في مطلع صباك.

وجدت بريدا أن ترداد إجابتها المعتادة حول الباليه لن يُجديها نفعاً، فلم تعلّق، مترقّبة ما سيبدر من المرأة، ومتسائلة ما الذي أتى بديكورٍ في مثل هذه الحداثة إلى مبنى عتيق كهذا. ومرة أخرى، اهتزّ تصورها الرومانسي للبحث عن المعرفة. قالت ويكا: لقد اتصلَ بي. وفهمت بريدا أنها تلمّح إلى صاحب المكتبة.

جئتُ أبحث عن معلّمٍ. أريد اتباع طريق السحر.

تأملت ويكا في الفتاة الماثلة أمامها. من المؤكد أنها تمتلك موهبة ما، لكن لا بد من كشف ما جعل مجوسي فولك يوليها تلك الأهمية كلها. فالموهبة وحدها ليست كافية. لو أنه حديث المعرفة بالسحر، لكان تجلّي موهبتها ليُبهره. لكن سنوات عمره جعلته يدرك أن كلاً منا يمتلك موهبة. كان المجوسي حكيماً لا تضلّله مثل هذه الملابسات.

وقفت ويكا وتوجّهت إلى أحد الرفوف، فسحبت منه ورق اللعب المفضل لديها.

- هل تجيدين توزيع الأوراق؟

أومأت بريدا برأسها. فقد سبق أن تابعت دروساً قليلة جعلتها

تدرك أن الورق الذي تحمله السيدة هو ورق تارو مؤلف من ثمان وسبعين ورقة. كانت قد تعلّمت طرائق عدة لرصفها، فأسعدتها فرصة التباهي بمعرفتها.

رغم ذلك، أبقت المرأة الورق بين يديها. خلطت الأوراق ووزّعتها مقلوبةً على الطاولة الزجاجية من دون أن تعتمد ترتيباً معيّناً، متبعة في ذلك طريقة مغايرة لما تعلّمته بريدا في دروسها. لم تتزحزح ويكا من مكانها، وشرعت تتأمل الأوراق للحظات، تمتمت بعدها بضع كلمات بلغةٍ غريبة، ثم قلبت ورقة واحدة فقط.

كان رقم الورقة ٢٣: ملك سباتي.

قالت: ستحظين بحمايةٍ جيدةٍ من قبل رجلٍ قوي قادرٍ ذي شعرٍ داكن اللون.

لا صديقها كان قوياً أو قادراً، ولا المجوسي كان شعره داكناً بل رمادي. كأنها قرأت أفكارها، علّقت ويكا: لا تفكّري في المظهر الخارجي، بل في رفيق روحك.

سألت بريدا باستغراب: ماذا تقصدين برفيق روحك؟

كانت المرأة تفرض احتراماً غريباً مختلفاً عن ذاك الإحساس الذي شعرت به بريدا تجاه المجوسي أو صاحب المكتبة.

لم تُجب ويكا. أخذت تخلط الأوراق من جديد، ثم وزّعتها على الطاولة متبعةً العشوائية نفسها، لكن هذه المرة كان وجهها ظاهراً. في وسط الأوراق غير المنسّقة برز الرقم ١١، مجسّداً امرأة تفتح فك الليث.

رفعت ويكا الورقة وطلبت إلى بريدا أن تحملها، فامتثلت من دون أن تفهم ما عليها فعله بالضبط.

- لطالما كان جانبك الأنثوي هو المسيطر على مدى حيواتك السابقة.

- ماذا تقصدين برفيق روحي؟

كرّرت بريدا سؤالها. كانت تلك المرة الأولى التي تتحدى فيها ويكا، برغم أن التحدي كان خجولاً للغاية.

حافظت ويكا على صمتها لبعض الوقت. عَبَر الشك أفكارها، فالمجوسي ارتأى لسببٍ ما ألا يحدّث بريدا عن رفقاء الروح. «هراء»، قالت في سرّها، وطردت الفكرة من رأسها.

- أول ما يتعلّمه المرء حين يتبع حكمة القمر هو فلسفة رفيق الروح، إذ من دون فهم هذه الفلسفة، لا يمكننا استيعاب انتقال المعرفة عبر الزمن.

تابعت ويكا شرحها في ظلّ صمت بريدا وقلقها.

- نحن خالدون لأن الله يتجلى فينا جميعاً. لذلك، نحيا حيوات عدة، ونموت مراراً. ننبعث من المجهول، ونهيم في اتجاه مجهولٍ آخر. ينبغي أن تقبلي الحقيقة القائلة بأن ثمة مظاهر كثيرة في السحر، لم ولن تفسَّر. لقد ارتأى الله خلقاً معيناً لبعض الأمور، ولا أحد يدرك سرّ ذلك سواه.

فكّرت بريدا: إنه ليل الإيمان الحالك. إذاً، فهو جزءٌ من حكمة القمر أيضاً.

تابعت ويكا: الحقيقةُ هي أن هذه الأمور تحصل فعلاً. وحين يفكر الناس في التقمّص، يواجهون دوماً سؤالاً في غاية الصعوبة:

إذا كان البشر الذين قطنوا الأرض بدايةً معدودين، ثم غدا عددهم اليوم لا يُحصى، فمن أين انبعثت تلك الأرواح كلها؟

حبست بريدا أنفاسها، فقد راودها هذا التساؤل مراتٍ ومراتٍ. وأضافت ويكا بعد استراحةٍ تلذّذت خلالها بصمت الصبيّة المتعطّشة: الإجابة في غاية البساطة. في بعض حالات التقمص، تنقسم أرواحنا إلى جزءين، تماماً كما الكريستال والنجوم، كالخلايا والنباتات.

«ينقسم الروح إلى زوجين، يتجزأ كل منهما إلى روحين آخرين، وفي غضون أجيالٍ قليلة، تتبعثر أرواحنا في أرجاء الأرض».

كانت الأسئلة تتضارب في ذهن بريدا، لكنها قررت أن تطرحها واحداً بعد الآخر، فبدأت بما بدا لها الأهم:

- وهل من بين هؤلاء واحد على الأقل يعرف من يكون؟

لم تُجب ويكا عن السؤال، بل تابعت:

«نحن نشكل جزءاً مما يسمّيه الخيميائيون: الأنيما موندي، أي روح العالم. والحقيقة أن اكتفاء الأنيما موندي بالتجزؤ المحض، يعزّز تكاثرها، لكنه يجعلها أضعف فأضعف. لهذا، في مقابل انقسامنا إلى جزءين، فإننا نتكامل من جديد عندما نجد نصفنا الآخر. عملية التكامل هذه تُطلَق عليها تسمية «الحبّ». ذلك أن الروح ينقسم دوماً إلى جزءين، أحدهما مذكّر والآخر مؤنث».

«ويرد شرح ذلك في «سِفر التكوين»: انقسمت نفس آدم إلى نفسين، فخُلقت منه حوّاء».

فجأة، توقفت ويكا عن الكلام وجلست تمعن النظر في الأوراق المبعثرة على الطاولة.

- ثمة أوراقٌ كثيرة، تنتمي جميعها إلى مجموعة الورق نفسها. ولفهم مغزى هذه الأوراق، نحن في حاجةٍ إليها كلّها، فهي جميعاً متساوية في الأهمية. والأمر نفسه ينطبق على النفوس، فالبشر مترابطون، تماماً كأوراق هذه المجموعة».

«في كل حياةٍ من حيواتنا، تتملّكنا حاجةٌ غامضة إلى لقاء أحد رفاق روحنا. فالحب الأعظم الذي فرّق بين هؤلاء يسعد بالعشق الذي يجمع شملهم من جديد».

- لكن، كيف لي أن أميّز رفيق روحي؟

شعرت بريدا بأن هذا أهم سؤال طرحته في حياتها.

ضحكت ويكا. هي أيضاً طرحت السؤال نفسه من قبل، باللهفة الشديدة عينها التي تراها في الصبية الماثلة أمامها.

- تميّزينه من ضياء عينيه. مذ وُجد البشر، وهم يأنسون إلى حبّهم الحقيقي من ضياء عينيه. أما حكمة القمر، فتعتمد أسلوباً مختلفاً: نوعاً من الرؤى يُرشدك إلى بقعة ضوءٍ تعلو كتف رفيق روحكِ اليُسرى.

لم تُفصح ويكا لبريدا عما جال في رأسها. فهي قد تتعلّم يوماً رؤية تلك البقعة، كما أنها قد لا تفعل. وستأتيها الإجابة قريباً.

أكملت ويكا: بولوج الأخطار... بالمجازفة بالفشل، وبخيبة الأمل ومواجهة الوهم، من دون الاستسلام في السعي وراء الحبّ. وإذا ثابرت على البحث، فسوف تنتصرين في النهاية.

استعادت بريدا ما قاله المجوسي يوم تحدّث عن درب السحر. كان كلامه مشابهاً، ففكّرت: ربما يتحدثان عن الأمر عينه.

شرعت ويكا في لملمة الأوراق عن الطاولة، فعرفت بريدا أن وقتها شارف على الانتهاء. لكن، كان لديها سؤالٌ أخير:

- أوَ يمكن أن يلتقي المرء أكثر من شقّ روحٍ واحدٍ في الحياة الواحدة؟

«نعم»، ردّدت ويكا في سرّها بشيءٍ من المرارة. «وحين يحصل ذلك، ينقسم القلب، فتأتي العاقبة ألماً وعذاباً. نعم، يمكننا أن نلتقي ثلاثة شقائق أو أربعة، لأن شقائق أرواحنا كثيرون ومشتتون». كانت بريدا تطرح أسئلة صائبة، لكن، كان على ويكا أن تتجنّب الإجابة عنها.

«إنّ جوهر الخلق يتجسد في أمرٍ واحد أوحد فقط، هو الحبّ. والحبّ هو القوة التي تجمع بين أرواحنا، بهدف تكثيف تلك التجربة المشتتة بين حيواتٍ عدّة، والمبعثرة بين أبناء العالم.

علينا البحث في كل أرجاء الأرض، ذلك أننا لا نعلم أين يمكن أن تكون كل شقائق روحنا التي بدأت بالتجزؤ منذ الأزل. فإذا كانت مرتاحة، فإننا أيضاً سنكون سعداء. لكن، إن كانت تعاني خطباً ما، فسوف نعاني جزءاً من ألمها، وإن تمّ ذلك في لاوعينا.

وبالرغم من ذلك كله، فإن الأهم يبقى أننا مسؤولون عن مصادفة أحد شقائق روحنا، على الأقل مرة واحدة في كل حياة، ذاك الشق الذي لا بدّ من أنه سيعترض مسيرتنا، حتى لو لم يتعدّ اللقاء لحظات، فهذه الهنيهات تحمل معها حبّاً فيه من العَظَمة ما يكفي لأن يجعل لبقيّة أيام حياتنا معنى».

علا صوت من المطبخ. جمعت ويكا الأوراق كلها، ونظرت مجدداً إلى بريدا.

- في مقدورنا أن ندع نصفنا الآخر يفوتنا من دون أن نعترف به أو حتى بعبوره. عندها، يجب علينا انتظار حياتنا اللاحقة كي نلتقيه من جديد. وبسبب أنانيّتنا، سيُحكم علينا بأبشع عذابٍ أوجدته البشرية لنفسها: الوحدة.

نهضت ويكا ورافقت بريدا إلى الباب.

وقبل أن تودّعها قالت: لم تأتِ إلى هنا لتسمعي عن توأم روحك. لديك «موهبة». متى حدّدتها، قد أتمكن من تلقينك حكمة القمر.

أحسّت بريدا بأنها استثنائية. كانت بحاجة إلى ذاك الامتلاء. فقد شعرت بأنها تكنّ لتلك المرأة إجلالاً لم تكنّه إلا لقلائل.

«سأقوم بما في وسعي. أريد تعلّم حكمة القمر».

أكملت في سرّها: لأن حكمة القمر لا تتطلّب إمضاء ليلةٍ كاملة في غابة مظلمة.

أجابت ويكا بحزم: الآن، استمعي إليّ: من اللحظة فصاعداً، اجلسي وحدكِ كل يوم في وقتٍ محدّد تختارينه، ووزّعي أوراق التارو كما فعلتُ أنا اليوم، بعشوائيةٍ مطلقة. لا تحاولي أن تفهمي. كل ما عليك فعله تأمّل الأوراق، وهي كفيلةٌ بتعليمك كل ما تحتاجين إليه في الوقت الراهن.

أثناء هبوطها الدرج، راحت بريدا تفكر: مجدداً، عليّ تعليم نفسي، كما في حكمة الشمس. ولم تتنبّه بريدا إلى ما قالته السيدة حول «موهبتها»، حتى بلغت الباص. سوف تسألها عن هذه الموهبة خلال لقائهما القادم.

طوال أسبوع كامل، كانت بريدا تكرّس نصف ساعةٍ يومياً لتوزيع أوراق التارو على الطاولة في غرفة الجلوس. تخلد إلى النوم في العاشرة ليلاً وتستيقظ على رنين منبّهها في الواحدة صباحاً، لتنهض وتحضّر كوباً من القهوة، ثم تجلس متأمّلة في الأوراق، في محاولةٍ لفك رموز أحرفها الخفية.

في الليلة الأولى، تملّكتها اللهفة. كانت مقتنعة بأن ويكا كشفت لها بعض الطقوس السرية. لذا، حاولت أن ترصف الأوراق بالطريقة نفسها، مترقّبة ظهور رسالة سحرية. وبعد حوالى نصف ساعة من التأمل، كان جلّ ما لمسته بضع رؤى شعرت بأنها ليست سوى ثمرة مخيّلتها. وما عدا ذلك، لم يحصل ما يستدعي اهتماماً عظيماً.

وفي الليلة الثانية، كرّرت المحاولة. كانت ويكا قد أخبرتها بأن الأوراق تفصح بنفسها عن رسالتها الخاصة. وبالنظر إلى ما تعلّمته بريدا في صفوف التارو، فإن هذه قصة قديمة جداً، تعود إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام، أي إلى ذلك العهد الذي كانت البشرية فيه أقرب إلى الحكمة الأصلية.

«تبدو الصور في غاية البساطة: امرأةٌ تفتح فكّ الأسد، عربةٌ يجرّها حيوانان غريبان؛ رجلٌ يجلس أمام طاولة تعلوها أشياء متنوّعة. كانت قد تعلّمت أن مجموعة الورق هي بمثابة كتاب،

دوّنت فيه الحكمة الإلهية التغيّرات الأساسية التي ستطرأ خلال رحلة الحياة. لكن من كتبوا هذه الحكمة، كانوا يدركون ميل البشر إلى التعلّم من الرذيلة عوضاً عن الفضيلة. لذا، رأوا في لعبة الورق وسيلة لنقل الحكمة عبر الأجيال. الورق ابتكارٌ أوجدته الآلهة.»

وفي كلّ مرة كانت توزّع فيها الأوراق، كانت تكرّر في سرّها أن الأمر لا يمكن أن يكون بهذه البساطة. لقد تم تلقينها طرائق معقدة وأنظمةً دقيقة، لكن هذه الأوراق غير المنسقة بدأت تشوّش منطقها.

في الليلة الثالثة، رمت بريدا الأوراق، على الأرض بغضب. خطر لها للحظةٍ أن تصرّفها الغاضب قد يحمل إلهاماً سحرياً ما، لكن النتائج لم تكن مُرضية بالقدر نفسه، فكل ما حصدته بضعة ظلال طردتها مجدداً، معتبرة إياها مجرّد تهيؤات.

لم تبارح فكرة شق الروح، كل ذاك الوقت، ذهنها لثانيةٍ واحدة. في البداية، شعرت بأنها استعادت أيام المراهقة حين كانت تحلم بفارسٍ آسر يعبر الجبال والأودية، بحثاً عن صاحبة الحذاء الزجاجي، أو ليوقظها بقبلته الجميلة النائمة.

خاطبت نفسها بشيءٍ من الدعابة: لقاء النصف الآخر أمرٌ لا وجود له سوى في حكايات الخيال. وقد شكّلت تلك الروايات الخيالية تجربتها الأولى مع العالم السحري الذي تتحرّق إلى سبر أغواره. ولطالما تساءلت عن سبب إقصاء البشر أنفسهم عن ذاك الكون الملهم، برغم البهجة الآسرة التي بعثتها الطفولة في حياتهم.

«ربما لم يَزق لهم الإحساس بالبهجة». رغم العجب الذي وجدته في فكرتها، دوّنتها في مفكّرتها معتبرة إياها خاطرة «مبدعة».

بعد أسبوع قضته بريدا وفكرة شق الروح تستحوذ عليها، تملّكها شعورٌ مرعب: ماذا إذا اختارت الرجل الخطأ؟ وعندما استيقظت في الليلة الثامنة للقيام بجلسة التأمل غير المجدية في أوراق التارو، قرّرت أن تدعو صديقها غداً إلى تناول العشاء في الخارج.

اختارت مطعماً أسعاره مقبولة لأنها تعرف إصرار صديقها على دفع الحساب، رغم أنه، كمساعد أبحاثٍ يعمل مع بروفسور في الفيزياء، يجني أقل بكثير مما تجنيه بريدا في وظيفتها كسكرتيرة. كان الطقس لا يزال صيفياً، فجلسا إلى إحدى طاولات الرصيف المحاذي للنهر.

سأل لورنس مداعباً بطيبة: متى ستسمح لي الأرواح بمطارحتك الحب من جديد؟

نظرت إليه بريدا نظرة ملؤها الحنان. لقد طلبت إليه ألا يقصد شقتها لمدة أسبوعين، ووافق رغم اعتراضٍ ودي كان يكفيها لتدرك مدى حبّه لها. هو أيضاً كان يسعى، بطريقته، إلى فهم أسرار الكون. وسيجب عليها القبول إذا ما طلب إليها يوماً أن تبتعد عنه لأسبوعين.

تناولا لعشاء على مهل، وهما يراقبان بصمتٍ السفن تمرّ، ويشاهدان لناس يعبرون الرصيف. أفرغا زجاجة النبيذ الأبيض وجلبا أخرى. بعد نصف ساعة، كان كرسيّاهما متلاصقين وذراعاهما متلاحمتين، وأنظارهما تطوف في سماء الصيف المرصعة بالنجوم.

خاطب لورنس بريدا وهو يداعب شعرها: انظري فقط إلى هذه السماء. ما نراه الآن هو بالضبط ما كانت لتكون عليه السماء قبل آلاف السنين.

كان قد شاركها في الفكرة نفسها يوم تعارفا، لكن بريدا ارتأت ألا تقاطعه. فهذه طريقته في مشاركتها هذا العالم.

«نجومٌ كثيرة مثل هذه ماتت، لكن شعاعها لا يزال يملأ الكون. وأخرى وُلدت بعيداً جداً ولم يصلنا شعاعها بعد».

- إذاً، لا أحد يعرف شكل السماء الفعلية؟

كانت قد طرحت عليه السؤال نفسه في لقائهما الأول. جميلٌ استرجاع تلك اللحظات الممتعة.

- لسنا ندري، فنحن ندرس ما تمكننا رؤيته. وما نراه لا يعكس دائماً ما يوجد في الكون.

- أريد أن أطرح سؤالاً: ممَّ نحن مصنوعون؟ من أين أتت هذه الذرّات التي تكوّن أجسامنا؟

نظر لورنس إلى السماء وأجاب:

- خُلقت عندما خُلقت هذه النجوم وهذا النهر، لحظة الوجود الأولى.

- إذاً، لم يُضَف شيء منذ لحظة الخلق تلك.

- نعم، لم تتمّ إضافة شيء. كل شيء كان يتبدّل، ولا يزال متحرّكاً. لكن كل المواد الموجودة في الكون اليوم هي نفسها منذ مليارات السنين، لم تُضفْ ذرة واحدة إليها.

أخذت بريدا تتأمل في حركة النهر والنجوم. من السهل مشاهدة جريان النهر عبر الأرض، لكن تعذّرت رؤية النجوم تطوف في السماء، مع أنها كانت تتحرّك.

بعد صمتٍ طويل راقبا خلاله مرور إحدى السفن، قالت بريدا أخيراً: لورنس، اسمح لي بسؤالٍ قد يبدو لك غريباً ولامنطقياً: هل

من الممكن فيزيائياً أن تكون ذرّات جسدي قد كوّنت جسم شخصٍ عاش من قبلي؟

حدّق لورنس فيها بذهول.

- ماذا تقصدين؟

- ما قلته. هل هذا ممكن؟

- ربّما وُجِدَتْ في نباتاتٍ أو حشرات، كما أنها قد تكون استمالت جزيئات هليوم تهيم في فضاءٍ ما، على بعد ملايين الأميال من الأرض.

- لكن، هل يمكن أن تكون ذرّات جسم قضى في جسمي وفي جسم شخصٍ آخر؟

صمت للحظة ثم أجاب:

- نعم، هذا ممكن.

تناهى إلى مسمعهما صوت موسيقى آتٍ من بعيد. كان مصدره مركباً يعبر النهر. ورغم المسافة البعيدة، فإن ثمة لوحة ارتسمت أمام بريدا، إطارها نافذة المركب المضاءة، وفي اللوحة طيف بحّار. ذكّرها اللحن بأيام المراهقة، وأعاد إليها ذكريات رقصات المدرسة، ورائحة غرفة نومها، ولون رباط الشعر الذي لطالما استعملته في تسريحة ذيل الحصان. أدركت بريدا أن سؤالها لم يخطر قط في بال لورنس، وأنه الآن يتساءل إن كانت في جسده ذرّات لمحاربي الفايكنغ، أو لحممٍ بركانية، أو لحيوانات من حقبة ما قبل التاريخ انقرضت في ظروف غامضة.

أفكارها كانت في مكانٍ آخر. جلّ ما أرادت معرفته إن كان هذا الرجل الذي يحضنها بحنانٍ غامر، قد شكّل يوماً جزءاً منها.

اقترب الزورق منهما وبدأت الأنغام تملأ الجوّ من حولهما. انقطعت الأحاديث على الطاولة المجاورة أيضاً، فالكل متلهفون إلى معرفة مصدر الموسيقى، لأنهم جميعاً حضروا حفلات الرقص في المدرسة، وحلموا أحلاماً ترشح قصص محاربين وجنّ.

- أحبك يا لورنس.

كانت بريدا مفعمة بأمل أن يكون في هذا الشاب، العارف شعاع النجوم، بعضٌ من الشخص الذي كانته يوماً.

«ليس الأمر جيداً. لا يمكنني القيام بذلك».

اعتلت بريدا سريرها ورمت نظرة «متعاطفة» على علبة السجائر التي تعلو منضدة السرير. قرّرت أن تكسر جميع عاداتها، وأن تدخن سيجارة قبل تناول طعام الفطور.

أمامها يومان قبل أن تلتقي ويكا مجدداً. كانت تعلم أنها بذلت قُصاراها خلال الأسبوعين الماضيين. توسلت كل أملٍ لديها في تطبيق الطريقة التي تعلّمتها من السيدة الفاتنة الغامضة في توزيع الأوراق، وجهدت لئلا تخيّب أملها، لكن الأوراق رفضت أن تتكشّف عن أسرارها.

كانت تنتابها رغبةٌ في البكاء كلّما انتهت من المحاولة طوال الليالي الثلاث الماضية. تملّكها شعور بالضعف والوحدة، وأحسّت بأن فرصةً عظيمة تفلت من بين يديها. رأت مجدّداً أن الحياة تميّزها من الآخرين؛ فقد أُعطيت كلّ الفرص لتحقّق شيئاً ما، لكنها كلّما اقتربت من بلوغ الهدف، كانت الأرض تنشقّ وتبتلعها. تَكرَّرَ ذلك في دراستها، ومع بعض الشبّان، وأيضاً في بعض أحلامها التي احتفظت بها لنفسها دون مشاركة من أحد.

جاءتها صورة المجوسي، فربما تمكّن من مساعدتها. لكنها قطعت على نفسها عهداً بعدم العودة إلى فولك، إلا إذا كان في جعبتها معرفة للسحر تكفي لمواجهة المجوسي من جديد.

وهذا ما يبدو لها الآن، أنه لن يحدث أبداً.

مكثت طويلاً في السرير، ثم قررت النهوض لتحضير الفطور. تمكّنت أخيراً من استجماع العزم والشجاعة الكافيين لمواجهة يوم جديد لن يكون سوى «ليلٍ حالكٍ»، على ما درجت أن تسمّي نهاراتها منذ تجربتها في الغابة. حضّرت بعض القهوة، استشارت ساعتها واستنتجت أن أمامها ما يكفي من الوقت.

توجّهت نحو رفّ الكتب وبحثت عن قصاصة الورق التي قدّمها إليها صاحب المكتبة. فكّرت مواسيةً نفسها: لا بد من وجود سبلٍ أخرى. فقد التقت المجوسي، ثم ويكا. ومن المؤكد أنها ستلتقي في النهاية ذاك الشخص الذي يستطيع تلقينها السحر بطريقةٍ تفهمها.

لكنها كانت تعلم بأن حججها واهية.

فكّرت محتدّةً في استسلامها الدائم. قد تتدارك الدنيا ذلك ربما، وتتوقّف عن دعمها المستمر لها، أو قد تكون هي قد استنفدت جميع السبل الممكنة عبر الاستسلام منذ البداية في كل مرة من دون التقدم خطوة واحدة.

لكن هذه هي حالها، وها هي تشعر بالضعف ينال منها تدريجاً، وبقدرتها على التغير تضمحلّ شيئاً فشيئاً. قبل سنوات قليلة، كانت تصرّفاتها هذه لتثبط عزيمتها، لكنها على الأقل كانت قادرة على القيام بتلك البادرة البطولية في بعض الأحيان؛ أما اليوم فقد بدأت بالتأقلم مع أخطائها. كانت تعرف أشخاصاً آخرين عاشوا التجربة نفسها، وألفوا أخطاءهم، وما لبثوا أن غدوا يرون إليها على أنها فضائل. وحين يحدث ذلك، يكون الأوان قد فات.

خطر لها ألا تتصل بويكا وأن تختفي بكل بساطة. لكن، ماذا

عن المكتبة؟ ستعوزها الجرأة لتقصدها ثانية. فمالكها لن يكون باللطافة نفسها عندما تراه من جديد. «سبق أن حدث ذلك. فقد سبّب أحد تصرّفاتي المتهوّرة مع أحد الأشخاص، انقطاع التواصل مع كثيرين أحببتهم فعلاً». لم يكن في إمكانها تكرار التجربة، فهي تسلك درباً تندر فيها العلاقات القيّمة.

استجمعت رباطة جأشها، وطلبت الرقم المدوّن على القصاصة. أجابت ويكا على الاتصال.

- لن أتمكن من الحضور غداً.

- أجل، والسبّاك أيضاً لن يتمكن من المجيء.

للحظة، لم يكن لدى بريدا أي فكرة عمّا يمكن أن يعنيه ذلك. راحت ويكا تتذمّر من مشكلةٍ تواجهها مع المجلى، وكيف أنها اتفقت مرات عدّة مع أحدهم كي يأتي، ويصلح العطل؛ لكنه يتغيّب في كل مرة، ثم استغرقت في قصةٍ طويلة عن المباني القديمة المكتظة بجميع أنواع المشاكل، برغم شكل عمارتها البالغ العظمة أحياناً. وفي منتصف حديثها عن السباك، سألت ويكا:

- هل أوراق التارو أمامك؟

وسط دهشتها ردّت بريدا بالإيجاب. طلبت إليها ويكا أن تبسط الأوراق على الطاولة لأنها ستعلّمها طريقة لمعرفة إن كان السباك سيحضر في اليوم التالي أم لا. استجابت بريدا رغم دهشتها المتزايدة. فرَدَت الأوراق وجلست تحدّق إلى الطاولة بعينين خاويتين، في انتظار إرشادات ويكا عبر الهاتف. كانت الشجاعة لتفسير سبب اتصالها تخبو بشكلٍ تدريجي.

وأمام إصرار ويكا على متابعة الكلام، قررت بريدا الإصغاء برحابة صدر، فربما صارتا صديقتين. وعندها يحتمل أن يصبح لدى ويكا من الجَلَد ما يكفي لتضيء أمام بريدا طرقاً تسهّل لها فهم حكمة القمر.

كانت ويكا تنتقل من موضوعٍ إلى آخر، وتقفز بين أطراف الأحاديث، ناسجة خيوط ربطٍ في ما بينها. فما إن أنهت موجة التذمّر من السبّاكين، حتى استرسلت في وصف جدالٍ دار بينها وبين المسؤول عن المبنى حول مرتّب الناطور. ثم انتقلت إلى الحديث عن تقريرٍ قرأته عن البانسيونات القديمة.

علّقت بريدا على كلام ويكا ببضع عبارات تأييد، معلنةً موافقتها على كل ما قالته المرأة، رغم توقّفها عن الإصغاء. نال منها الضجر بشكلٍ رهيب، فهذه المحادثة في ساعة مبكرة من المصباح، مع امرأةٍ لا تكاد تعرفها، عن السباكين والنواطير وأصحاب البانسيونات، كانت أكثر الأمور التي اختبرتها في حياتها إثارة للملل. حاولت تسلية نفسها بالأوراق المفرودة على الطاولة، مكتشفة تفاصيل صغيرة لم تتنبّه إليها من قبل.

بين الفينة والأخرى، كانت ويكا تسأل بريدا إن كانت تتابعها، فتتمتم بريدا: «نعم»، رغم شرودها على بعد آلاف الأميال تجوب في الآفاق، وتطوف في أماكن لم يسبق لها أن زارتها يوماً. كان كلّ تفصيل على الأوراق يدفع خيالها أبعد، عبر تجوالها ذاك.

فجأةً، كأنها تلج الحلم، أدركت بريدا أنها لم تعد تستطيع سماع ما تقوله ويكا. صوتٌ ما راح يهمس لها، صوتٌ بدا باطنياً لكنها تدرك أنه خارجي. «هل تفهمين؟ سألها. ردّت بريدا بالإيجاب.
«هل تفهمين؟ كرّر الصوت الغامض من جديد.

لم يكن ذلك كله مهماً. فأوراق التارو أمامها بدأت تُظهر مشاهد عجيبة: رجالاً ذوي أجسادٍ برونزية زيتية لا تغطيها سوى أحزمة جلدية وبضعة أقنعة أنيقة، جعلتهم يبدون أشبه برؤوس ضخمة لأسماكٍ. راحت الغيوم تتسابق عبر السماء، لكأن كل شيء يتدافع بسرعةٍ قياسية. فجأة، تحوَّل المشهد إلى ساحة تحيط بها أبنيةٌ مهيبة، فيها بضعة شيوخٍ يتعجّلون في نقل الأسرار إلى مجموعةٍ من الصِّبْية، كأن أحد أشكال المعرفة المغرِقة في القدم على وشك أن يضيع إلى الأبد.

وفي خضم ما بدا كأنه مناسبة احتفالية، صرخ صبيٌّ يرتدي ثياباً من القرون الوسطى: «زِد سبعة على ثمانية تحصل على رقمي. أنا الشيطان، ولقد وقّعت الكتاب». رجالٌ ونساء سكارى ألقوا عليها ابتسامة سخرية. تغيّر المشهد مجدداً ليحلّ محلّه البحر، ولتظهر معابد منحوتة من الصخر. وما لبثت سحبٌ سوداء أن بدأت تحجب السماء، تثقبها ومضات برقٍ لامعة.

ظهر بابٌ ثقيل يشبه أبواب القصور القديمة، أخذ يدنو من بريدا، فحدست بأنها ستتمكن قريباً من فتحه.

علا الصوت: عودي.

«عودي»، كرّر الصور عبر الهاتف. كان مصدره ويكا. انزعجت بريدا من مقاطعة ويكا تلك التجربة الاستثنائية التي كانت تعيشها، فقط كي تُضجرها بالمزيد من الأحاديث حول النواطير والسبّاكين.

«لحظة واحدة»، أجابت وهي تبحث بكل جوارحها عن ذاك الباب، لكنه كان قد اختفى.

ردّت ويكا: أعرف ما حدث معك. ذهشت بريدا، وانتابتها حالةٌ من الذهول. لم يكن في مقدورها استيعاب ما يحصل.

كرّرت ويكا كأنها تجيب عن صمت بريدا: أعرف ما حدث. لن أضيف شيئاً آخر عن السبّاك الذي حضر في الأسبوع الماضي وأصلح الأعطال كلها.

وقبل أن تغلق السماعة، أكدت لبريدا أنها ستنتظرها في الموعد المتفق عليه.

أقفلت بريدا الخط من دون أي كلمة وداع. وجلست مطوّلاً تتأمل حائط المطبخ قبل أن تستسلم لبكاءٍ متشنّجٍ، لكنه مريح.

حين جلستا مجدداً على الأرائك الإيطالية، علّقت ويكا على رعب بريدا: كان ذلك مجرّد حيلة.

أكملت: أعرف ما ينتابكِ من أحاسيس. في بعض الأحيان، نتخلّى عن دربٍ ما، لأننا ببساطة لا نؤمن بها. وهذا سهل، فكل ما علينا فعله إثبات أن تلك الطريق ليست لنا. لكن الأحداث التي تبدأ بالحصول، والإلهام الذي يأتينا خلال مسيرتنا، يبعثان فينا الخوف من المتابعة.

قالت ويكا إنها لم تفهم يوماً لماذا يقضي جميع هؤلاء الأشخاص حيواتهم في هدم سبلٍ لم يرغبوا حتى في اتّباعها، بدلاً من سلوك الطريق الوحيدة التي ستوصلهم إلى مكانٍ ما.

احتجّت بريدا: لا أصدّق أن ما حصل مجرّد خدعة. بدا أنها تخلّت عن غرورها واستخفافها، بعد أن كبر احترامها لويكا على نحو ملحوظ.

«لا، لا، رؤيتك لم تكن مجرّد خدعة، بل حديث الهاتف فقط. لقد عشنا ملايين السنين، تحدّثنا خلالها فقط إلى الأشخاص الذين استطعنا رؤيتهم. وفي أقل من قرنٍ واحد، غدا مفهوما «الرؤية» و«التحدّث» منفصلين. ونحن نعتقد أن الأمر طبيعي للغاية، فلا نتنبّه إلى تأثيره العميق في ردود أفعالنا، ذلك أن أجسادنا لم تتأقلم بعد.

«والنتيجة العملية لذلك دخولنا في حالة تشبه، إلى حدٍّ بعيد،

بعض حالات من الغيبوبة السحرية. أثناء حديثنا على الهاتف، ينتقل عقلنا إلى موجةٍ أخرى، فيصبح أكثر استقبالاً لإشارات العالم اللامنظور.

«أعرف ساحراتٍ يحتفظن دوماً بقلمٍ وورقة إلى جانب الهاتف، فيخربشن أثناء مكالماتهن أشياء تبدو في الظاهر خالية من أي معنى. وحين يقفلن الخط، يتنبّهن إلى أن رسومهن ما هي إلا رموز تابعة لحكمة القمر».

- لكن، لمَ كشفت لي أوراق التارو عن نفسها؟

- هذه هي المشكلة الكبرى لدى كل من يبغي تعلّم السحر. حين ننطلق في رحلتنا، تكون لدينا فكرةٌ شبه واضحة عمّا نأمل إيجاده. النساء غالباً ما يبحثن عن رفيق روحهن، في حين أن الرجال يسعون وراء السلطة. وكلا الطرفين لا يهتم فعلياً بالتعلّم، بل يطمح بكل بساطة إلى تحقيق الهدف المنشود.

- لكن طريق السحر - كما درب الحياة - لا تُفضي إلا إلى الغموض، وستبقى كذلك إلى الأبد. فالتعلم يعني الاحتكاك بعالمٍ لا نعرف شيئاً عنه. كي نتعلّم، ينبغي أن نتحلّى بالتواضع.

علّقت بريدا: كالغوص في الليل الحالك.

أجابت ويكا: لا تقاطعيني. حمل صوتها نبرة انزعاج لم تتمكن من كبتها تماماً، لكن بريدا علمت بأن ما قالته لم يكن السبب. فكّرت: قد تكون غاضبة من المجوسي. ربما أحبّته يوماً، فهما في العمر نفسه تقريباً. ثم أجابت: أنا آسفة.

بدت ويكا متفاجئة بالقدر عينه من ردّ فعلها حين قالت: لا بأس!

- كنت تخبرينني عن أوراق التارو.

- في كل مرة وزّعت فيها تلك الأوراق، تولّد لديك تصوّرٌ مسبق عما سيحدث. لم تسمحي لها بأن تخبرك قصتها، بل حاولتِ أن تجعليها تؤكد لك ما اعتقدتِ أنك تعرفينه.

- أدركتُ ذلك أثناء محادثتنا الهاتفية. عرفت أيضاً أن هذه إشارات، وأن الهاتف حليفي. لذلك، استرسلت في حديثٍ مُضجر للغاية، وطلبت إليك أن تتأملي في الأوراق. لقد عشت غشاوةً سببها الهاتف، بينما قادتك الأوراق إلى عالمها السحري.

اقترحت ويكا على بريدا أن تنظر ملياً في عيني من يصادف وجودها قربه، وهو يتحدّث على الهاتف، فسوف تُفاجأ بما تراه.

أثناء تناول الشاي في مطبخ ويكا المدهش بحداثته وعملانيته، قالت بريدا: أريد أن أسألك شيئاً آخر. أودّ أن أعرف لماذا لَمْ تدعيني أتخلّى عن الدرب.

فكرت ويكا: لأنني أريد معرفة ما وجده المجوسي فيك، فضلا عن موهبتك، لأن لديك موهبة ما.

- كيف تعرفين؟

- هذا سهل، من خلال أذنيك.

قالت بريدا في سرّها: من خلال أذنيّ! كم أن ذلك مخيّب للآمال! وأنا من حسب أنها تستطيع رؤية الهالة التي تحيط بي.

- جميع الناس يتحلّون بموهبةٍ ما، لكن بعضهم - وأنا منهم على سبيل المثال - تولد معه موهبةً أكثر تطوّراً من الآخرين الذين عليهم أن يصارعوا لتطويرها. صاحب الموهبة تكون شحمة أذنه صغيرة جداً وملتصقة بوجهه. لمست بريدا شحمتي أذنيها تلقائياً. كان كلام ويكا صحيحاً.

- هل تملكين سيارة؟

أجابت بريدا بالنفي.

،إذاً، استعدّي لإنفاق ثروة على سيارات الأجرة،. قالت ويكا وهي تنهض من مكانها:

- حان الوقت للانتقال إلى الخطوة التالية.

نهضت بريدا والأفكار تجول في رأسها، فقد تطوّرت الأمور بشكلٍ سريع جداً وفجائي. كانت الحياة قد بدأت تشبه الغيوم التي ظهرت لها في الغيبوبة السحرية.

مع حلول العصر، بلغتا جبالاً تبعد حوالى ١٥ ميلاً جنوبي دبلن. تمتمت بريدا بينها وبين نفسها، وهي تنقد السائق: كان في استطاعتنا قطع المسافة نفسها بالباص. كانت ويكا تحمل معها حقيبة وبعض الملابس.

قال السائق: يمكنني الانتظار إذا أردتما، فمن الصعب إيجاد سيارة أجرة للعودة في هذه المنطقة. نحن في وسط اللامكان.

«لا تقلق»، أجابت ويكا، محاولة بعث الطمأنينة في قلب بريدا، «فنحن نحصل دائماً على ما نريد».

ألقى السائق نظرة غريبة عليهما وانطلق مبتعداً. كانتا واقفتين قبالة حرجٍ يمتد حتى أسفل أقرب الجبال إليهما.

بادرت ويكا: اطلبي الإذن لولوج الغابة، فأرواح الغابات تحبِّذ دوماً العادات التي تنمّ عن ذوقٍ رفيع.

طلبت بريدا الإذن.

بدا لها أن الحياة دبّت فجأة في الغابة التي لم تكن، حتى اللحظة سوى غابة عادية.

راحتا تسيران عبر الأشجار، فقالت ويكا الزمي الجسر الذي يفصل بين العالمين: المنظور واللامنظور. كل ما في الكون قابل

لأن يكون حياً، وينبغي لك أن تحاولي دوماً الحفاظ على التواصل مع الحياة. فهي تفهم لغتك. وسيصبح للعالم معنى آخر في نظرك.

أدهشت بريدا رشاقةُ ويكا، فقدماها تحلّقان فوق الأرض من دون أن تصدرا أي صوتٍ تقريباً. وصلتا إلى بقعةٍ جرداء، تجاور صخرة ضخمة. وبريدا، المنشغل تفكيرها لحظتها، بلا توقف، في كيفية وصول تلك الصخرة إلى مكانها، تنبّهت إلى رماد الحريق المبعثر في منتصف البقعة الجرداء.

كان المكان جميلاً، وشمس الأصيل الصيفية ساطعة تبث أشعة ذهبيّة دافئة، تفصلها ساعتان عن الغروب. والطيور تشدو، والنسيم العليل يداعب أوراق الشجر. من مكانهما المرتفع، تمكّنت بريدا من تأمل المدى أفقياً وعمودياً.

أخرجت ويكا رداءً من حقيبتها وارتدته فوق ملابسها، ثم وضعتها بين الأشجار، بحيث تتعذّر رؤيتها من البقعة.

- اجلسي.

بدت ويكا مختلفة اختلافاً حيّر بريدا. أهوَ الرداء أم الاحترام العميق الذي بعثه المكان في نفسها تجاهها؟

- عليّ أولاً أن أشرح ما سأقوم به. سوف أكتشف كيفية تجلّي الموهبة فيك. لن أتمكن من البدء بتعليمك قبل أن أدرك ماهيتها. طلبت ويكا إليها أولاً، أن تحاول الاسترخاء مستسلمةً لروعة المكان، تماماً كاستسلامها لأوراق التارو.

- لقد بدأتِ رحلة السحر في إحدى مراحل حيواتك السابقة. لقد توصّلت إلى ذلك من خلال الرؤى التي وصفتها لي.

أغلقت بريدا عينيها، لكن ويكا سرعان ما أمرتها بفتحهما.

- الأماكن السحرية جميلةٌ دوما وتستحق تأملها. الشلالات والجبال والغابات، كلّها أماكن تميل أرواح الأرض إلى التسلية والضحك فيها، وأيضاً إلى محادثة الإنسان. أنت في مكانٍ مقدس. وهو يُظهر لك العصافير والريح. اشكري الله على ذلك، على الطيور والريح، وعلى الأرواح التي تقطن هذه الغابة. وابقي دوماً على الجسر الذي يفصل بين العالمين.

ما برح صوت ويكا يبعث الاسترخاء في نفس بريدا التي تملّكها في تلك اللحظة إجلال شبه ديني.

- حدّثتُك مؤخراً عن أحد أعظم أسرار السحر: شقّ الروح. حياة المرء كلّها على سطح الأرض، تتلخّص بالبحث عن توأم روحه. ويمكن أحدنا الادعاء أنه يسعى وراء الحكمة أو المال أو السلطة، لكن أياً من تلك لا يهم. فكلّ ما يحقّقه المرء يظلّ ناقصاً إذا فشل في إيجاد نصفه الآخر.

- إذا استثنينا بعض المخلوقات المتحدّرة من الملائكة، والتي تحتاج إلى الوحدة كي تقابل وجه الله، فإن الإنسانية بأكملها لن تتوصل إلى اللُّحمة مع الله، إلا إذا تمكن البشر من التواصل مع شقائق أرواحهم في مرحلةٍ ما أو لحظةٍ ما، من حيواتهم.

استشعرت بريدا طاقة غريبة في الهواء. اغرورقت عيناها للحظاتٍ بدموعٍ لم تتمكّن من تفسيرها.

- في الجانب المظلم من الزمن، أي حين كنّا منفصلين، كُلِّف جنسٌ من المخلوقات، هو الرجل، بتنشئة المعرفة وصَوْنها. وقد ذهب إلى دراسة الزراعة والطبيعة وحركة النجوم في السماء. لطالما شكّلت المعرفة القوة التي ثبّتت الكون في مكانه، وجعلت النجوم

تدور في أفلاكها. وهنا، كَمَنَ مَجْدُ الرجل، في تغذية المعرفة والحفاظ عليها. وهذا هو سبب بقاء البشرية بأكملها.

أما النسوة، فَمُنِحْنَ أمراً أكثر سُموّاً ورقّة، لكنه يفقد أيّ معنى له في غياب المعرفة. ما مُنِحْنَهُ كان القدرة على التحويل. جعل الرجل الأرض خصبةً، ونحن نثرنا البذور، فاستحالت التربة أشجاراً ونباتات. التربة تحتاج إلى البذور، وكذلك البذور في حاجة إلى التربة. ولا معنى لإحداها من دون الأخرى. هكذا هي حال البشر. فحين تلتحم معرفة الرجل مع قدرة المرأة على التحويل، يتكوّن أعظم اتحادٍ سحري، يُسمّى الحكمة. فأن يكون أحدنا حكيماً، يعني أن يعرفَ وأن يحوّلَ.

لاحظت بريدا اشتداد الريح، وشعرت بصوت ويكا يقودها إلى غيبوبةٍ جديدة.

بدت لها أرواح الغابة حيّة ومصمّمة.

أمرتها ويكا بالاستلقاء.

تراخت بريدا ومدّت رجليها. فوقها كانت السماء الزرقاء العميقة تتوهّج صافيةً.

- خوضي في البحث عن موهبتك. لن أتمكن من مرافقتك ليوم، لكن لا تخافي. فكلّما أدركت سرّ نفسكِ فهمت العالم من حولك، ودنوتِ من نصفكِ الآخر.

جثت ويكا، ونظرت إلى الشابة. فكّرت بحنان: هي تماماً مثلما كنت أنا ذات مرة، تبحث عن معنى لكل شيء، كما! أنها قادرة على النظر إلى الدنيا نظرة أولئك النسوة الغابرات القويات، الواثقات والحكيمات، اللواتي سعِدن لحُكمهن جماعاتهن الخاصة.

لكن في ذاك الوقت، كان الله أنثى.

انحنت ويكا نحو جسم بريدا وفكّت حزام جينزها،، ثم فتحت نصف السحّاب. انقبضت عضلات بريدا.

قالت ويكا بحنان زائد: لا تقلقي.

ثم رفعت قميص بريدا حتى بدت سرّتها. تناولت بعدها بلّورة من الكوارتز سحبتها من جيب ردائها، ووضعتها فوق موضع السرة.

أضافت برفقٍ: أريدك الآن أن تغمضي عينيك؛ أن تتخيلي لون السماء، من دون أن تفتحيهما.

سحبت من ردائها حجراً كريماً أرجواني اللون، وركّزته بين عيني بريدا.

«من الآن فصاعداً، نفّذي ما أقوله حرفياً، ولا تهتمي بأي شيء آخر. أنتِ في وسط الكون، تحيط بك النجوم من جميع الجهات، وبعض الكواكب الأكثر سطوعاً.

اختبري المشهد، وتدثّري به، ولا تعامليه كصورة أوْ كعرض

سينمائي. تلذّذي في تأمل هذا الكون؛ ولا داعي للقلق من أي شيء. ركّزي ببساطةٍ على لذّتك. وانزعي عنك أي شعورٍ بالذنب».

رأت بريدا الكون مرصّعاً بالنجوم، وأدركت أنها تستطيع ولوجه حتى أثناء استماعها إلى صوت ويكا. طلب إليها الصوت أن تتصوّر كاتدرائية فسيحة وسط هذا الكون. وبالفعل، شهدت بريدا كاتدرائية من الطراز القوطي مبنية من حجرٍ أسود، بدت، رغم غرابة ذلك، كأنها تشكّل جزءاً من الكون من حولها.

«سيري نحو الكاتدرائية، اصعدي الدرج وادخلي».

نفّذت بريدا أوامر ويكا. صعدت الدرج وشعرت بقدميها الحافيتين تلامسان برودة الرخام. أحست للحظة بأنها ليست وحيدةً. وبدا لها صوت ويكا كأنه ينبع من شخصٍ ما يمشي خلفَها. قالت لروحها: إنني أتوهّم. وتذكّرت فجأة ما قيل لها عن الجسر الفاصل بين العالمين المنظور واللامنظور. عليها ألّا تشعر بالخوف من الخيبة أو الفشل.

وقفت بريدا أمام مدخل الكاتدرائية. كان الباب ضخماً مصنوعاً من الحديد المطاوع، تزيّنه مشاهد من حيوات القدّيسين. كان مختلفاً تمام الاختلاف عن الباب الذي رأته أثناء رحلتها عبر أوراق التارو.

- افتحي الباب وادخلي.

شعرت بريدا ببرودة حديد المقبض تحت يدها. ورغم حجم الباب الهائل استطاعت فتحه بسهولة. دخلت فوجدت نفسها في قلب كنيسة فسيحة.

قالت ويكا: لاحظي كل ما حولك. ورغم الظلام في الخارج،

عبَرَ الضوء زجاج الكاتدرائية الضخم والملوّن، واستطاعت بريدا أن تبصر المقاعد الخشبية والمذابح الجانبية والأعمدة المزيّنة وبعض الشموع المضاءة. لكن، على نحوٍ ما، بدا كلّ شيء فارغاً ومهجوراً. كان الغبار يغطّي المقاعد.

- اتجهي إلى اليسار. ستجدين باباً آخر في مكانٍ ما، لكنه هذه المرة بابٌ صغير جداً.

مشت بريدا عبر الكاتدرائية. كانت واعية لانزعاجها من الأرض المغبرة تحت قدميها. صوتٌ مسالمٌ أتاها من مكانٍ ما ليقود طريقها. كانت تعرف أنه صوت ويكا، لكنها أدركت أيضاً أنها فقدت كلّ سيطرة على مخيّلتها. وبالرغم من وعيها، كانت عاجزة عن عصيان ما أُمرت به.

وجدت الباب.

- اعبريه. ثمة درجٌ دائري يقود إلى الأسفل.

توجّب على بريدا أن تنحني كي تتمكن من عبوره. كانت المصابيح المثبتة على الحائط متراصفةً على طول جدران الدرج الشديد النظافة لتغمره بالضوء. بدا واضحاً أن أحدهم زار المكان لإضاءة المصابيح.

«لقد بدأتِ رحلة البحث عن حيواتك السابقة. في سرداب الكاتدرائية توجد مكتبةٌ سنقصدها الآن. سأنتظرك عند أسفل الدرج».

واصلت بريدا هبوط الدرج من دون أن تدرك كم من الوقت قد مضى، ما أصابها بدوارٍ خفيف. حين بلغت أسفل درجات السلم،

كانت ويكا تنتظرها متدثّرة بردائها. شعرت بريدا بأمانٍ متزايد، وبأن الأمور ستصبح أسهل. كانت لا تزال غارقة في حالةٍ من الغشاوة.

فتحت ويكا باباً آخر مقابلاً للدرج.

- سوف أتركك وحدك هنا. سأنتظر في الخارج. اختاري كتاباً، وسيوضح لك ما تحتاجين إلى معرفته.

لم تلاحظ بريدا غياب ويكا. كانت تحدق في المجلّدات التي يعلوها الغبار.

"ينبغي فعلاً أن أكثر من زياراتي إلى هنا وأنظف المكان".

كان ماضيها وضيعاً ومهملاً، وتملّكها الحزن لمجرّد التفكير في أنها لم تقرأ أياً من تلك الكتب كلها. فربّما تضمّنت دروساً مهمة ومنسية منذ أمد كان في إمكانها تكريسها في حياتها.

نظرت إلى الكتب المرصوفة على الرف. فكّرت: «تلك الحيوات كلها!». لو أنها كانت معمرةً إلى هذا الحدّ، لوجب أن تتمتع بحكمةٍ أعمق بكثير. تمنت لو أن في إمكانها قراءة جميع المجلدات، لكن الوقت لم يكن يسمح بذلك، كان عليها أن تثق بحدسها. تمكنها العودة متى أرادت بما أنها أصبحت تعرف الطريق إلى الكاتدرائية.

وقفت لبرهة من دون أن تقرر أي كتاب تختار، ثم تناولت مجلداً، لا على التعيين. كان سمكه عادياً فحملته وجلست على الأرض.

وضعت بريدا الكتاب في حضنها، لكنها خافت أن تفتحه فلا يحصل شيء، خافت ألا تتمكن من قراءة ما كُتب فيه. «ينبغي أن

أجازف، وألا أشعر بالخوف من الفشل، فكّرت وهي، تفتح الكتاب. وبمجرّد أن ألقت نظرة على صفحاته، عاودها الاضطلراب والدوار.

«سوف يغمى علي»، تلك كانت الفكرة الأخيرة التي عبرت رأسها قبل أن تسقط في العتمة.

استفاقت على قطرات الماء تتصبب فوق وجهها. حلم غريب وغير مفهوم راودها، رأت فيه كاتدرائيات تطوف في الهواء، ومكتبات مكتظة بالكتب مع أنها لم تكن قد زارت أي مكتبة في حياتها.

- هل أنتِ بخير يا لوني؟

لم تكن بخير أبداً. لقد فقدت الإحساس بقدمها اليمنى، وهي تعرف أن في ذلك إشارة سيئة. لم تكن لديها رغبة في الكلام، لأنها أرادت نسيان ذاك الحلم.

- أفيقي يا لوني.

لا بد من أن الحمّى قد نالت منها، وأنها كانت تهذي. لكن هذيانها بدا لها حقيقياً جداً. تمنّت له أن الصوت الذي يخاطبها يكفّ، لأن الحلم كان يتلاشى سريعاً قبل أن تتمكن من التقاط معناه.

تلبّدت السماء بغيوم منخفضة حتى كادت ترتطم بأعلى أبراج لقصر. تمدّدت محدّقة في الغيوم. كان من حسن طالعها أنها لم تتمكن من رؤية النجوم. فحتى النجوم ليست صالحة تماماً كما يقول الكهنة.

توقّفت الأمطار عن التساقط قُبيل أن تفتح عينيها. أسعد لوني هطول الأمطار، فهو يعني أن خزّانات القصر سوف تمتلئ. حوّلت

نظرها من الغيوم إلى البرج، ثم إلى مشاعل الفناء، فإلى تجمّع لأشخاص مذهولين يتحرّكون بارتباك.

نادت برفق: تالبو.

أحاطها بذراعيه، شعرت بصقيع درعه، وبرائحة الفحم المحترق في شعره.

- كم من الوقت مضى؟ في أي يوم نحن؟

أجاب تالبو:

- ثلاثة أيام مرت وأنت نائمة.

رمقته بنظرة أسف. بدا أكثر نحولاً، مكدَّر الوجه، وباهت اللون، لكن ذلك كله لم يكن مهماً، فهي تحبّه.

- أنا عطشى يا تالبو.

- لا يوجد ماء، فقد اكتشف الفرنسيون ممرّنا السرّي.

سمعت مجدداً تلك «الأصوات» في رأسها. أصوات لطالما كرهتها. كان زوجها محارباً مرتزقاً، يقضي معظم أيام السنة يقاتل بعيداً، ولطالما أرعبتها فكرة أن هذه الأصوات سوف تزف إليها خبر مقتله في المعركة. لقد عثرت من قبل على طريقة لمنع الأصوات من محادثتها. كل ما عليها فعله هو تركيز تفكيرها على شجرة معمّرة قريباً من قريتها، فتسكت تلك الأصوات. لكنها الآن في غاية الضعف، ما سمح لتلك «الأصوات» بالعودة.

أنذرتها: سوف تموتين، لكنه سينجو.

- إلا أنها أمطرت يا تالبو، وأنا أحتاج إلى شربة ماء.

- ما هي إلا قطرات قليلة لا تكفي.

عاودت لوني النظر إلى الغيوم التي لم تبارح السماء طوال الأسبوع، ولم تفعل شيئاً سوى أنها حجبت الشمس لتجعل الشتاء أشد قسوة، والقفر أكثر عتمة وكآبة. ربما كان الكاثوليكيون الفرنسيون على حق. ربما وقف الله إلى جانبهم بالفعل.

قصدهما بعض المرتزقة. كانت النيران مشتعلة في كل مكان، فراود لوني شعورٌ غريب بأنها في الجحيم.

توجّه أحد المرتزقة إلى تالبو بالقول:

- سيدي، إن الكهنة يعمدون إلى جمعنا.

وقال آخر:

- لقد جندنا كي نحارب، لا حتى نموت.

أجاب تالبو:

ـ قدّم الفرنسيون إلينا شروط الاستسلام. وهم يقولون إن من يعود إلى الإيمان الكاثوليكي تمكنه المغادرة من دون أن يتعرّض للأذى.

همست الأصوات في أذن لوني:

- إن «النخبويين» لن يقبلوا الأمر.

كانت تدرك ذلك لأنها تعرفهم حق المعرفة، فهم سبب وجودها هناك بعيداً عن منزلها، حيث كانت تدرج على انتظار تالبو كي يعود من الحرب. منذ شهور أربعة و«النخبويون» محاصرون في ذاك القصر. وخلال تلك الفترة، كانت نسوة القرية يستخدمن الممر السري الذي يربط بين القرية والقصر، لإيصال الطعام والملابس والذخيرة. آنذاك، كان في إمكانهن رؤية أزواجهن. وبسببهن، استمرّت الحرب. لكن الممر السري لم يعد سرّياً، ولا في استطاعة لوني أو أي من النسوة العودة إلى القرية.

حاولت أن تجلس. لم تعد قدمها تؤلها. كانت الأصوات تنبئها بأن في ذلك إشارة سيئة.

قال جندي آخر:

- سيدي، لا علاقة لنا بالههم، ولن نموت من أجله.

بدأ صوت الناقوس يتردد في القصر، فوقف تالبو متأهباً.

توسلت لوني قائلة:

- خذني معك، أرجوك.

نظر تالبو إلى رفاقه، ثم إلى المرأة التي انطرحت مرتجفة أمامه. ظلّ برهة حائراً لا يدري ما ينبغي أن يفعل. كان رجاله قد تعوّدوا الحرب، وهو يدرك أن المحاربين العشّاق يختبئون أثناء خوض غمارها.

- أكاد أموت يا تالبو. اصطحبني أرجوك.

نظر أحد المرتزقة إلى تالبو، وقال:

- لا ينبغي أن تُترك وحيدة هنا. فقد يعاود الفرنسيون إطلاق النار.

تظاهر تالبو بالموافقة. كان يعلم بأن الفرنسيين لن يقدموا على مثل ذلك، فثمة هدنة للمساومة على استسلام المونسيغور.

لكن الجندي المرتزق أدرك ما كان يجول في وجدان تالبو، لا بد من أنه كان عاشقاً هو الآخر.

وفي حين كان تالبو يرفع لوني، عاودتها «الأصوت»:

- هو يعلم بأنك ستموتين.

لم تكن لدى لوني رغبة في سماع ما تقوله الأصوات. عاودتها ذكريات النهار الذي أمضياه معاً، وعبرا فيه حقل قمح. كان ذلك

عصر أحد أيام الصيف. أحست بالعطش حينها، فشربا كلاهما من جدول في الجبل.

تحلّقت مجموعةٌ من الرجال والجنود والنساء والأطفال حول الصخرة الكبرى التي شكلت جزءاً من الحائط الغربي لقلعة مونسيغور. بلّل الصمت المطبق الهواء، وأدركت لوني أنه ليس في ذلك احترام للكهنة، بل هو الخوف مما قد يحصل.

وصل الكهنة، وكانوا كثرة كثيرة. ارتدوا جميعاً الجبب السوداء المزينة بصلبان ضخمة مذهّبة، وانتشروا جلوساً على الصخرة والدرج والأرض عند قاعدة البرج. كان آخر القادمين أشيب الشعر، وقد تسلّق الحائط حتى أعلى جزء منه. أضاء وهج النهار وجهه، واخترقت الريح جبّته السوداء.

سجد الحاضرون كلهم تقريباً. مدوا أجسادهم إلى الأمام وشبكوا أكفهم، وضربوا، من ثم رؤوسهم، برفق، ثلاث مرات بالأرض. ظلّ تالبو والمرتزقة واقفين. كانت مهمتهم هي الحرب فقط.

قال الكاهن:

- لقد مُنحنا حقّ الاستسلام.

تنفّس الحشد الصعداء.

«إن الأرواح التي يملكها «الإله الآخر» سوف تبقى في مملكة هذا العالم. أما الأرواح التي يملكها «الإله الحقيقي» فسوف تعود إلى كنف رحمته اللامتناهية. ستستمر الحرب لكنها لن تكون أبدية، لأن «الإله الآخر» سوف يُهزم في النهاية، على الرغم من أنه أفسد

بعض الملائكة. سوف يقهر «الإله الآخر»، لكنه لن يسحق، فسوف يبقى في الجحيم إلى الأبد مع الأرواح التي نجح في إغوائها».

حدّق الجميع إلى الرجل الذي يعتلي الحائط. لم يكونوا واثقين برغبتهم في الهروب، والمعاناة من ثم إلى الأبد.

أكمل الكاهن قائلاً:

- إن الكنيسة الكاثارية[1] هي الكنيسة الحقّة. بفضل يسوع المسيح والروح القدس، تمكّنا من تحقيق الاتصال بالله. لسنا في حاجة إلى التقمّص أو العودة إلى مملكة «الإله الآخر».

لاحظت لوني أن ثلاثة كهنة يحملون الكتاب المقدّس، قد خطوا نحو الأمام.

«سوف يمنح الكونسولامنتوم[2] لجميع الذين يودّون أن يموتوا معنا. في الحضيض، النار تنتظر. سوف يحدث موت شنيع مشوب بالعذابات المريعة. سوف يكون موتاً بطيئاً مصحوباً بألم الاحتراق، وهو ألم أبشع بكثير من جميع الآلام التي جربتموها من قبل. لكن، لن ينال الجميع هذا الشرف؛ وحدهم الكاثاريون الحقيقيون

(١) الكاثار هي حركة دينية لها جذور غنوصية، بدأت في منتصف القرن الثاني عشر. وقد اعتبرتها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية خارجة عن الدين المسيحي. وكانت الكاثارية منتشرة في معظم مناطق أوروبا الغربية، لكنها من أصل فرنسي جنوبي. والكاثار باليونانية تعني الطاهرين.

(٢) الكونسولامنتوم: طقسٌ كنسي سري، مقدّس وكهنوتي في آن. سري مقدّس لأنه يمنح الخلاص والتحرّر من هذا العالم، وكهنوتي لأن الأشخاص الذين يحصلون عليه، كانوا يعملون بأوجه عدة، مثل الكهنوت الكاثاري.

سيحظون بهذه النعمة، في حين أن الباقين سوف يحكمون بالحياة».

توجّهت امرأتان بخجل نحو الكهنة الذين يحملون الكتب المقدّسة. وانفك أحد المراهقين من ذراعي أمه وانضم إلى المرأتين.

دنا أربعة مرتزقة من تالبو قائلين:

«سيدي، نريد أن نتلقّى السر المقدّس، ينبغي أن نتعمّد».

قالت «الأصوات»:

- هكذا تستمرّ المعتقدات، لأن البشر مستعدّون للتضحية بأنفسهم من أجل فكرة.

انتظرت لوني قرار تالبو. أمضى المرتزقة حيواتهم يحاربون من أجل المال، إلى أن التقوا هؤلاء الأشخاص المحضّرين للصراع من أجل ما يؤمنون به. هز تالبو رأسه موافقاً، بالرغم من أن ذلك كان يعني خسارة بعض من أفضل رجاله.

قالت لوني: فلنذهب إلى الجدران. لقد أذنوا للجميع بالرحيل.

- من الأفضل أن نرتاح يا لوني.

همست «الأصوات» مجدّداً: سوف تموتين.

- أرغب في رؤية البيرينيه، وفي مشاهدة الوادي مرة أخرى يا تالبو. أنت تعلم بأنني سوف أموت.

نعم، كان يعلم. وهو رجل ألِفَ ميدان المعركة، حيث كان يعرف متى يكون جرح أحد جنوده مميتاً. وجرح لوني كان مفتوحاً منذ أيام ثلاثة، ولا بد من أنه سمّم دمها. إن أولئك الذين لا

تشفى جروحهم، يظلون على قيد الحياة يومين أو أسبوعين، ليس أكثر.

كانت لوني قاب قوسين من الموت. انخفضت حرارتها، وهذا دليلٌ سيئ، كان تالبو يدركه جيّداً. فما دامت القدم تؤلم، والحرارة مرتفعة، فإن الجسم يقاوم. والآن، انتهت المقاومة، والقضية لم تعد سوى مسألة وقت.

قالت «الأصوات»: لستِ خائفة. لا، لم تكن لوني خائفة. فحتى في طفولتها، عرفت أن الموت ليس سوى بداية أخرى. في ذلك الوقت، كانت الأصوات مؤنستها الرائعة، لها وجوه وأجساد، وإيماءات لا يراها أحدٌ سواها. كانت الأصوات أشخاصاً قادمين من عوالم مختلفة، يحدّثونها، ولا يدعونها أبداً تشعر بالوحشة. كانت طفولتها ممتعة للغاية، ذلك أنها استخدمت أصدقاءها غير المرئيين، وهي تلعب مع بقية الأطفال، كي تحرّك الأشياء وتصدر أصواتاً غريبة تدهشهم. كانت أمها سعيدة لأنهما تعيشان في بلد كاثاري. ولطالما قالت لها: «لو كان الكاثوليكيون هنا لحُرقتِ حية». لم يأبه الكاثاريون لقصص كهذه؛ فهم يؤمنون بأن الصالح صالح والسيئ سيئ، وما من قوة في هذا الكون في مقدورها أن تزعزع ذلك.

وصل الفرنسيون وهم يقولون بعدم وجود بلد كاثاري. ومذ بلغت الثامنة، لم تعد تعرف أمراً سوى الحرب. لم تحمل لها الحرب سوى حسنة واحدة، هي زوجها الذي عيّنه الكهنة الكاثاريون، الذين لم يحملوا سلاحاً في حيواتهم، في أرض بعيدة.

لكن الحرب في المقابل حملت لها مساوئ أيضاً، منها الخوف من أن تُحرق حيةً، لأن الكاثوليكيين كانوا يقتربون أكثر فأكثر من بلدتها. بدأ الخوف يعتريها من رفاقها غير المرئيين الذين اختفوا

رويداً رويداً من حياتها. لكن أصواتهم بقيت تخبرها دوماً بما سيحدث، مملية عليها ما ينبغي فعله، لكنها كانت ترفض صداقتها، ذلك أن «الأصوات» تعرف أكثر مما ينبغي. ثم علّمها أحد هذه الأصوات حيلة التركيز على تلك الشجرة المعمّرة، ولم تعد تسمع أياً من الأصوات منذ الحملة الصليبية الأخيرة على الكاثاريين، وانتصار الفرنسيين معركةً إثر معركة.

لكن القوة خانتها اليوم لتفكّر في تلك الشجرة. عادت الأصوات ولم تعترض هي، ذلك أنها كانت في حاجة إليها. فهي التي سترشدها إلى الطريق بمجرد أن تموت.

قالت لتالبو:

- لا تقلق، فلست أخاف الموت.

وصلا إلى قمة السور. كانت الرياح باردة وقاسية، فتدثّر تالبو بردائه. أما لوني، فكانت قد أصبحت خارج تأثير البرد. لاحت لها في الأفق أضواء منبعثة من قرية بعيدة. ومن سفح الجبل، تراقصت أضواء مخيّم. وعلى امتداد قاع الوادي، كانت المشاعل مضاءة، والجنود الفرنسيون في انتظار القرار الأخير.

هبّت نغمات المزمار من الأسفل، يصحبها غناء «الأصوات».

قال تالبو: إنهم الجنود. فهم يعلمون بأنهم قد يموتون في أي لحظة، وما الحياة في نظرهم إلا احتفال مستمرّ.

تملّك لوني فجأة، سخطٌ على الحياة. قالت لها الأصوات، إن تالبو سيلتقي امرأة أخرى، وينجب منها أطفالاً، ويصبح ثرياً جرّاء الغنائم التي نهبها من المدن.

أكدت الأصوات: لكنه لن يحب أحداً كما أحبك أنت، لأنك

ستظلّين جزءاً منه حتى النهاية. راحا يحدّقان متعانقين في المناظر الطبيعية، مصغيين إلى غناء الجنود. أحست لوني بأن هذا الجبل كان مسرحاً لحروب نشبت في ماضٍ بعيد إلى درجة أن «الأصوات» بنفسها لم تعد تستطيع استحضارها من الذاكرة.

- نحن خالدون يا تالبو. هذا ما قالته لي الأصوات يوم كان في إمكاني رؤيتها وجوهاً وأجساماً.

كان تالبو يعرف أن زوجته تتحلّى بموهبةٍ ما، لكنها لم تذكرها منذ فترة، مضت دون أن تأتي على ذكرها. ربما كان ذلك من تأثير الحرارة فيها.

«لكن كل حياة ليست كالأخرى. قد لا نلتقي مجدّداً، وأريدك أن تعرف أني أحببتك طوال حياتي. أحببتك حتى قبل أن ألتقيك. فأنت جزءٌ مني!

«سوف أموت، وبما أن الغد، مثل بقية الأيام، مناسبٌ للموت، فإنني أرغب في الموت في كنف الكهنة. لم أفهم يوماً رؤيتهم لهذا العالم، لكنهم لطالما فهموني. أريد أن أصحبهم نحو الحياة القادمة. قد يتراءى أنني مرشد بارع، ذلك أنني زرت تلك العوالم من قبل».

تأمّلت لوني سخرية القدر. كانت تخشى «الأصوات» التي قد تضعها على سكة النار، مع أن النار تنتظر الآن قدومها.

رمق تالبو زوجته بنظرة استشفّت رحلة عينيها إلى الانطفاء. ورغم ذلك، ظلت تحمل السحر ذاته الذي شدّه إليها في البداية. ثمة أشياء لم يكن قد أخبرها بها من قبل، منها المرأة التي مُنِحت له كجزء من غنائم الحرب، المرأة التي التقاها خلال رحلته حول العالم، والتي تنتظر عودته ذات يوم. لم يكن قد أخبرها بذلك،

ليقينه من معرفتها كل شيء، ومسامحتها له، بالنظر إلى أنه كان حبّها العظيم. والحب العظيم أرفع من أمور ـا العالم كله.

لكن، كان ثمة أمرٌ لم يقدم على إطلاعها عليه قطّ، وكان من الممكن ألا تعرفه: أنها، بعاطفتها وفرحها، مسؤولة إلى حدٍّ بعيد، عن اكتشافه من جديد معنى الحياة، وأن حبها دفع به إلى أقاصي الأرض، لأنه كان بحاجة إلى ما يكفي من المال لشراء أرض يعيشان عليها معاً حتى آخر أيامهما. كانت ثقته بهذا الكائن الهش، الذي تتلاشى فيه الحياة الآن، هي التي اضطرته إلى خوض الحرب بشرف، لأنه كان يعلم بأنه بعد المعركة، سوف ينسى بين يديها كل بشاعة الحرب. وبرغم العدد الهائل الذي عرفه من النسوة، فإنه لم يكن يستطيع أن يغمض جفنيه لينام كطفل إلّا في أحضانها.

«امضِ وجئ بالكاهن يا تالبو. فإنني أريد أن أتعمّد».

تردّد تالبو للحظة. المحاربون هم وحدهم في مقدورهم أن يختاروا طريقة موتهم. لكن تلك المرأة كانت قد منحت حياتها للحب. وربما كان الحب في نظرها وجهاً آخر غريباً للحرب.

نهض وهبط درج السور. حاولت لوني تركيز انتباهها على الموسيقى المنبعثة من الأسفل، التي كانت تهيّئ الموت بشكلٍ ما. في هذا الوقت، تابعت الأصوات حديثها:

- تستطيع كل امرأة أن تستخدم في حياتها حلقات الإلهام الأربع. أما أنتِ، فاستعملت واحدة فقط، الخاطئة منها.

نظرت لوني إلى أصابعها. كانت متشقّقة والأظافر متسخة. لم تجد حلقة في أي منها. ضحكت الأصوات وقالت:

- تعرفين ما نقصده: العذراء والقدّيسة والشهيدة والساحرة.

كانت لوني في قرارة نفسها، تعرف ما تقصده الأصوات، لكنها لم تستطع تذكّر معنى ذلك. كانت قد سمعت بقصة الحلقات الأربع منذ زمنٍ بعيد، في عهدٍ ارتدى فيه الناس ملابس مختلفة، ونظروا إلى العالم نظرةً مغايرة. يومها، كان لها اسمٌ آخر، وتحدّثت بلغةٍ مختلفة.

كرّرت الأصوات على مسمع لوني، كأن من المهم تذكيرها بتلك الأيام الغابرة: «ثمة طرائق أربع تستطيع المرأة التواصل مع الكون من خلالها. العذراء تتمتّع بقدرات المرأة والرجل في آن. حُكم عليها بالوحدة، لكن الوحدة تُفصح عن أسرارها. هذا هو الثمن الذي تدفعه العذراء: ألّا تحتاج إلى أحد، وأن تعطي نفسها حبّاً بالآخرين، وأن تكتشف حكمة العالم عبر وحدتها».

نظرات لوني كانت لا تزال محدّقة في المخيّم في الأسفل. نعم، كانت تعلم بهذه الأشياء. أكملت الأصوات: «أما الشهيدة، فتتحلّى بقدرات أولئك الذين لا يؤذيهم ألمٌ ولا معاناة. تسلّم نفسها، تعاني، وتكتشف حكمة الكون عبر التضحية».

نظرت لوني مجدّداً إلى يديها، فرأت حلقة الشهيدة تحيط، محجوبةً، بإحدى أصابعها.

تابعت الأصوات: «كان في استطاعتك اختيار إلهام القديسة، علماً بأنه لا يجسّد الحلقة المناسبة لك. القديسة تتمتّع بشجاعة أولئك الذين لا يعرفون سوى العطاء سبيلاً إلى التلقي. هي بئرٌ لا تنضب، يستلّ منها الناس مياه شربهم. وإذا ما جفّت، فإن القديسة تمنح دمها للآخرين كي لا يعطشوا. فهي تكتشف حكمة الدنيا من خلال التنازل».

صمتت الأصوات. سمعت لوني وقع خطوات قدمَي تالبو تتسلقان

الدرجات الصخرية. فهمت أيّ حلقةٍ كان ينبغي أن تكون لها في هذه الحياة، فقد ارتدتها في حيواتها السابقة كلها، حين كانت تُعرف باسم مختلف، وتتحدّث بلغات مختلفة. ومع هذه الحلقة، تُكتشف حكمة العالم من خلال اللذّة. لم تكن تريد التفكير بذلك. في تلك اللحظات. هناك، في إصبعها، كانت حلقة الشهيدة تلمع محجوبة عن الأنظار.

اقترب تالبو أكثر. فجأة، شعرت لوني عندما حدّقت إليه، بأن اللّيل اكتسى بوهجٍ سحري فاستحال نهاراً مشمساً.

قالت الأصوات: استيقظي!

تلك كانت أصواتاً مختلفة لم يسبق لها أن سمعتها. أحسّت بأحدهم يفرك معصمها الأيسر.

- هيا يا بريدا، استيقظي.

فتحت عينيها ثم أغمضتهما بسرعة، بسبب الضوء الباهر المنبعث من السماء. الموت! يا له من شيء غريب!

قالت ويكا: افتحي عينيك.

لكن، كان لا بد لها من العودة إلى القصر، حيث ذهب الرجل الذي تحب بحثاً عن الكاهن. لم يكن يسعها الهرب. كان هناك بمفرده، وفي حاجة إلى وجودها إلى جانبه.

- ما هي موهبتك؟

لم تعطِها ويكا وقتاً للتفكير. وبالرغم من إدراكها أن بريدا تعيش تجربة استثنائية تفوق بزخمها تجربة أوراق التارو، فإنها لم تمنحها وقتاً كي تفكر في إجابتها. لم تتفهم مشاعرها ولم تحترمها، فجلّ ما أرادت معرفته هو الهبة التي تتحلى بها بريدا.

أصرّت ويكا: أخبريني عن موهبتك.

أخذت بريدا نفساً عميقاً محتبسةً غضبها. لم يكن أمامها مهرب، فويكا لن تتوانى عن إصرارها حتى تنال مبتغاها.

- «كنت امرأة واقعة في غرام....

أسكتتها ويكا بسرعة، ثم وقفت ورسمت بضع إيماءات غريبة في الهواء قبل أن تلتفت إليها من جديد.

- الله هو الكلمة. عليكِ الانتباه دوماً إلى ما تقولينه في كلّ لحظة وكل مناسبة.

لم تفهم بريدا السبب الذي جعل ويكا تتصرّف على هذا النحو.

- يتجلّى الله للخلق في كلّ شيء، لكن تبقى الكلمة أحد أساليبه المفضّلة. الكلمة هي الفكرة التي تتخذ شكل تردّدٍ، فأنتِ تُسقِطين على الهواء الذي يحيط بكِ طاقة لم يكن لها أي شكلٍ من قبل. احرصي حرصاً شديداً على كل كلمة تقولينها، فسطوة الكلمة أعظم من الطقوس كلها.

لم تفهم بريدا. فهي لم تكن تملك وسيلة لوصف تجربتها سوى الكلمة.

شرحت ويكا: لستِ أنتِ المرأة التي تحدّثتِ عنها؛ لستِ سوى جزءٍ منها، إذ يمكن لذاكرة الكثيرين أن تحمل الذكرى نفسها.

شعرت بريدا بأنها مسلوبة، فتلك المرأة - الرؤيا كانت في غاية القوة، ولم تكن بريدا ترغب في مشاركتها مع أحد. تالبو كان حاضراً أيضاً.

كرّرت ويكا: أخبريني عن موهبتك. كان ينبغي لها أن تخفّف من انبهار الفتاة بتجربتها، فهذا النوع من السفر عبر الزمن كثيراً ما يجلب معه مشاكل عدة.

- لديّ الكثير لأقوله وأنا في حاجة ماسة إلى التحدث إليك، فما من أحد سواك سيصدّقني. رجاءً، اسمعيني.

شرعت تخبرها بكل ما جرى، منذ اللحظة التي تساقط فيها المطر على وجهها. كانت أمامها فرصةٌ لا تتمكنها إضاعتها، بالتواجد مع شخصٍ يؤمن بما هو خارقٌ للطبيعة. كانت تعرف أن أحداً آخر لن يستمع إليها بالاحترام ذاته، لأن الناس يخافون اكتشاف سحر الحياة. هم تعوّدوا منازلهم وأشغالهم وتوقّعاتهم، وسيشعرون حتماً بأن الدنيا قد خدعتهم إذا ما سمعوا أحدهم يؤكد إمكان السفر عبر الزمن، أو رؤية قلاع تطوف في الكون، أو الاستماع إلى أوراق التارو تخبر قصتها، أو حتى احتمال عبور الإنسان ظلمة الليل. فهم لم يختبروا يوماً تجربة مماثلة. فالحياة بالنسبة إليهم لا تخلو من الرتابة، في النهار والليل وحتى في نهاية الأسبوع.

لذلك كله، على بريدا اغتنام الفرصة. إذا كانت الكلمات مقدّسة، فلتدوّن إذاً، على الهواء من حولها رحلتها إلى الماضي، ولتسجل كل تفصيل تذكره كأنه يحدث هنا، في تلك الغابة حيث تقف الآن. وفيما بعد، إذا ما تمكّن أحدهم من إقناعها بأن شيئاً لم يكن، وإذا ما جاء الزمان والمكان ليجعلاها تشكّك في كل شيء، وإذا ما اقتنعت هي نفسها بأن كل ما حدث لم يكن سوى وهم، فستأتي الكلمات التي تلفّظت بها ذاك المساء، في تلك الغابة، لتتردّد في الهواء، وسيؤكد شخص واحد على الاقل، يشكّل السحر جزءاً من حياته، أن ما حدث كان حقيقياً.

وصفت القلعة والكهنة بأثوابهم السوداء والصفراء، والوادي بنيرانه الملتهبة، والزوج الذي تعبر أفكاره من غير أن ينطق بها. استمعت ويكا إلى كلماتها بجلَد، ولم تُظهر أي اهتمامٍ إلا عندما

أخبرتها بريدا عن ظهور الأصوات في عقل لوني. قاطعتها عندها سائلة عن جنس الأصوات (التي كانت لنساء ورجال على حدّ سواء)، وعن أي انفعالات أو عدوانية أو تعاطف أظهرتها (وهي كانت حيادية)، وعمّا إذا كان يمكنها استدعاؤها متى أرادت (لم تكن بريدا تعرف، لأن الوقت لم يفسح لها مجالاً كي تكتشف ذلك).

«حسناً، يمكننا المغادرة الآن»، قالت ويكا وهي تنزع رداءها وتضعه في حقيبتها. خاب أمل بريدا. كانت تتوقع بضع كلمات تقدير، أو حتى تفسيراً ما على الأقل. كانت ويكا أشبه بأحد أولئك الأطباء الذين يدرسون حالة المريض ببرودةٍ وحيادية، مبدين اهتماماً أعمق بتسجيل الأعراض عوضاً عن فهم الألم والمعاناة اللذين تسبّبهما.

قطعا رحلة العودة الطويلة. كانت ويكا تبدي اهتماماً مفاجئاً بغلاء المعيشة، أو ازدحام السير الخانق، أو الصعاب التي تواجهها في تعاملها مع مسؤول البناية حيث تقيم، كلّما حاولت بريدا إثارة الموضوع من جديد.

لم تعلّق ويكا على تجربة بريدا سوى عندما جلستا مجدّداً على الأريكتين المتعادتين:

«سأقول لكِ شيئاً واحداً. لا تحاولي تفسير عواطفك. عيشي كلّ تجربةٍ بجوارحك كلها، واحتفظي بما شعرت بأنه هبة من الله. إن كنتِ عاجزة عن تحمّل عالمٍ يبدّي الحياة على فهمها، فلتهجري السحر الآن. الطريقة الفضلى لهدم الجسر الذي يربط ما بين العالمين المنظور وغير المنظور، هي محاولة فهم المشاعر».

كانت بريدا تعلم بأن المشاعر أشبه بخيولٍ برية، لا يمكن العقل أن يكون سيّداً مطلقاً لها. فقد حدث أن هجرها صديقها من

دون أن يقدّم أي أعذار، فلازمت المنزل لأشهر راجعت .خلالها جميع عيوبه مراراً وتكراراً، وآلاف الشوائب التي كانت تشوب علاقتهما. ومع ذلك، كانت تستيقظ كل صباحٍ على ذكراه، مدركة أن اتصالاً منه قد يكفيها لتلتقيه من جديد.

علا نباح الكلب في المطبخ، فعرفت بريدا أن وقت الزيارة قد انتهى.

- لكن، رجاءً، لم نتحدّث حتى عما حدث! وثمة ،سؤالان ينبغي ببساطةٍ أن أطرحهما.

وقفت ويكا. تلك الفتاة كانت تجيد دوماً ترك أسئلتها المهمة للحظة الأخيرة، في اللحظة التي تتعيّن عليها المغادرة فيها.

- أريد أن أعرف إن كان الكهنة الذين رأيتهم حقيقيين.

قالت ويكا وهي تتوجه إلى رف الكتب:

- نحن نعيش تجارب خارقة. وبعد مرور أقل من ،ساعتين على حدوثها، نبدأ محاولاتنا إقناع أنفسنا بأنها لا تتعدّى كونها نتاج مخيّلاتنا.

تذكّرت بريدا أنها كانت هي نفسها تفكّر في خوف الناس من كل ما هو خارق، فشعرت بالخجل من نفسها.

عادت ويكا، حاملةً في يدها كتاباً.

- الكاثاريون، أي الكاملون، هم الكهنة الذين أنشأوا كنيسة جنوبي فرنسا في نهاية القرن الثاني عشر. كانوا يؤمنون بالتقمص وبوجود الخير المطلق والشر المطلق. حينها، كان العالم منقسماً بين مصطفين وضالّين، ما أكّد عدم جدوى محاولة قلب أحدهما إلى الآخر.

وقد دفع عدم اكتراث الكاثاريين للقيم الدنيوية، بإقطاعيي منطقة لانغودوك، إلى اعتناق الديانة كوسيلةٍ للتهرّب من الضرائب الضخمة المفروضة من قِبل الكنيسة الكاثوليكية. وبما أن انتماء شخصٍ ما إلى المصطفين أو الضالين، كان يُحدَّد منذ ولادته، فإن الكاثاريين كانوا متساهلين في موقفهم من الجنس، ومن النساء بشكلٍ خاص. لم يتزمّتوا في تلك المسائل سوى مع أولئك الذين وُسِموا كهنة.

- كان كلّ شيء على ما يرام إلى حين بدء انتشار الكاثارية. فقد شعرت الكنيسة الكاثوليكية بالتهديد، ودعت إلى شنّ حملةٍ ضدّ الهراطقة. وعلى مدى أربعين عاماً، خاض الكاثاريون والكاثوليكيون معارك دامية، إلى أن نجحت القوات القانونية، بمساعدة دولٍ أخرى، في هدم كلّ القرى التي اعتنقت الديانة الجديدة. لم تنجُ سوى قلعة مونسيغور في البيرينيه، حيث خوصر الكاثاريون إلى أن اكتشف الفرنسيون الممرّ السري الذي كانت تمرّ عبره المؤن. وذات صباحٍ من شهر آذار/مارس ١٩٤٤، بعد إعلان استسلام القلعة، ألقى مئتان وعشرون كاثارياً بأنفسهم وهم يغنّون في الموقد المشتعل عند أسفل الجبل الذي شُيّدت فوقه القلعة.

تلفّظت ويكا بذلك. كان الكتاب لا يزال مغلقاً في حضنها، وانتظرت إنهاء قصّتها كي تفتحه وتتصفّحه بحثاً عن صورةٍ ما.

رأت بريدا البنيان المهدم والبرج المحطّم بشكلٍ شبه كلي بجدرانه السليمة. رأت أيضاً الفناء والسلالم التي تسلّقتها لوني مع تالبو، والصخرة التي شكّلت جزءاً من الجدار، وكذلك البرج.

- ثمة سؤال آخر قلت إنك تودّين طرحه عليّ.

كان السؤال قد فقد أهميته، ولم يعد في إمكان بريدا

التفكير بشكلٍ سوي. أحسّت بغرابةٍ تعتريها وبعض جهدٍ كي تتذكّر السؤال الذي كانت ترغب في طرحه.

- أريد أن أعرف لم تضيّعين وقتك معي؟ ولِمَ تريدين تعليمي؟

- لأن الحكمة تملي عليّ ذلك. لم يطرأ عليك سوى تغيّر طفيف على مدى حيواتك المتعددة. أنتِ تنتمين إلى المجموعة نفسها التي ننتمي إليها أنا وأصدقائي، نحن المكلّفين صون حكمة القمر. أنتِ تنتمين إلى جنس السحرة. أنتِ ساحرة.

لم تُعِر بريدا أي أهمية لكلمات ويكا. لم يخطر لها حتى تحديد موعدٍ جديد للقائها. جلّ ما أرادته في تلك اللحظة، هو أن تغادر، وأن توجد في محيطٍ عادي يعيدها إلى عالمها المألوف، وسط بقعة رطوبة على الحائط، أو علبة سجائر مهملة على الأرض، أو بضع رسائل متروكة فوق مكتب البوّاب.

انتابها فجأة قلقٌ تجاه الوقت، وفكّرت: ينبغي أن أعمل غداً.

في طريق العودة، أخذت تتأمل نظام فوترة الصادرات المعتمد في شركتها، وخطرت لها طريقة لتبسيط بعض الإجراءات الإدارية. غمرها الرضا، إذ قد يصادق مديرها على ما تقوم به. ومن يعلم، فهو قد يمنحها علاوة أيضاً.

وصلت إلى منزلها. تناولت عشاءها وشاهدت التلفزيون لبعض الوقت، ثم دوّنت أفكارها، حول الفوترة، على ورقة، وغرقت في نومٍ منهك.

كانت فوترة الصادرات قد اتّخذت أهمية كبرى في حياتها. ففي النهاية، هذا هو العمل الذي تتلقى أجراً إزاء القيام به.

لم يعد لأي شيء آخر أي وجود. كل شيء عدا ذلك، كان مجرّد كذبة.

على مدى أسبوع كامل، ثابرت بريدا على الاستيقاظ سريعاً، وكدّت في العمل في المكتب، وحازت ثناء مديرها. لم تفوّت أيّاً من صفوفها، وشرعت تهتم بقراءة كل ما هو مطبوع في المجلات عند بائع الصحف. جلّ ما احتاجت إليه هو التوقّف عن التفكير. كلّما راودتها فكرة حول لقائها المجوسي في الغابة، أو إحدى الساحرات في المدينة، كانت تذكّر نفسها بدنوّ امتحاناتها في الأسبوع المقبل، أو تستذكر ملاحظة أطلقتها إحدى زميلاتها في حق أخرى.

حل يوم الجمعة، فالتقاها خليلها خارج الجامعة، وتواعدا على الذهاب إلى السينما. مضيا بعدها، إلى حانتهما المعتادة، حيث تحدثا حول الفيلم، وزملائهما، ووظيفة كل منهما. ثم التقيا أصدقاء لهما كانوا عائدين من إحدى الحفلات، وقررا الانضمام إليهم للعشاء، ممتنّين لإمكانية إيجاد مطعم مفتوح في دبلن على الدوام.

ودّعا أصدقاءهما عند الثانية فجراً. قررا العودة إلى منزل بريدا، لكن، ما إن دخلا حتى وضعت أسطوانة لأيرون باترفلاي، وصبّت لكل منهما كأساً مزدوجة من الويسكي. استلقيا على الأريكة وذراع أحدهما تحتضن الآخر، صامتين ومأخوذين، بينما راح يداعب شعرها ونهديها.

قالت فجأة: كان أسبوعاً جنونياً عن حق. عملتُ بلا كللٍ، وتأهّبت لامتحاناتي، واشتريت كلّ احتياجاتي.

انتهت الأسطوانة، فنهضت لقلبها.

- أتذكر باب خزانة المطبخ الذي انخلع؟ لقد تمكنتُ أخيراً من ترتيب موعد لشخص ما للمجيء وإصلاحه. كما اضطررت إلى الذهاب إلى المصرف مرات عدة، إحداها لقبض المال الذي أرسله إلي والدي، ومرة أخرى لإيداع بعض الشيكات التابعة للمؤسسة، ومن ثم...

أخذ لورنس يحدق إليها.

سألت عصبية:

- لمَ تنظر إليّ هكذا؟

من يكون هذا الرجل الممدّد على الأريكة، محدّقاً إليها، وعاجزاً عن قول أي شيء مثير للاهتمام؟ الأمر سخيف فعلاً. فهي لا تحتاج إليه. كما أنها ليست في حاجة إلى أحد.

كرّرت سؤالها: لماذا تحملق بي؟

لم يردّ، بل اكتفى بالوقوف، وتوجه صوبها ليعيدها بحنو كبير إلى الأريكة.

قالت بارتباك: أنت لا تستمع إلى أي شيء أقوله.

طوّقها لورنس بذراعيه.

فكّرت في قرارتها: «المشاعر أشبه بالأحصنة البرية».

قال لورنس بعذوبة: أخبريني بكل شيء. سوف أستمع إلى أي قرار تتخذينه، وأحترمه. حتى إن قلت إنك التقيت شخصاً آخر، وحتى إن عنت جلستنا هذه الوداع. لقد قضينا معاً وقتاً غير قصير. لست أعرفكِ تمام المعرفة، أقصد أنني لا أعلم بالضبط من تكونين، لكنني أدرك جيداً ما لستِ عليه. وقد كنت مختلفة عن نفسك طوال الليل.

أحست بريدا برغبة في البكاء، لكنها كانت قد ذرفت دموعاً غزيرة خلال ليالي الظلمة المتتابعة، وهي تتحدّث مع أوراق التارو والغابات المسحورة. صحيحٌ أن المشاعر أشبه بالأحصنة البزية، لكن كل ما يمكنها فعله الآن هو إطلاقها.

جلست قبالته، متذكّرة أن تلك كانت الوضعية المفضلة لدى كلّ من المجوسي وويكا، ثم روت له بالكامل كل ما حصل منذ لقائها المجوسي في الغابة. استمع لورنس إليها بصمت تام. ولمّا أخبرته عن صورة مونسيغور الفوتوغرافية، سألها إن كانت قد سمعت عن الكاثاريين في أحد دروسها في الجامعة.

ردّت بحدّة:

- اسمع، أعرف أنك لا تصدّق كلمة واحدة مما أخبرتك به للتو. أنت تعتقد أن هذا نتاج لاوعيي، وأنني أتذكّر وحسب أموراً سبق لي أن عرفتها، لكن لا، يا لورنس، لم يسبق لي قط أن سمعت بالكاثاريين. لكنك طبعاً تملك تفسيراً لكل شيء.

كانت يداها ترتجفان من دون توقّف. نهض لورنس، التقط ورقة، وصنع فيها ثقبين يبعد أحدهما عن الآخر قرابة ثمانية إنشات. وضع الورقة على الطاولة، وأسندها بشكلٍ عمودي إلى زجاجة الويسكي.

ثم توجّه إلى المطبخ وعاد حاملاً فلّينة.

جلس إلى رأس الطاولة، ودفع بالورقة وبزجاجة الويسكي إلى الطرف الآخر، ووضع الفلينة أمامه.

قال: تعالي إلى هنا.

نهضت بريدا. حاولت إخفاء يديها المرتجفتين، مع أنه لم يبدُ أنه لاحظهما.

- فلنفترض أن هذه الفلينة هي إلكترون، أي إحدى الجزيئات الصغيرة التي تشكل الذرة. أتفهمين؟

هزّت برأسها إيجاباً.

- حسناً، الآن استمعي بانتباه. لو أنني أملك ذاك الجهاز البالغ التطوّر الذي يسمح لي بأن أطلق إلكتروناً في اتجاه قصاصة الورق تلك، فسوف يمرّ في الثقبين في الوقت نفسه، من دون أن ينشطر إلى نصفين.

أجابت:

- لا أصدق. ذلك مستحيل.

أخذ لورنس الورقة وتخلّص منها، ثم أعاد الفلينة إلى مكانها.

- قد لا تصدقين ذلك، لكنه صحيح. إنه أمر يعرفه العلماء، لكنهم لا يستطيعون له تفسيراً. لا أؤمن بأي من الأشياء التي قلتِها لي، لكنني أعرف أنها صحيحة.

لم تتوقّف يدا بريدا عن الارتجاف، لكنها لم تبكِ ولم تفقد السيطرة على نفسها. جلّ ما لاحظته، هو زوال تأثير الكحول. كان ذهنها صافياً بشكلٍ مستغرب.

- وماذا يفعل العلماء حين يواجهون هذه الألغاز؟

- يدخلون ليل الظلمة، باستخدام التعبير الذي علّمتني إياه. نحن نعرف أن اللغز لن يُحلّ أبداً، ونتعلّم بالتالي تقبّله والتعايش معه. أعتقد أن الأمر نفسه يحصل في أوضاع كثيرة في الحياة. فلا بدّ من أن المرأة التي تربّي طفلاً تشعر بأنها تغوص في ليل الظلمة أيضاً، وكذلك المهاجر الذي يسافر إلى بلاد نائية بحثاً عن العمل والمال. فهما يعتقدان أن جهودهما ستُكافأ وأنهما سيُدركان، في

يوم من الأيام، ما حصل معهما على طولالطريق الذي بدا مرعباً حينها. ليست التفسيرات هي التي تجعلنا نابع قدماً، بل رغبتنا في المواصلة.

شعرت بريدا فجأة بأنها متعبة إلى بعد الحدود. كانت في حاجة إلى الخلود إلى الفراش. فالنوم هو المملكة السحرية الوحيدة التي يمكنها دخولها بحرية.

رأت بريدا في تلك الليلة حلماً جميلاً تملأه البحار والجزر الخضراء. أفاقت في الساعات الباكرة، وسُرّت لوجود لورنس قربها. نهضت، ومضت إلى نافذة غرفة النوم حيث أشرفت على مدينة دبلن النائمة.

فكّرت في والدها الذي درج على القيام بالأمر نفسه كلّما أفاقت مفزوعة. حملت تلك الذكرى معها مشهداً آخر من طفولتها.

كانت على الشاطئ مع والدها الذي طلب إليها الذهاب للتحقق من حرارة الماء. سُرّت، وهي في الخامسة من العمر، لأن في وسعها المساعدة، فمضت إلى حافة المياه وغطّست فيها إحدى أصابع رجليها.

قالت له: غطّست رِجليَ في المياه وهي باردة.

حملها والدها من دون إنذار ورمى بها في الماء. للوهلة الأولى أصابتها الصدمة، ثم أخذت تضحك عالياً لحيلة أبيها.

سألها بود: كيف وجدتِ الماء؟

- إنه رائع.

- أصبتِ. من الآن فصاعداً، ما عليكِ إلا أن تغطسي مباشرةً في كلّ أمرٍ تودّين اكتشافه.

كانت قد نسيت تلك الأمثولة. فرغم عمرها الذي لم يتجاوز الحادية والعشرين، كانت بريدا قد نمَّت في داخلها اندفاعات كثيرة، لكنها سرعان ما تخلّت عنها بمجرد ورودها لديها. لم تكن تخشى الصعوبات، بل اضطرارها إلى اختيار درب وحيدة معيّنة.

اختيار طريق ما، كان يعني إغفال الدروب الأخرى. حياتها بأكملها كانت أمامها، لكن خوفها من الندم على الخيارات التي تتّخذها اليوم، كان يشغل تفكيرها.

فكّرت في نفسها: إنّني أخشى التقيّد. أرادت سلوك كل الطرق الممكنة، وانتهى بها الأمر بعدم سلوك أي منها.

كانت قد فشلت في الالتزام، حتى في أكثر مجالات حياتها أهمية، ألا وهو الحب. فهي، بعد خيبتها العاطفية الأولى، لم تعط قط نفسها كلّياً. خافت الألم، والخسارة، والفراق. وهي أمورٌ لا مفرّ منها على طريق الحب. والوسيلة الوحيدة لتفاديها، تمثّلت في عدم سلوك تلك الدرب على الإطلاق. ولاجتناب المعاناة، ينبغي التخلّي عن الحب. الأمر أشبه بأن نقتلع أعيننا كي نغشي نظرنا عن بشاعات الدنيا.

«كم أن الحياة معقّدة».

علينا ركوب المخاطر، وسلوك طرق معينة، والتخلّي عن أخرى. تذكّرت ما أخبرتها به ويكا عن أناسٍ ساروا في دروبٍ معيّنة ليثبتوا فقط أنها لم تكن الطرق الصائبة، إلا أن سوء ذلك لم يكن بقدر الخيبة من اختيار دربٍ ما، والتساؤل من ثم لما بقي من العمر، عن مدى صحة ذاك الخيار. فليس في مقدور أحد أن يتخذ قراراً إلا وينتابه شعور بالخوف.

تلك شريعة الحياة. وذاك ليل الظلمة، الذي لا يمكن أحداً الفرار منه، حتى إن لم يتخذ قراراً واحداً في حياته، وحتى إن عازته شجاعة التغيير، لأن ذلك في حدّ ذاته يُعدّ قراراً وتغييراً، لكنه يفتقر إلى وفر تلك الكنوز المكنونة في الليل الحاللك.

ربّما كان لورنس على حق. فهما، في النهاية، سيسخران من مخاوفهما الأولى، تماماً كما ضحكت هي نفسها من الأفاعي والعقارب التي تخيّلت وجودها في الغابة. فقد نسيت، في يأسها، أن شفيع إيرلندا، القديس باتريك، كان قد طرد الأفاعي منذ زمن بعيد.

قالت بوداعة خوفاً من أن يسمعها لورنس:

أنا سعيدة جداً بوجودك.

عادت إلى الفراش، وسرعان ما غفت. لكنها تذكّرت رواية أخرى عن والدها قبل أن تستسلم لخدر النوم. جرى ذلك في يوم أحد، كانت تتناول خلاله الغداء مع العائلة في منزل جدّتها. كانت في الرابعة عشرة تقريباً، وأخذت تشتكي من عدم قدرتها على كتابة أحد واجباتها المدرسية، لأنها في كل مرة تشرع فيه، تنجزه بشكلٍ خاطئ.

قال أبوها:

قد تعلّمك المرات التي تخطئين فيها شيئاً.

لكن بريدا كانت متأكدة من سلوكها الطريق الخاطئ ولم تجد سبيلاً إلى إصلاح الأمور.

أخذها والدها بيدها وسار بها إلى غرفة الجلوس، حيث تعوّدت

جدتها مشاهدة التلفاز. هناك، وُضعت ساعة خشبية قديمة ذات رقّاص، كانت قد تعطّلت قبل سنوات، واستحال إصلاحها.

علّق الوالد وهو ينظر إلى الساعة:

ما من شي في هذا العالم، يا عزيزتي، خاطئ تماماً. فحتى هذه الساعة المعطّلة، تشير إلى الوقت الصحيح مرّتين في اليوم.

سارت لبعض الوقت في الجبال المشجرة قبل أن تتعثر على المجوسي. كان جالساً على صخرة قرب قمة الجبل، متأملاً وادي الغرب والجبال التي تحاذيه. كان المشهد جميلاً حقاً. تذكّرت بريدا، وهي تمعن النظر فيه، أن الأرواح تُؤْثِر مثل تلك الأماكن.

سألت المجوسي وهي تدنو منه:

- هل اللّه هو إله الجمال فحسب؟ وإذا صحّ ذلك، فماذا عن الأشخاص البشعين والأماكن القبيحة في هذا العالم؟

لم يردّ المجوسي. فشعرت بالإحراج.

- أنت، لا تذكرني ربما. لقد أتيت قبل شهرين. أمضيت الليل بطوله وحدي في الغابة. قطعت عهداً على نفسي حينها بأنني لن أعود إلا حين أكتشف طريقي. ثم التقيت امرأة تدعى ويكا.

جفل المجوسي، لكنه أدرك بارتياح أن الفتاة لم تلاحظ توتره. ثم ابتسم في نفسه على سخرية القدر.

«قالت لي ويكا إنني ساحرة»، تابعت الفتاة.

- ألا تثقين بها؟

كانت هذه أولى الكلمات التي تفوّه بها المجوسي منذ وصولها. سُرت بريدا لمعرفتها أنه يستمع إلى ما تقوله، بعدما شكّت للحظة في ذلك.

«بلى، أثق بها»، قالت. «وأؤمن كذلك بحكمة القمر. لكنني أعرف أيضاً أن حكمة الشمس ساعدتني عندما أجبرتني على فهم ليل الظلمة. وهذا هو سبب عودتي.

أجاب المجوسي:

- اجلسي إذاً، وتمتعي بغروبها.

- لن أجلس وحدي في الغابة من جديد. في المرة الأخيرة التي جئت فيها إلى هنا...

قاطعها المجوسي:

- لا تتلفظي بهذه الكلمات، فالله موجودٌ في الكلمة.

سبق لويكا أن نطقت الشيء نفسه تقريباً.

- ما الخطأ في ما قلته؟

- قولك إنها كانت المرة «الأخيرة»، قد يجعلها تكون كذلك فعلاً. ما أردت قوله هو «الزمن الأقرب عهداً الذي كنتُ فيه هنا».

انتابها القلق. سوف يكون عليها من الآن وصاعداً، أن تحرص جيداً خلال استخدام كلماتها. قررت الجلوس بهدوء، والقيام بما طلبه المجوسي: تأمُّل الغروب.

أثار ذلك أعصابها. لن تظلم الدنيا قبل نحو الساعة، ولديها الكثير لتتحدث في شأنه، وأمور شتى تقولها وتسأل عنها. وهي كلما مكثت هادئة، مكتفية بالنظر إلى شيء ما، يتملّكها الغضب أكثر، ففي مقدورها استثمار هذا الوقت في القيام بشيء ما، أو مقابلة شخصٍ. أمامها الكثير لتتعلّمه، وكان في إمكانها قضاء وقتها هذا بطريقة أفضل بكثير. لكن، لمّا شرعت الشمس تُبحر في الأفق، وتلونت الغيوم بخيوطٍ ذهبيةٍ ووردية، أدركت بريدا أن

ما تحارب من أجله في حياتها، هو بالضبط ما تفعله الآن، أي القدرة على الجلوس يوماً ما لتأمل مثل هذا المشهد.

في لحظةٍ ما، سألها المجوسي:

أتعرفين كيف تصلّين؟

من المؤكد أنها تجيد الصلاة، حالها في ذلك حال الجميع.

- حسناً، عليك بتلاوة الصلاة ما إن تلامس الشمس الأفق. في حكمة الشمس، يعتمد التواصل مع الخالق على الصلوات. فعندما يصاغ الابتهال بكلام الروح، يغدو أقوى بكثير من أي طقس.

ردّت بريدا: لا أجيد الصلاة لأن روحي صامتة.

ضحك المجوسي.

- وحدهم المستنيرون عن حق، يملكون أرواحاً صامتة.

- لماذا إذاً، لا يمكنني الصلاة بروحي؟

- لأنك تفتقرين إلى التواضع الذي يجعلك تستمعين إلى روحك، وتكتشفين ما تبغيه. يُحرجك الإصغاء إلى متطلباتها، ويخيفك حملها إلى الخالق لأنك تعتقدين أنه لا يملك وقتاً لها.

كانت تراقب غياب الشمس وإلى جانبها أحد الحكماء، لكنها شعرت، على غرار ما يحدث دوماً في مثل هذه الأوقات، بأنها لا تستأهل وجودها هناك.

- صحيح أنني أشعر بعدم جدارتي، ولطالما اعتقدت أن البحث الروحي وُجد لأناس أفضل مني.

- هؤلاء الأشخاص إن وُجدوا، فهم لا يحتاجون إلى البحث عن أي شيء. إنهم تجسُّد الروح. والبحث قد وُضع لأمثالنا.

«لأمثالنا»، قال المجوسي، مع أنه كان قد جاوزها بأشواط.

قالت بريدا: «الله هو الله في كلتا الحكمتين: القمر والشمس»، مؤمنة بأن الحكمتين متطابقتان ولا تختلفان إلا بطريقة تلقين كل منهما. «إذاً، علّمني كيف أصلّي».

التفت المجوسي نحو الشمس وأغمض عينيه.

- نحن بشر يا الله ولا ندرك عظمتنا. ربي، امنحني التواضع لأطلب ما أحتاج إليه، لأنه ما من رغبة تذهب سدى، وما من طلب لا يلقى استجابة. كل منا يعرف على أكمل وجه كيف يغذي روحه، فامنحنا الشجاعة لنرى رغباتنا مقبلة من ينبوع حكمتك الذي لا ينضب. لا يمكننا أن نبدأ بفهم من نحن إلا بتقبُّل رغباتنا. آمين.

قال المجوسي: «حان دورك الآن».

- ربي ساعدني كي أفهم أن كل الأشياء الرائعة التي تصادفني في الحياة، تجيء لأنني أستحقها فعلاً. ساعدني كي أفهم أن ما يدفعني إلى البحث عن حقيقتك إنما هو القوة نفسها التي دفعت القديسين، وأن الشكوك التي تراودني هي نفسها الشكوك التي راودت القدّيسين، والعنف الذي ينتابني هو عنف القديسين نفسه. ساعدني كي أتحلى بالتواضع المطلوب، وكي أتقبّل أنني لست مختلفة عن سائر البشر.

جلسا بصمت يشاهدان غروب الشمس إلى أن اختفى آخر شعاع من أشعتها على بساط الغيم.

كانت روحاهما تصلّيان، لعل أمنياتهما تتحقق، ويرفعان الشكر إلى من جمعهما معاً.

«فلنذهب إلى الحانة»، قال المجوسي.

قفل هو وبريدا عائدين. تذكّرت من جديد اليوم الذي ذهبت فيه، لأول مرة إلى هناك بحثاً عنه. وقد عاهدت نفسها حينها أنها لن تعيد النظر في القصة سوى مرّة واحدة بعد، فهي لا تحتاج إلى الاستمرار في محاولة إقناع روحها.

أمعن المجوسي النظر في الفتاة التي تسير أمامه، وهي تحاول أن تُظهر له أنها تعرف أين تضع قدميها ما بين التراب الرطب والصخور، لكنها لا تكف عن التعثر كل حين. انشرح صدره لبرهة، إلا أنه عاد سريعاً إلى التحفّظ.

فبعضُ نِعَم الله تصل أحياناً عبر تحطيم جميع النوافذ.

فكّر المجوسي، وهما يهبطان عائدين من الجبل، كم أنه محظوظ لوجود بريدا إلى جانبه. فمثله مثل أي رجلٍ آخر، كان للمجوسي مواطن ضعف ومواطن قوة. كما أنه لم يتعوّد بعدُ تأدية دور المعلّم. وهو في البداية، ومنذ أن صار الناس يجيئون إلى الغابة من أنحاء إيرلندا لسماع تعاليمه، تحدّث عن حكمة الشمس، وأراد منهم أن يفهموا ما يدور من حولهم. فالله قد اختزن حكمته هناك، بحيث يسعهم جميعاً إدراكها متى مارسوا بعض الطقوس البسيطة. وقد سبق لبولس الرسول أن وصف، منذ ألفي عام، طريقة تعليم حكمة الشمس: «وأنا، بضعف وخوف ورعدة شديدة، صرت إليكم، ولم تكن كلمتي وبشارتي بكلمات وحكمة مقنعة، بل بإظهار روح وقوّة، لئلا يكون إيمانكم قائماً على حكمة من بشر، بل على قوة من الله».

لكن الناس، بدوا، برغم ذلك، عاجزين عن فهمه وقد حدّثهم عن حكمة الشمس. أصيبوا بالخيبة لأنهم وجدوه رجلاً شبيهاً بغيره من الرجال.

لم يولِ الأمر أهمية. فهو معلّم، وجلّ ما يفعله، مدُّ كل شخص بالوسائل اللازمة للحصول على المعرفة. لكنهم احتاجوا إلى ما هو أكثر بكثير. كانوا في حاجة إلى مرشد. لم يفهموا ماهية ليل الظلمة، ولم يُدركوا أن أي مرشد في «ليل الظلمة» سيكتفي،

وحسب، بأن ينير بشعلته ما يسعى هو نفسه إلى أن يراه. وإذا صدف أن انطفأت الشعلة، فسيتيه الناس، لأنهم، ببساطة، لا يعرفون طريق العودة. هم يحتاجون برغم ذلك إلى مرشد، وعليه هو أن يحترم رغباتهم، ليثبت أنه جدير بأن يحتل هذه المكانة.

شرع عندها في تنميق خطبه بكلام أخّاذ، لا يُسمن ولا يُغني. يمكن للجميع قبوله وفهمه. نجحت الطريقة. وتعلّم الناس حكمة الشمس. ولمّا أدركوا أخيراً أنه لا فائدة على الإطلاق من الكثير مما أخبرهم إياه المجوسي، ضحكوا من أنفسهم. وسُرّ المجوسي، لأنه تعلّم أخيراً كيف يعلّم.

لكن بريدا تختلف عمّن سواها. مسّت صلاتُها عمقَ روح المجوسي. أدركت أنه ما من كائن بشري يحيا في هذا الكوكب، اختلف، أو يختلف عن الآخرين. ويمكن فقط لقلّة من الناس المجاهرة بالقول إن كبار معلّمي الماضي تمتّعوا بمزايا البشر ذاتها، وبعيوبهم، وبأن هذا لا يُقلّل في أي شيء من قدرتهم على البحث عن الله. لقد شكّل الحكم على الذات، باعتبارها دون مستوى الأناس الآخرين، واحداً من أسوأ أفعال الكبرياء التي عرفها، لأنه الطريقة الاكثر تدميراً للاختلاف الذي يميّز المرء من غيره.

بلغا الحانة، وطلب المجوسي كأسين من الويسكي.

قالت بريدا، «انظر إلى الزبائن الآخرين. هم يأتون إلى هنا في كل ليلة ربما، ويقومون دوماً بالأمور ذاتها».

فجأة، لم يعد المجوسي متأكداً إذا كانت بريدا تعتبر نفسها فعلاً مثل أي شخص آخر.

وأجاب، «تشغلين نفسك كثيراً بالأناس الآخرين. إنهم مرآة ذاتك».

- أعلم، نعم. اعتقدت أنني أعرف ما الذي يُسعدني ويُحزنني، إلى أن أدركتُ فجأة أنني في حاجة إلى إعادة التفكير. لكن ذلك شاق كثيراً».

- ما الذي جعلك تغيّرين رأيك؟

- الحب. أعرف رجلاً يُشعرني بأنني كاملة. بيّن لي، منذ ثلاثة أيام، أن عاله أيضاً مليء بالألغاز، وأنني لست وحدي.

بقي المجوسي على سكونه، إلّا أنه أخذ يتذكّر الفكرة التي راودته قبل قليل عن نِعَم الله التي تحلُّ بركاتها على الناس، من خلال النوافذ أحياناً.

- هل تحبّينه؟

- ما أدركتُه هو أنه لا يزال في وسعي أن أحبه أكثر. وأنا لو تعلّمت شيئاً جديداً في هذا المسار، فسيكون، أقلّه، أمراً واحداً مهماً: هو أنه علينا ركوب المخاطر.

سبق له أن شرع، وهما يهبطان الجبل، في ترتيب مخططات رائعة لتلك الليلة. أراد إظهار مدى حاجته إليها، وأن يبيّن لها أنه، تماماً كغيره من الرجال، متعب من الوحدة. لكن كلّ ما أرادته هو أجوبة عن أسئلتها.

قالت بريدا «يوجد أمر غريب في شأن الهواء هنا». بدا المناخ كأنه قد تغيّر.

أجاب المجوسي، «إنهم المُرسلون. شياطين اصطناعيون، ممن ليسوا جزءاً من يد الله اليسرى؛ أولئك الذين لا يقودوننا إلى النور».

أخذت عيناه تلمعان. ثمة ما تغيّر فعلاً، فها هو يتحدّث عن الشياطين.

تابع، «جنّد الله ملائكة بإمرة يده اليسرى ليجعلنا أفضل، ونعرف ما نفعله برسالتنا. لكنه كلّف رجلاً مسؤولية حشد قوى الظلمة، وخلْق شياطينه الخاصة».

وها هو يفعل ذلك الآن.

قالت الفتاة، وقد انتابها شيء من الذعر: «لكنه يمكننا أيضاً حشد قوى الخير».

- كلا، لا نستطيع.

لو أنها تساله شيئاً وحسب، لأنه يحتاج إلى ما يصرف ذهنه. لم يشأ أن يخلق شيطاناً. هؤلاء الشياطين يُطلَق عليهم، في حكمة الشمس، اسم «المرسلين»، وفي وسعهم أن يصنعوا خيراً عظيماً، أو شرّاً أعظم. ويُسمح لأكثر المعلّمين أهمية باستحضارهم، وهو واحد منهم، برغم أنه لم يشأ أن يستحضر مثل هذا المرسل الآن، لأنه يستطيع أن يشكّل قوة خطيرة، خصوصاً إذا اختلط مع خيبات الحب.

أربك جواب المجوسي بريدا، وزاد من إرباكها أنه يتصرّف بغرابة.

قال مكرّراً وهو يُجهد محاولاً التركيز في ما ينطق به: «لا يمكننا حشد قوى الخير. فهي، مثل الضوء، دائمة الانتشار. وعندما تطلقين الذبذبات الإيجابية تعودين بالإيجابية على الجنس البشري كلّه. لكن، حين تحشدين قوّة المرسلين تفيدين نفسك فقط، أو تضرّين بها».

استمرّت عيناه تنشران بريقهما في كل مكان ترمقانه. نادى على صاحب المكان ودفع الفاتورة.

قال: «لنذهب إلى بيتي. سأحضّر بعض الشاي، ويمكنك أن تخبريني هناك عن المسائل المهمة حقاً في حياتك».

ترددت بريدا. فهو رجل جذاب كثيراً، وهي امرأة أكثر جاذبية. وخشيت أن تضع تلك الليلة حدّاً لتَلْمَذتها.

لكنها قالت من جديد في سرها: «عليّ أن أركب المخاطر»!

يقيم المجوسي على مسافة بعيدة بعض الشيء خارج القرية. لاحظت بريدا أن منزله يختلف كثيراً عن مسكن ويكا، لكنه بالقدر ذاته من الراحة، ومشغول بالذوق عينه تقريباً. لم يقع نظرها على أي كتاب، فالمساحة في الأغلب فارغة إلا من قطع صغيرة من الأثاث.

توجّها إلى المطبخ لإعداد الشاي، ثم عادا إلى غرفة المعيشة.

سألها المجوسي: «لماذا جئت إلى هنا اليوم؟».

- تعهّدتُ لنفسي أن أفعل ما إن أعرف شيئاً.

- وماذا تعرفين؟

- أنا، في الحقيقة، مطّلعة على القليل. أعلم بأن السبيل بسيط، وبالتالي أكثر صعوبة مما اعتقدتُ، لكنني سأبسّط روحي. إلا أن السؤال الأول هو، في أي حال: لماذا تهدر وقتك معي؟

أجاب المجوسي في فكره، «لأنك توأم روحي»، لكنه قال:

- لأنني أحتاج إلى من أتحدّث معه.

- ما رأيك في السبيل الذي اخترتُه: حكمة القمر؟

احتاج المجوسي إلى قول الحقيقة، ولو أنه رغب في أن تكون الحقيقة مختلفة:

«إنه سبيلك. وويكا محقة تماماً. أنت ساحرة. وستتعلمين استخدام ذاكرة الزمن لاكتشاف الأمثولات التي علّمها الله».

تساءل لماذا الحياة على هذا النحو، ولماذا التقى توأم روحه ليكتشف وحسب أن الطريقة الوحيدة التي يمكنها أن تتعلّم من خلالها، هي عبر حكمة القمر.

قالت بريدا، وقد أخذ الوقت يتأخر ولن يعود هناك أي حافلة: «لديّ سؤال إضافي بعد». أحتاج إلى معرفة الجواب عنه لأنني أعلم بأن ويكا لن تمنحني إياه. أعرف هذا لأنها امرأة مثلي. فبالرغم من أنها ستبقى دوماً معلّمتي، فهي بالنسبة إلى هذا الوضع ستظل دوماً امرأة. أريد أن أعرف كيف أجد توأم روحي».

فكّر المجوسي: «إنه معك، هنا تماماً». ومرّة أخرى، لم يقل شيئاً. وتوجه إلى إحدى زوايا الغرفة وأطفأ الأنوار. وحدها منحوتة من الإكليريك، لم تلاحظها بريدا لدى دخولها، بقيت مضاءة، تحتوي على سائل ما تتصاعد الفقاعات في داخله وتنزل، وتملأ الغرفة بالأنوار الحمراء والزرقاء.

قال المجوسي، وقد تسمّرت عيناه في المنحوتة: «التقينا حتى الآن مرتين. وأنا يُسمح لي فقط بتعليم حكمة الشمس التي توقظ في الناس ما يملكونه من معرفة موروثة عن الأجداد».

- كيف يمكنني العثور على توأم روحي عبر حكمة الشمس؟

أجاب المجوسي، مردّداً عن غير قصد كلمات ويكا: «هذا ما يبحث عنه كل من على هذه الأرض». وفكّرت بريدا «لا بد من أنهما تتلمذا على يد المعلّم نفسه».

- وضعت حكمة الشمس إشارة في العالم، هي بريق خاص في العين، يراه كل واحد فينا، فيعرف أن الشخص هو توأم روحه.

قالت بريدا: «شاهدت بريقاً مختلفاً في أعين الكثيرين من الناس. وأنا اليوم، على سبيل المثال، أرى عينيك تلمعان. ذلك ما يبحث عنه الجميع».

فكر المجوسي في سره: «لقد نسيت ضلالتها. تعتقد أنها مختلفة عمن عداها. تعجز عن إدراك الكثير مما جاد به الله ليُريها إياه».

وقالت بإصرار: «أنا أفهم لغة العيون. قل لي، بدلاً من ذلك، كيف يكتشف الناس توائم أرواحهم من خلال حكمة القمر».

استدار المجوسي صوبها، وعيناه باردتان وقد خلتا من أي تعبير.

فقالت: «أنت حزين، لأنني لا أزال أعجز عن التعلّم من الأمور البسيطة. ما لا تفهمه هو أن الناس يعانون، يبحثون عن الحب، بلا كلل، وغير مدركين أنهم يؤدون مهمتهم الإلهية في العثور على توائم أرواحهم. ولأنك رجل حكيم، ولا تفكّر كيف هو الأمر بالنسبة إلى الأشخاص العاديين، تنسى أنني أحمل في داخلي آلاف السنوات من الخيبات، ولم أعد أتعلّم بعض الأشياء من خلال أمور الحياة البسيطة».

حافظ المجوسي على هدوئه.

قال: «هالة من نور تشق فوق الكتف اليسرى روحك. هكذا هو الأمر في حكمة القمر».

قالت، وهي تأمل أن يطلب إليها البقاء، «يجب أن أغادر». فقد أحبّت وجودها هناك، وهو أجاب عن سؤالها.

لكن المجوسي نهض وشيّعها إلى الباب.

قالت: «سأتعلّم ما تعرفه. سأكتشف كيفية رؤية هالة النور تلك».

انتظر المجوسي إلى أن هبطت بريدا الدرج مغادرة. يوجد باص إلى دبلن في نصف الساعة المقبل، ولا حاجة له بالتالي إلى القلق عليها. وخرج بعد ذلك إلى الحديقة ومارس الشعائر التي يؤديها كل ليلة. تعوّد القيام بذلك، لكنه يجد أحياناً صعوبة في بلوغ التركيز الضروري. وأفكاره الليلة مشتتة على نحو خاص.

جلس مع انتهاء طقوسه، عند عتبة الباب، ونظر إلى السماء. فكّر في بريدا. تمكّن من رؤيتها في الباص، وهالة الضوء فوق كتفها اليسرى، الضوء الذي يستطيع وحده أن يراه لأنه توأم روحها. فكّر في مدى شوقها إلى الانتهاء من بحث بدأ منذ يوم ولادتها، وفي مدى برودتها لدى وصولهما إلى منزله، واعتبر ذلك علامة جيدة تعني أن مشاعرها الخاصة تصيبها بالتشوّش، فتدافع عن نفسها في مواجهة أمر لم تتمكن من فهمه.

وفكّر أيضاً، ببعض من الخشية، في أنها واقعة في الحب.

تحدّث بصوت مرتفع مع نباتات حديقته، وقال «يعثر الجميع على شقائق أرواحهم، يا بريدا». لكنه شعر، في أعماق نفسه، بأن عليه هو أيضاً أن يقوّي إيمانه، وأنه في الواقع يتحدّث مع نفسه.

وتابع: «عند حدّ ما، يلتقي كل منا توأم روحه ويتعرّف إليه أو إليها. ولولا أنني مجوسي، ويمكنني أن أرى هالة النور فوق كتفكِ اليسرى، لاستدعى الأمر المزيد من الوقت لقبولك. إلا أنكِ ستقاتلين من أجلي، وسأرى، في يوم من الأيام، الضوء الخاص في عينيك. لكنني في الواقع مجوسي، ويعود إليّ أن أحارب من أجلك، بحيث تتحوّل معرفتي كلّها إلى حكمة».

جلس لوقت طويل يتأمل الليل، ويفكّر في بريدا وهي تسافر في الباص عائدة إلى دبلن. الطقس أكثر برودة وصقيعاً من المعتاد. وقريباً ينتهي الصيف.

- ستكتشفين بنفسك أن ليس من مخاطر في الحب. فمنذ آلاف السنين والناس يبحث بعضهم عن بعض، ويجد كل منهم شق روحه.

أدرك فجأة أنه قد يكون مخطئاً. توجد دوماً مخاطرة واحدة: أن يلتقي شخص واحد أكثر من توأم روح في التجسد ذاته، كما جرى خلال آلاف السنين من قبل.

شتاء وربيع

عملت ويكا، خلال الشهرين التاليين، على تلقين بريدا أول مبادئ أسرار السحر الغامضة التي يمكن للنساء تعلّمها أسرع من الرجال، لأنهن، في كل شهر، يختبرن في أجسامهن الدورة التامة للطبيعة: الولادة، الحياة، والموت، أو «دورة القمر»، كما تسميها.

اضطرت بريدا إلى شراء دفتر ملاحظات جديد تدوّن فيه جميع الاختبارات الجسدية التي مرّت فيها منذ لقائها الأول بويكا، ويفترض بها تنظيم الدفتر، على أن يحمل على غلافه النجمة الخماسية التي تربط كل ما هو مكتوب فيه بحكمة القمر. أبلغتها ويكا أن الساحرات يملكن مثل هذا الدفتر، المعروف باسم «كتاب الظلال»، في إشادة منهن بذكرى أخواتهن اللواتي قضين نحبهن خلال سنوات مطاردة الساحرات التي استمرت أربعمئة عام.

- لماذا عليّ القيام بذلك كله؟

- علينا أن نوقظ الموهبة فيك. فأنت، من دونها، لن تتعرفي إلا إلى الألغاز الصغرى. إنها سبيلك في خدمة العالم.

على بريدا أن تخصّص زاوية حرّة نسبياً في منزلها، كنوع من المعبد المصغَّر، على أن تستمر شمعة فيه في الاحتراق ليلاً ونهاراً. والشمعة، بحسب حكمة القمر، رمز العناصر الأربعة، وهي تحتوي في جزيئات تكوينها، على تراب الفتيل، وماء زيت النفط، والنار التي تشتعل، والهواء الذي يسمح للهبها بالاشتعال. وهي مهمة أيضاً

كوسيلة تذكّرها بأن لديها رسالة تحققها، وأنها ملتزمة بها. وحدها الشمعة تظهر، ويجب إخفاء كل ما عداها بعيداً، على رفّ، أو في داخل درج. فقد تطلّبت حكمة القمر، منذ القرون الوسطى وما بعدها، أن تحيط الساحرات نشاطاتهن بالسرّية والغموض، لأن نبوءات كثيرة سبق أن حذّرت من عودة الظلمة في نهاية الألفية.

شعرت بريدا، في كل مرّة جاءت فيها إلى المنزل وشاهدت الشمعة، بمسؤولية غريبة تكاد تكون مقدسة.

طلبت إليها ويكا أن تولي صوت العالم انتباهها الدائم. وقالت لها «يمكنك سماعه أينما كنت. فهو ضجيج لا يتوقف أبداً، موجود على قمم الجبال هناك، وفي المدن، والسماء، وفي قعر المحيط. الضجيج، الأشبه بالذبذبة، هو روح العالم الذي يحوّل نفسه ويسافر في اتجاه النور. وعلى أي ساحرة أن تدرك هذا جيداً، لكونه جزءاً مهماً من هذه الرحلة».

استطردت ويكا في الحديث، وشرحت كيف أن الأقدمين تحدّثوا إلى عالمنا من خلال الرموز. لم يتوقّفوا عن الكلام، ولو لم يستمع أحد، ولو أن الجميع تقريباً نسوا لغة الرموز.

سألتها بريدا في أحد الأيام: «أهمْ كائنات مثلنا؟».

- إننا هم. ونحن ندرك فجأة كل ما تعلّمناه في حيواتنا الماضية، وجميع ما تركه كبار الحكماء مكتوباً في الكون. قال يسوع: «مَثَلُ ملكوت الله مَثَلُ باذرٍ في تربة، إن نام أو قام، في الليل وفي النهار، يربُ البَذْرُ ويعلُ، وهو لا يعلم كيف».

«يرتوي الجنس البشري دوماً من هذا الينبوع الذي لا ينضب، والذي يظلّ يلقى وسيلة للبقاء حتى عندما يقول الجميع إنه مقضيّ عليه. وقد استمرّ عندما كردت القردة البشر من الأشجار، وحينما

غمرت المياه الأرض. وهو سيبقى عندما يتحضّر الجميع ويهيئون أنفسهم للكارثة النهائية.

«فنحن مسؤولون عن الكون، لأننا الكون عينه».

كلّما أمضت بريدا المزيد من الوقت مع ويكا، ازداد إدراكها لجمالها اللامتناهي كامرأة.

واصلت ويكا تعليم بريدا حكمة القمر. طلبت إليها العثور على خنجر ذي حدّين، نصله متموّج كاللهب. سعت بريدا إلى العثور على هذه «الأحجية» في متاجر مختلفة، لكنها لم تجد ما يتناسب مع طلب ويكا، إلى أن حلّ لورنس المشكلة في النهاية. فقد طلب إلى مهندس في الكيمياء المعدنية، يعمل في الجامعة، صنع مثل هذا النصل. وحفر بنفسه المقبض الخشبي، وقدّم الخنجر هدية إلى بريدا. فتلك طريقته في القول لها إنه يحترم بحثها.

أضفت ويكا على الخنجر طقوساً مقدسة وغامضة، تضمنت كلمات سحرية، ورسوماً بالفحم على النصل، وبضع ضربات بواسطة ملعقة خشبية. أرادت استخدام الخنجر امتداداً لذراعها، لمساعدتها على أن تبقى طاقة جسمها مركّزة في النصل. كذلك استعملت الجنّيات العرّابات العصا للغاية ذاتها، ولجأ المجوس إلى السيف للهدف عينه.

أعربت بريدا عن دهشتها حيال الفحم والملعقة الخشبية، فقالت ويكا إن الساحرات اضطررن، في زمن مطاردتهن، إلى استخدام معدّات يمكن الخلط بينها وبين الأدوات العادية اليومية. وبقي تقليد الخنجر والفحم والملعقة الخشبية، وفُقدت كليّاً المواد الفعلية التي استخدمها الأقدمون.

تعلّمت بريدا كيفية إحراق البخور وطريقة استخدام الخنجر داخل الدوائر السحرية. وأصبح لزاماً عليها أن تمارس أحد الطقوس

في كل مرّة يتغيّر فيها طور القمر، فتضع كوباً من الماء على حافة الشباك، بحيث ينعكس ضوؤه على سطحه. وعليها من ثم أن تقف لينعكس وجهها على صفحة الماء، ويصبح انعكاس القمر في منتصف جبهتها تماماً. وما إن تغدو في حالة كاملة من التركيز، حتى تشق الماء بالخنجر، وتسبب تكسّر الانعكاسات وتشكيل أخرى أصغر.

وعليها أن تشرب الماء على الفور لتنمو، من ثمّ، قوة القمر في داخلها.

قالت بريدا في إحدى المرّات، أن «لا معنى لأي من هذا». تجاهلت ويكا الملاحظة، فهي أيضاً اعتقدت ذلك في ما مضى، لكنها تذكّرت كلمات يسوع عن الأمور التي تنمو في داخل كل فرد منّا بدون أن نفهم الطريقة أو السبب.

قالت لها، «لا يهم إذا كان لذلك معنى أم لا. فكّري في «ليل الظلمة». وكلّما فعلت ذلك يتواصل الأقدمون معك. يقومون بذلك، في البداية، بطريقة لا يمكنك فهمها، لأن روحك وحدها ستكون مستمعة، لكن سيمكنك سماع الأصوات من جديد في يوم من الأيام».

لم تشأ بريدا سماع أصوات، بل أرادت أن تجد توأم روحها، لكنها لم تقل شيئاً من هذا لويكا.

خطرت عليها العودة من جديد إلى الماضي، لأن ويكا، ترى أن ذلك ضروري في حالات نادرة فقط.

- لا تستخدمي كذلك، ورق اللعب لقراءة المستقبل. فالورق عمل فقط للنمو من دون كلام. إنه النمو الذي يحصل بطريقة عورية.

على بريدا أن ترصف الورق على الطاولة، ثلاث مرات في الأسبوع، وتجلس تتأمّله. وقد تراءت لها لماماً رؤى في أغلبها غير مفهومة. ولما اشتكت في شأنها، قالت ويكا إن لها معنى عميقاً تعجز عن إدراكه.

- ولمَ لا أستخدم الورق لقراءة المستقبل؟

أجابت ويكا، «للحاضر وحده سلطة على حياتنا. وأنت، عندما تقرئين المستقبل في الورق، إنما تأتين به إلى الحاضر، وهو ما قد يسبب ضرراً خطيراً. ففي إمكان الحاضر التشويش على مستقبلك».

شرعتا في الذهاب، مرّة في الأسبوع، إلى الغابة حيث علّمت ويكا ربيبتها أسرار الأعشاب. فكل شيء في العالم، بالنسبة إلى ويكا، يحمل توقيع الله، وخصوصاً النبات. بعض أوراقه يشبه القلب، وهو جيد للأمراض القلبية، بينما يمكن للأزهار التي تشبه العيون أن تُشفي من أمراضها. أخذت بريدا تدرك أن الكثير من الأعشاب تشبه بالفعل الأعضاء البشرية، وقد وجدت في كتاب عن الطب الشعبي، استعاره لورنس من مكتبة الجامعة، بحثاً يشير إلى أن معتقدات شعوب الريف والساحرات قد تكون صحيحة بالفعل.

وقالت ويكا، في أحد الأيام، وهما تستريحان تحت شجرة، إن «الله جعل من الغابات والحقول منبع كل دواء، بحيث يستطيع أي كان أن يشفى ببركتها».

عرفت بريدا أن لمعلّمتها متدرّبين آخرين، لكنها لم تلتقِ أياً منهم قط. وصدف دائماً أن الكلب ينبح، ويكاد نباحه يصبح أشبه بالعواء، عندما ينتهي وقتها مع ويكا. وبرغم ذلك، فقد مرّت بأناس آخرين على الدرج: امرأة أكبر سناً، وفتاة في مثل عمرها تقريباً،

ورجل يرتدي بزة. استمعت بريدا بتحفّظ إلى خطواتهم، إلى أن فضح صرير الأرضية الخشبية مقصدهم: شقة ويكا.

غامرت بريدا، في أحد الأيام، بالسؤال عن أولئك التلامذة الآخرين، فأخبرتها ويكا بأن «ممارسة السحر ترتكز على القوة الجماعية. تُبقي المواهب المختلفة طاقة عملنا في حركة مستمرة. وكل موهبة تعتمد على المواهب الأخرى مجتمعة».

شرحت لها ويكا عن وجود تسع مواهب، وحرصت كل من حكمة الشمس وحكمة القمر على بقائها على مرّ القرون.

- ما هي المواهب التسع؟

أنّبتها ويكا على كسلها وطرحها الأسئلة طوال الوقت، لأن على الساحرة الحقيقية الاهتمام بجميع أشكال البحث الروحي. طلبت إلى بريدا أن تُمضي المزيد من الوقت في قراءة الكتاب المقدّس (الذي يحتوي على الحكمة الغيبية الحقّة)، وتنشد المواهب في رسالة بولس الأولى إلى الكورنثيين. فعلت بريدا واكتشفت المواهب التسع: كلمتي الحكمة والمعرفة، الإيمان، الشفاء، اجتراح المعجزات، النبوءة، تبيان الأرواح، التحدّث بالألسنة، تفسير الألسنة.

أدركت عندها فقط أن الموهبة التي تنشدها هي تبيان الأرواح.

علّمت ويكا الرقص لبريدا. أخبرتها بأنها تحتاج إلى أن تتعلّم كيفية تحريك جسدها على صوت العالم، تلك الذبذبة الدائمة الوجود. ليست للأمر تقنية خاصة، إذ يقتصر على القيام بأي حركة تخطر في بالها. لكن بريدا استغرقت بعض الوقت لتتعوّد التحرّك والرقص بتلك الطريقة اللامنطقية.

- علّمك المجوسي «ليل الظلمة». وهذا الليل، في الحكمتين

كلتيهما - وهما في الواقع حكمة واحدة - هو الطريقة الوحيدة للتطور. عليكِ، كأوّل أمر تفعلينه عندما تنطلقين في طريق السحر، أن تسلّمي نفسك إلى قوة، لأنك ستواجهين أموراً لن تفهميها أبداً.

«ما من شيء يتصرّف بالطريقة المنطقية التي تتوقعينها. لا يمكنك فهم الأمور إلا من خلال قلبك، وقد يكون هذا مخيفاً. ستبدو الرحلة، لوقت طويل، أشبه بـ «ليل الظلمة»، إلا أن كلّ بحث يشكّل فعل إيمان.

«لكن الله، وإدراكه أكثر صعوبة بكثير من فهم «ليل الظلمة»، يقدّر إيماننا حق قدره، ويهدي بصيرتنا ويرشدنا عبر السرّ المُعجِز».

غابت أي ضغينة أو مرارة من حديث ويكا عن المجوسي. أخطأت بريدا، لأن من الواضح أن ويكا لم تُقم قط أي علاقة غرامية معه. تكاد عيناها تفضحانها وتشيان بها في ذلك. وربما كان الغيظ الذي عبّرت عنه في ذلك اليوم الأول، لم يحدث إلا لأن الأمر انتهى بهما إلى سلوك طريقين منفصلين. فالسحرة والساحرات كائنات مغرورة، يريد كل منها أن يثبت للآخر أن طريقه هي الأفضل.

انتبهت فجأة إلى ما تفكّر فيه.

أمكنها، من خلال عيني ويكا، القول إنها ليست مغرمة بالمجوسي.

سبق لها أن شاهدت أفلاماً وقرأت كتباً وروايات تتحدّث عن هذا. فالعالم بأسره يمكنه أن يعرف أن شخصاً ما قد وقع في الحب من خلال عينيه.

فكّرت في سرها: «لم أتمكن من فهم الأمور البسيطة إلى أن آمنت بالأفكار الجدلية والمعتقدات الإشكالية... وربّما كانت تتبع حكمة الشمس في يوم من الأيام».

مرّ جزء كبير من السنة، ولاحت تباشير البرد عندما اتصلت ويكا ببريدا مكتفية بالقول:

«سنجتمع في الغابة بعد يومين، ليلة يهلّ القمر، قبيل هبوط الظلام».

أمضت بريدا هذين اليومين تفكّر في اللقاء. مارست الشعائر المعتادة، ورقصت على صوت العالم. وفكرت «لو أنه يمكنني الرقص على وقع بعض الموسيقا»، إلا أنها أخذت تألف تحريك جسدها على تلك الذبذبة الغريبة التي أمكنها سماعها ليلاً في بعض الأماكن الصامتة. أخبرتها ويكا بأنها إذا رقصت على صوت العالم، فستشعر روحها بمزيد من الراحة في جسدها، وينخفض توتّرها. أخذت بريدا تلاحظ أن المارة في الشوارع لا يعرفون ماذا يفعلون بأيديهم، أو كيف يحرّكون أردافهم وأكتافهم شعرت برغبة في أن تقول لهم إن العالم يعزف لحناً، وإنهم إذا رقصوا قليلاً على ذلك النغم، وسمحوا لأجسامهم بأن تتحرّك فحسب في شكل غير منطقي لبضع دقائق في اليوم، فسيشعرون بحال أفضل بكثير.

إلا أن تلك الرقصة جزء من حكمة القمر، ووحدهن الساحرات يعرفن ذلك. ولا بدّ من أن تتضمّن حكمة الشمس ما هو مشابه. وهو لطالما وُجد برغم ما يبدو من عدم رغبة أي يكن في تعلّمه.

قالت للورنس، «فقدنا قابليتنا للعيش مع أسرار العالم برغم وجودها أمامنا. وما أردت أن أصبح ساحرة إلا لأتمكن من فك طلاسم هذه الأسرار».

مضت بريدا إلى الغابة في اليوم المقرّر. لطالما شكّلت هذه الغابة، منذ ألف وخمسمئة سنة، المكان المقدّس للعرافين، إلى أن طرد القديس باتريك الأفاعي من إيرلندا، واختفت من حينها العبادة التي لطالما شغلت حيوات هؤلاء الذين نذروا أرواحهم لاستشراف الغيب. لكن تقديس هذا المكان انتقل من وقتها من جيل إلى جيل، ولا يزال القرويون، حتى يومنا هذا، يجلّونه ويهابونه.

عثرت على ويكا في الفسحة الخالية من الأشجار، وقد التفت بوشاحها، وبرفقتها أربع نساء يرتدين ثياباً عادية.

كانت النار مشتعلة في المكان الذي سبق لها أن لاحظت وجود رماد فيه. تطلّعت بريدا إلى لهبها، وشعرت، لسبب ما، بالخوف. لم تعرف إذا كان مردّ ذلك إلى الجزء من «لوني» الذي تحمله في داخلها، أم لأنها عرفت النار في تجسّدات سابقة.

وصل المزيد من النساء؛ بعضهن في عمرها، وأخريات أكبر سناً من ويكا، حتى بلغ مجموعهن تسعاً.

- لم أوجه الدعوة إلى الرجال اليوم، فنحن هنا في انتظار حكمة القمر.

تحلّقن واقفات حول النار، وتحدّثن عن أكثر أمور العالم تفاهة. فشعرت بريدا، برغم اختلاف المسرح، كما لو أنها دُعيت إلى حفلة شاي تطفح بالثرثرات القديمة.

لكن، ما إن امتلأت السماء بالنجوم، حتى تغيّر الجو كلّياً. لم

تحتج ويكا إلى أن تنشد الصمت، إذ تلاشت المحادثات تدريجاً. وتساءلت بريدا في قرارة نفسها إذا كنّ قد لاحظن وجود النار والغابة.

عمّ صمت وجيز تحدّثت بعده ويكا:

«في مثل هذا اليوم من كل سنة، تجتمع ساحرات العالم معاً للصلاة ولتكريم أجدادنا. ونحن، بحسب الحكمة، نجتمع في القمر التاسع من السنة حول النار، التي شكّلت حيوات شقيقاتنا المضطهَدات وموتهن».

أخرجت بريدا ملعقة خشبية من تحت وشاحها.

«هذا هو الرمز»، قالت، وهي تُظهر الملعقة للجميع.

بقيت النساء واقفات وقد شبكن أيديهن، ثم استمعن إلى صلاة ويكا وهن يرفعنها إلى السماء.

- لتحل على رؤوسنا، الليلة، بركات العذراء مريم وابنها يسوع. ففي أجسادنا تنام أرواح جداتنا، فلتباركهن العذراء مريم.

«ولتباركنا لكوننا نساء، نعيش في عالم يحبنا فيه الرجال. ويفهموننا أكثر فأكثر. لكننا لا نزال نحمل على أجسادنا علامات الحيوات الأخرى، وهي إشارات لا تزال تصيبنا بالألم.

«ولتحررنا العذراء مريم من هذه الأمارات، وتضع حدّاً أبدياً لشعورنا بالذنب، كلما خرجنا للعمل، لأننا نترك أولادنا من أجل كسب المال لإطعامهم. نشعر بالذنب لبقائنا في المنزل، لأننا لا نستغل حريتنا كما يجب. نشعر بالذنب حيال كل شيء لأننا أقصينا طويلاً عن القرارات والسلطة.

«ولتُذكّرنا العذراء مريم على الدوام، بأن النساء هن اللواتي بقين

مع يسوع لمّا هرب جميع الرجال، أو أنكروا إيمانهم، وهن اللواتي انتحبن حينما حمل صليبه، وهن اللواتي لبثن عند قدميه ساعة لفظه آخر أنفاسه. وإن النساء هن اللواتي زرن ضريحه الفارغ، وليس لدينا من سبب للشعور بالذنب.

«ولتذكّرنا العذراء مريم دائماً بأننا أُحرقنا واضطهِدنا لأننا بشّرنا بديانة المحبة. وبينما حاول آخرون إيقاف الزمن بقوّة الخطيئة، اجتمعنا معاً لإقامة مهرجانات ممنوعة احتفلنا فيها بما لا يزال جميلاً في العالم. ولأننا فعلنا ما فعلناه، وآمنا بما نذرنا حيواتنا من أجله، أُدنّا وأُحرقنا في الساحات العامة.

«ولتذكّرنا العذراء مريم أبداً بأن الرجال حوكموا أمام الملأ بتهمة بثّ النزاعات في الساحات العامة وزرعها على الأرض، أما النساء فحوكمن في الساحات نفسها بجرم اقتراف الزنى.

«ولتذكّرنا العذراء مريم دائماً بجدّاتنا اللواتي - على غرار جان دارك - اضطررن إلى التنكّر في زي الرجال من أجل العمل بكلمة الرب، وقد قضين برغم ذلك طعماً للنار».

حملت ويكا الملعقة الخشبية بيديها، ومدّت ذراعيها معاً.

- ها هو رمز استشهاد جداتنا. ولتبقَ ألسنة اللهب التي التهمت أجسادهن مضطرمة دائماً في نفوسنا، لأنهن في دواخلنا... لأننا هنّ».

ورمت بالملعقة في النار.

واصلت بريدا ممارسة الشعائر التي علّمتها إياها ويكا. أبقت الشمعة دائمة الاحتراق، ورقصت على صوت العالم. سجّلت لقاءاتهما ويكا في «كتاب الظلال»، وقصدت الغابة المقدسة مرتين في الأسبوع. ولاحظت، لدهشتها، أنها شرعت في فهم المزيد عن الاعشاب والنباتات.

لكن الأصوات التي أرادت ويكا إيقاظها لم تظهر. وما زادها قلقاً، أنها لم تتمكن من رؤية هالة النور فوق كتف أيّ يكن.

فكّرت، وقد اعتراها بعض الخوف: «من يدري، ربما لم ألتق توأم روحي بعد». هو قَدَر اللواتي يعرفن حكمة القمر: إنهن لا يرتكبن أي خطأ لدى اختيارهن رجال حيواتهن. وهذا يعني، منذ اللحظة التي يصبحن فيها ساحرات حقيقيات، أن أوهام الحب ذاتها التي يرعاها الآخرون، لن تعود تراودهن. وسيعني ذلك في الحقيقة، معاناة أقلّ، أو قد يبشر بإزهاق آخر ومضة روح في جسد الحزن الذي طالما نهش من ذواتهن، وأنه أضحى في وسعهن، ببساطة متناهية، محبّة كل شيء على نحو أكبر. فالعثور على توأم الروح، هو، فوق كل شيء، وحي إلهي يلازم حياة كل شخص. وبحسب الحكمتين، فإن حب توائم أرواحكن، حتى لو اضطركن في يوم من الأيام إلى الافتراق، سيبقى متوّجاً دوماً بالمجد، والتفاهم، وبذلك النوع المجيد من الشوق المُطَهِّر.

يعني ذلك أيضاً أن «ليل ظلمة، الحب سينحسر في اللحظة التي تسعكِ فيها رؤية علامة النور. دفع ذلك بريدا إلى التفكير في المرّات الكثيرة التي عانت فيها من أجل الحب؛ وبالليالي التي استلقت فيها مستيقظة في انتظار اتصال هاتفي لم يأت قط؛ وبنهايات الأسبوع الرومانسية التي لم تستمرِ في الأسبوع الذي تلاها؛ وبالحفلات التي أمضت الوقت فيها وهي تسترق النظر بقلق لرؤية مَن هناك؛ وبفرح الظفر بالقلوب لتثبت فحسب، أن في وسعها القيام بذلك؛ وبالحزن والوحدة عندما تتأكد من أن أفضل أصدقاء خليلها، هو الرجل الوحيد الذي قد يستطيع إسعادها. كان ذلك جزءاً من عالمها، ومن عالم كل شخص آخر عرفته. هذا ما كان عليه الحبّ، وتلك كانت الطريقة التي بحث فيها الناس عن شقائق أرواحهم منذ فجر الأزمنة: أن ينظر الناس بعضهم في عيون بعض بحثاً عن ذلك النور الخاص الذي هو الرغبة. لم تعط مثل هذه الأمور قيمتها، بل على العكس، لطالما فكّرت في أن من غير المجدي أن يعاني المرء من أجل شخص آخر، أو أن يشعر بالخوف الشديد لعدم القدرة على إيجاد مَن يتقاسم معه حياته. إلا أنها، وقد واتتها الفرصة الآن لتحرير نفسها إلى الأبد من مثل هذه المخاوف، ليست متأكدة من أنها تريد ذلك.

- أحقاً، أودّ رؤية هالة النور تلك؟

فكّرت في المجوسي. للحظة، شرعت تظنّ أنه محق، وأن حكمة الشمس هي الطريقة الوحيدة للتعامل مع الحب. لكن، لا يسعها تغيير رأيها الآن بعدما أيقنت الدرب التي عليها سلوكها إلى النهاية. تعرف أنها إذا استسلمت الآن فستجد صعوبة أكبر في القيام بأي خيارات أخرى في الحياة.

بعد درس طويل كُرّس بعد ظهر أحد الأيام لشعائر استهطال

المطر التي مارستها الساحرات منذ القدم - شعائر على بريدا أن تدونها في «كتاب الظلال» خاصتها، برغم أنها قد لا تستخدمها أبداً - سألتها ويكا إذا كانت ترتدي الثياب كلها التي تملكها.

أجابت «لا، بالتأكيد لا أفعل».

- حسناً، عليك من الآن فصاعداً أن ترتدي كل ما في خزانتك.

ظنّت بريدا أنها أساءت الفهم.

فقالت ويكا شارحة: «يجب على كل ما يحتوي على طاقتنا أن يبقى في حركة دائمة. إن ما تشترينه من ثياب يصبح جزءاً منك، ويمثّل تلك الأوقات المميزة التي غادرت فيها المنزل، وأنت تريدين التبذير قليلاً لسعادتك الغامرة بالعالم، أو الأوقات التي تألّمتِ فيها وأردت أن تشعري ببعض التحسن، أو اللحظات والساعات التي اعتقدت فيها أن عليك تبديل حياتك.

«الثياب تحوّل دوماً الانفعالات إلى مادة. إنها أحد الجسور بين المنظور واللامنظور، بل يمكن لبعضها أن يسبب الضرر، لكونها مصنوعة لشخص آخر، لكن انتهى بها المطاف بين يديك».

أدركتْ بريدا ما تعنيه. فثمة ثياب لم تستطع حمل نفسها على ارتدائها، لأنها كلما فعلت حدث أمر سيئ.

تابعت ويكا: «تخلّصي من أي ملابس ليست مخصصة لك، وارتدي الأخرى كلّها. فمن المهم إبقاء التراب مقلوباً، والموج متكسراً، وجميع انفعالاتك في حركة دائمة. الكون بأسره يتحرك طوال الوقت، وعلينا أن نفعل مثله».

بعثرت بريدا، إثر عودتها إلى المنزل، محتويات خزانتها على السرير. نظرت إلى كل قطعة ثياب؛ بعضها نسيت أمره تماماً،

وأعاد إليها البعض الآخر ذكريات سعيدة، برغم أنه لم يعد عصرياً، لكنها احتفظت به لأنه امتلك سحراً خاصاً. ولو أنها تخلّصت منه لَمَحَتْ جميع الأمور الجيّدة التي عاشتها وهي ترتديه.

نظرت إلى الملابس التي اعتقدت أنها تحتوي على «ذبذبات سيئة». لطالما أملت أن تنزع عنها هذه الذبذبات سوءها، في يوم من الأيام، وتتدثّر بجلباب أكثر جمالاً ونبلاً، فتتمكّن هي عندها من ارتداء هذه الثياب من جديد. لكن النتائج جاءت تنبئ بكارثة استثناء في كل مرّة أخضعتها فيها للاختبار.

أدركت أن علاقتها مع الثياب أكثر تعقيداً مما اعتقدت، وصعب عليها برغم ذلك أن تتقبل تدخّل ويكا في أمر على هذا القدر من الخصوصية والشخصانية، كطريقة تأنّقها. احتفظت ببعض الملابس للمناسبات الخاصة، ورفضت أن يكون لأحد غيرها أن يقرر متى ترتديها. وبعضها الآخر غير مناسب للعمل ولا حتى للخروج في عطلة نهاية الأسبوع. ولماذا تهتم ويكا بهذا؟ فهي لم تشكّك قط في كل ما طلبت إليها ويكا القيام به. أمضت حياتها ترقص وتضيء الشموع وتغمد الخناجر في الماء، وتتعلّم عن شعائر لن تستخدمها أبداً. قبلت ذلك كلّه، لأنه جزء من الحكمة: حكمة لم تفهمها، لكنها ربما كانت على تماس مع نفسها المجهولة. إلا أن ويكا، بتدخّلها في مسألة ثيابها، تحشر نفسها أيضاً في طريقة وجودها وأسلوب حياتها في هذا العالم.

قد تتجاوز ويكا حدود سلطتها. صحيح. وقد تحاول التدخل في شؤون لا تعنيها. وهذا قد يكون صحيحاً أيضاً... لكن ما يوازي كلا الاحتمالين، سمعته بريدا يتردد عبر الأثير: «يصعب تغيير ما هو ظاهر أكثر مما في الداخل».

نطق أحدهم بهذا، فنظرت بريدا غريزياً من حولها، عارفة أنها لن تجد أحداً.

إنه «الصوت».

الصوت الذي أرادت ويكا إيقاظه.

أمكنها السيطرة على مشاعر الإثارة والخوف التي تولّدت لديها. لزمت الصمت أملاً منها أن تسمع شيئاً آخر، لكن الصوت الوحيد الذي لا يزال صداه يضج ويتردد على مسمعها، هو الضجيج الآتي من الشارع، ومن تلفاز في مكان ما في الخارج، وصوت العالم الدائم الحضور. حاولت أن تستعيد وضعيتها السابقة وهي جالسة، والتفكير في الأمور ذاتها التي راودتها سابقاً. وقد حدث كل شيء بسرعة كبيرة، بحيث لم تشعر حتى بالخوف أو المفاجأة أو الفخر.

لكن الصوت نطق بشيء. هي متأكدة بما يشبه اليقين من أن الصوت الذي سمعته ليس صوتها، حتى ولو أثبت كل من في العالم أن الأمر ليس إلا من نتاج مخيلتها، وحتى لو استؤنفت مطاردة الساحرات، وكان عليها أن تقف في المحكمة، وتخاطر بالتعرض للحرق حتى الموت.

«يصعب تغيير ما هو ظاهر أكثر مما في الداخل». لأمكن الصوت ربما أن يقول شيئاً أكثر شأناً، فهي المرة الأولى التي تسمعه فيها في تجسُّدها الحالي؛ وانتابها برغم ذلك شعور مفاجئ غامر بالفرح. أرادت ان تتصل هاتفياً بلورنس، وأن تذهب لرؤية المجوسي. وأن تقول لويكا إن الكشف عن موهبتها قد تم أخيراً، وإن في وسعها الآن أن تصبح جزءاً من حكمة القمر. الفرحة المباغتة تكاد تفعل فعل اليأس وأكثر. وهي تكاد تسلبها عقلها. جابت الغرفة ذهاباً وإياباً. دخّنت بضع سجائر، واستغرقها الأمر نصف ساعة لتشعر

بأنها هدأت بما يكفي للجلوس من جديد على السرير إلى جانب ملابسها كلها.

الصوت على حق. فقد سلّمت بريدا روحها إلى امرأة غريبة، وبقدر ما يبدو الأمر مستغرباً، فإن من الأسهل كثيراً تسليم روحها على أن تتنازل عن تغيير أسلوبها في ارتداء الملابس.

أخذت تدرك الآن فقط كم أن هذه التمارين التي لا معنى لها في الظاهر، آخذة في التأثير في حياتها. ولم يمكنها إلا الآن، بعدما أن نظرت في تغيير الظاهر، أن تدرك كم أنها تغيّرت من الداخل.

التقت ويكا وبريدا من جديد. أرادت ويكا، معرفة كل شيء عن الصوت، وسُرّت لأن بريدا دوّنت كل تفصيل في «كتاب الظلال» خاصتها.

سألتها بريدا: «صوت من هذا؟».

لكن، كانت لويكا أمور تفعلها وتقولها أكثر أهمية من الإجابة عن أسئلة بريدا التي لا تنتهي.

«أظهرت لك حتى الآن كيف تعودين إلى الطريق الذي عبرته روحك في تجسّدات عدّة سابقة. أيقظتْ تلك المعرفة من خلال التخاطب المباشر الذي أجرته روحي معها عبر رموز جدّاتنا وشعائرهن. لا بدّ من أنك تبرّمت بعض الشيء في هذا الشأن، لكن روحك سُرّت لأنها تعيد التواصل مع رسالتها. ففي الوقت الذي كنت تغتاظين من جميع التمارين التي عليك القيام بها، ويُشعرك الرقص بالملل، وتضطرين إلى مقاومة النعاس خلال الشعائر، كان جانبك الخفي يرتوي مرّة أخرى من حكمة الزمان، متذكّراً ما قد تعلّمه من قبل. وعلى ما جاء في الكتاب المقدس، أخذت البذور تنمو وتنبت برغم أنك لم تعرفي كيف، ثم حان وقت تعلّم أمور جديدة. وهو ما يُسمّى التلقين الذي ستشرعين فيه في تعلّم أمور تحتاجين إلى معرفتها في هذا العالم. ويشير الصوت إلى أنك مستعدة.

«وفي حكمة الساحرات، يحدث التلقين دوماً عند الاعتدال، في اليومين من السنة اللذين يتساوى فيهما الليل والنهار. والاعتدال المقبل هو في الحادي والعشرين من آذار/مارس، وأريده أن يكون تاريخ الشروع في تلقينك، لأنني أنا أيضاً أخذت التلقين في الاعتدال الربيعي. وها أنت تعرفين كيفية استخدام الأدوات الطقسية، وتدركين جميع الشعائر التي تُبقي الجسر مفتوحاً بين العالمين المنظور واللامنظور. وكلّما مارستِ هذه الطقوس، استذكرتْ روحك الدروس التي تعلّمَتها في حياة سابقة.

«وأنتِ، بسماعك الصوت، جلبتِ إلى العالم المنظور شيئاً من العالم اللامنظور، أي أنك أدركت، بعبارات أخرى، أن روحك مستعدة للخطوة التالية بعدما حققت هدفك الرئيسي الأول».

تناهى إلى بريدا أن رغبتها الأساسية تمثلت في رؤية هالة النور التي تدل على توأم روحها، لكنها فكّرت كثيراً، في الآونة الأخيرة، في كيفية البحث عن الحب، وفي أن أهمية تلك الرغبة الأولى قد أخذت الآن في التراجع مع كل أسبوع يمرّ.

«ثمة اختبار واحد فحسب عليك اجتيازه قبل أن يتم قبولك في عملية التلقين الربيعية. لا تقلقي إذا فشلتِ، فأمامك الكثير من الاعتدالات، وسيتم في يوم من الأيام تلقينك. أنتِ لم تتعاملي حتى الآن إلا مع جانبك الذكوري، وهو المعرفة. تدركين بعض الأمور، ويمكنك فهم ما تعرفينه، إلا أنك لم تلامسي بعدُ القوة الأنثوية العظيمة، التي تتعلّق بالقدرات الكبرى على التحوّل. فالمعرفة من دون تحوّل ليست بحكمة.

«لطالما شكّلت هذه القوة سلطة ملعونة بين الساحرات عموماً، والنساء خصوصاً. إنها قوة يعرفها جميع من في الأرض. ونعرف، نحن النساء، أننا الحارسات العظيمات لأسرارها. ونحن محكومات،

بسبب هذه القوة، بأن نهيم في عالم خطير ومعاد، لأننا من أيقظها، ولأن هناك أمكنة اعثبرت فيه رجساً. وكل من تتصل بهذه القوة، ولو من دون معرفة وعن طيب نية، محكومة بالارتباط بها لما بقي من حياتها. وهي قد تأمرك بأن تصبحي عبدة لك، ويمكنك أن تحوّليها إلى قوة سحرية أو أن تستخدميها طوال حياتك من دون أن تدركي أبداً قوتها العظيمة. هذه القوة موجودة في كل ما يحيط بنا، تتربع خيالاتها متباهية في العالم المنظور للناس العاديين، وفي الحياة غير المرئية للصوفيين. ويمكن قتلها، وسحقها، وإخفاؤها، أو حتى نكرانها. وفي وسعها، لأعوام عدّة، أن ترقد في سبات، منسيَّةً في زاوية أحد الأمكنة. ونحن نستطيع معاملتها بأي طريقة نريد، لكن يستحيل على من اختبر قوتها أن ينساها».

- أي قوة هي هذه؟

«لا تستمري في طرح الأسئلة الغبية»، ردّت ويكا بحدّة. «تعرفين بالتفصيل ماهية هذه القوة».

هل حقاً أن بريدا تعرف؟ نعم.

إنها الجنس.

أزاحت ويكا واحدة من الستائر الناصعة البياض، كاشفة المنظر لبريدا. النافذة تطل على النهر، وعلى أبنية قديمة، وتلال بعيدة، حيث يعيش المجوسي في مكان ما هناك.

سألت ويكا: «ما هو ذلك؟»، وهي تشير إلى القبة العليا في إحدى الكنائس.

- إنه الصليب، رمز المسيحية.

عندما دخل روماني مبنى يعلوه صليب، اعتقد أنه مكان للتعذيب، لأن الصليب يمثّل واحدة من أقسى أدوات التنكيل التي سبق للإنسان أن اخترعها. ربّما لم يتغيّر الصليب، لكن معناه تبدل بالتأكيد. ومن قبيل ذلك، عندما كان البشر أقرب إلى الله، شكّل الجنس وسيلة اتصال مع العناية الإلهية، وإعادة تلاقٍ مع معنى الحياة.

«ولماذا ينأى الناس الذين ينشدون الله بأنفسهم عن الجنس؟».

استاءت ويكا من المقاطعة، لكنها أجابت:

- عندما أتحدث عن القوة، لا أعني فقط الممارسة الجنسية. فبعض الناس يستخدمون هذه القوة من دون القيام بعملية جنسية فعلية. كل شيء يتوقف على الطريق الذي تسلكينه.

«أعرف هذه القوة»، قالت بريدا. «أعلم كيف أستخدمها».

- قد تعرفين أموراً عن ممارسة الجنس مع شخص ما في السرير، لكن ذلك لا يعادل معرفته كقوّة. فكل من الرجال والنساء عرضة لأذى قوة الجنس، لأن اللذة والخوف موجودان، بالدرجة نفسها، في الممارسة الجنسية.

«لماذا تأتي اللذة مصحوبة بالخوف إذاً؟».

ها هي تطرح في النهاية سؤالاً تجدر الإجابة عنه.

«لأن جميع من قاربوا الجنس، يعرفون أنهم يتعاملون مع أمر لا يتم بكل حدّته إلا عند فقدان السيطرة. نحن، عندما نشاطر شخصاً السرير، لا نعطيه الإذن بمناجاة جسدنا فحسب، بل كامل كينونتنا أيضاً. فصفوة قوى الحياة تتواصل معاً، بالاستقلال عنّا، بحيث لا يسعنا بعدها إخفاء من نحن.

«لا تهم الصورة التي نكوّنها عن أنفسنا. لا يهم الزيّ الذي نتنكّر فيه، مهما تكن الاجوبة، الحاذقة والمشرّقة التي نعطيها. ففي خلال الجنس، يصعب خداع الشخص الآخر، لأن كل منا يُظهر، عند هذا الحدّ، نفسه على حقيقتها».

تحدّثت ويكا كما لو أنها تعرف هذه القوة تمام المعرفة. ظهر البريق في عينيها والكبرياء في صوتها. ربما كان هذا السبب الكامن وراء استمرار جاذبيتها. وقد سُرّت بريدا لأن مثل هذه المرأة معلّمتها، وهي ستكتشف، في يوم من الأيام، سرّ ذلك السحر.

«عليك أن تختبري تلك القوة قبل البدء بالتلقين. وكل ما عدا ذلك يخص «الأسرار الكبرى»، وستتعرفين إليها بعد الاحتفال».

- كيف يتسنّى لي إذاً، أن أختبر ذلك؟

- إنها صيغة بسيطة جداً، ونتائجها أكثر تعقيداً بكثير من جميع الشعائر المعقّدة التي علّمتك إياها حتى الآن.

تقدّمت ويكا صوب بريدا، فأمسكت بكتفيها وحدّقت إلى عينيها مطولاً:

«إليك بالصيغة: استخدمي حواسك الخمس في جميع الأوقات. فإذا تزامنت معها لحظة الرعشة، فسيتمّ قبولك للتلقين».

قالت بريدا: «لقد جئت لأعتذر».

ها هما في المكان نفسه الذي التقيا فيه من قبل، على مقربة من الصخور إلى الجانب الأيمن الذي يمكن منه رؤية الوادي من تحت.

وتابعت تقول، «أفكّر أحياناً في أمر وأفعل غيره. لكنك ستعرف كم أن الحب مؤلم إذا عانيت بسببه يوماً».

«نعم أعرف»، أجاب المجوسي، وهي المرة الأولى التي يدلي فيها بأي تعليق، ولو وجيز، عن حياته الخاصة.

- أنت محق في أن ليس لهالة النور هذه الأهمّية كلها. وها إنني اكتشفت الآن أن من الممكن أن تكون عملية البحث، في الواقع، مثيرة للاهتمام، بقدر العثور على ما تبحث عنه.

- لطالما أمكنك التغلّب على مخاوفك.

- ذلك صحيح.

سُرّت بريدا لأنه حتى هو لا يزال يشعر بالخوف برغم معرفته كلها.

أمضيا فترة بعض الظهر يسيران عبر الغابة المكسوة بالثلج. تحدثا عن النباتات، والمنظر الطبيعي الساحر الذي يشاهدانه،

ويسحر عيونهما، والطريقة التي تحوك بها عناكب هذه المنطقة نسيجها. والتقيا في إحدى المراحل براعٍ يكرز فقطيعه عائداً إلى الديار.

صاح المجوسي «مرحبا، يا سانتياغو!»، ثم استدار صوبها:

- لله شغف خاص بالرعاة. فهم أناس تعوّدوا الطبيعة، والصمت، والصبر، وهم يمتلكون حتى الفضائل الضرورية لمناجاة الكون.

لم يسبق لهما، حتى الآن، أن ناقشا إطلاقاً مثل هذه المسائل، لكن بريدا لم تشأ استباق اللحظة. عادت بالحديث إلى حياتها وما يدور في العالم. أبلغتها حاستها السادسة بتفادي الإشارة إلى لورنس. لم تعرف ما يجري، كما أنها لم تدرك بعدُ سبب «هذا الاهتمام الذي يُبديه المجوسي، لكنها احتاجت إلى إبقاء تلك الشعلة مضاءة. أطلقت ويكا على ذلك اسم القوة الملعونة. فهي تمتلك هدفاً معيّناً، وهذه إحدى الوسائل لبلوغه.

مرّا ببعض الخراف التي حفرت قوائمها آثاراً غريبة في الثلج. ما من راعٍ هذه المرة، لكن بدا أن الخراف تعرف إلى أين تذهب، وما الذي تبحث عنه. وقف المجوسي لفترة طويلة يراقبها كما لو أنه يدرس سرّاً عظيماً من أسرار حكمة الشمس، لا يمكن بريدا إدراكه.

وعلى غرار النور الذي أخذ في الاضمحلال، تلاشى الشعور بالخوف والوجل الذي طالما انتابها وهي معه. وها هي تشعر، للمرة الأولى، بالهدوء والثقة، إلى جانبه، لعلّها لم تحتج إلى إظهار مواهبها. فهي قد سمعت الصوت، ولم يعد دخولها عالم هؤلاء الرجال الآخرين والنساء سوى مسألة وقت. أصبح الرجل الذي إلى جانبها، منذ اللحظة التي سمعت فيها الصوت، جزءاً من عالمها.

شعرت بالحاجة إلى الإمساك بيده والطلب إليه أن يُظهر لها جانباً من جوانب حكمة الشمس، تماماً كما تعوّدت أن تطلب إلى لورنس أن يحدّثها عن النجوم القديمة. إنها طريقتها للقول إنهما يريان الأمر نفسه، ولو من زاويتين مختلفتين.

يهمس لها شيء ما بأنها تحتاج إلى هذا، وهو ليس الصوت الغامض لحكمة القمر، بل همس قلبها المضطرب، والأخرق أحياناً. صوت لا تستمع إليه دائماً لأنه كثيراً ما قادها في طرقات لم تتمكن من إدراكها.

لكن الانفعالات هي أحصنة جامحة بالفعل تفرض الاستماع إليها. وقد أطلقتها بريدا لفترة إلى أن حلّ بها التعب. تخبرها انفعالاتها كم يمكن أن تكون فترة بعض الظهر هذا فترة رائعة لو أنها واقعة في حبّه. فالمرء عندما يحب يستطيع أن يتعلّم كل شيء، ويعرف أموراً لم يجرؤ قط على التفكير فيها، لأن الحب مفتاح فهم جميع الأسرار.

استعرضت سيناريوهات غرامية مختلفة تتضمن المجوسي قبل أن تستعيد أخيراً السيطرة على ذاتها. ثم قالت في نفسها إنها لا تستطيع أبداً حبّ رجل مثله، فهو يفهم الكون، والمشاعر الإنسانية تبدو كلّها صغيرة عندما يُنظر إليها من بعد.

بلغا آثار كنيسة دير قديمة. جلس المجوسي على واحدة من الكتل الكثيرة من الحجارة المنحوتة المبعثرة على الأرض، وأزالت بريدا الثلج عن أسكفة نافذة عريضة.

قالت، «لا بد من أن الإقامة هنا جيدة؛ قضاء النهار بطوله في الغابة، ثم العودة إلى النوم في منزل لطيف، ودافئ».

- نعم، هذا جيّد. أعرف أغاني مختلف أنواع الطيور، ويمكنني قراءة آيات الله. وقد تعلّمت حكمتَي الشمس والقمر.

وأراد أن يضيف، «لكنني وحيد، ولا معنى لفهم الكون بأسره إذا كان المرء وحيداً».

ها إن نصفه الثاني جاثم على أسكفّة النافذة. أمكنته رؤية هالة النور فوق كتفها اليسرى، وندم بشدة على تعلّمه الحكمتين، لأنه، لولا هالة النور هذه، لوقع في غرامها.

وفكّر: «إنها ذكية. أحسّتْ بالخطر باكراً، ولا تريد الآن معرفة المزيد عن هالات النور».

- «سمعتُ الصوت. ويكا بالفعل معلّمة ممتازة».

إنها المرة الأولى التي تثير فيها موضوع السحر في فترة بعد ظهر ذلك اليوم.

- «سيعلّمك الصوت أسرار العالم: الأسرار المسجونة في الزمان، وتتناقلها الساحرات من جيل إلى جيل».

تحدّث من دون أن يستمع فعلاً إلى ما يقوله. حاول أن يتذكّر متى التقى للمرة الأولى توأم روحه. الأناس الوحيدون يفقدون أي أثر للوقت. ساعاتهم مديدة وأيامهم لا تنتهي. وهو يعلم بأنهما، برغم ذلك، التقيا مرتين من قبل. وبريدا تتعلّم بسرعة كبيرة.

«أعرف الشعائر، وسيتم البدء بتلقيني الأسرار الكبرى في الاعتدال الربيعي».

وها هي تشعر بالتوتّر من جديد.

«لكن يوجد أمر واحد لم أختبره بعدُ: القوة التي يعرفها الجميع ويبجّلونها، كما لو أنها سرّ».

أدرك المجوسي أن سبب مجيئها بعد ظهر ذلك اليوم، ليس السير بين الأشجار وترك مجموعتين من آثار الأقدام في الثلج، آثار أقدام تتقارب، في كل دقيقة، أكثر فأكثر.

قلبت بريدا ياقة سترتها لحماية وجهها، وهي غير متأكدة إذا كان السبب هو أن البرد أخذ في الاشتداد عند توقفهما عن المشي، أو لأنها تحاول أن تخفي توتّرها.

وقالت أخيراً: «أريد أن أتعلّم كيف أوقظ قوة الجنس من خلال الحواس الخمس. لن تتحدّث ويكا عن ذلك. تقول إنني سأكتشفه تماماً كما اكتشفت الصوت».

جلسا لبضع دقائق صامتَيْن. وتساءلت إذا كان عليها حتى أن تتحدّث في مثل هذا الأمر في خرائب الكنيسة. ثم تذكّرت وجود سبل عدّة لاستخدام القوة. وقد استخدمها الرهبان الذين عاشوا هنا من خلال التعفّف، وسيفهمون ما تعنيه.

«حاولت بجميع الوسائل. أعتقد أن من المحتَّم وجود طريقة، مثل خدعة الهاتف، تجعلني أرى حقيقة ورق لعب التنبؤ بالمستقبل. إنه أمر لا تريد ويكا بالفعل، أن تعلّمني إياه. أظن أنها لقيت صعوبة كبيرة جداً في تعلّمه، وتريدني أن أختبر الصعوبات نفسها».

- ألهذا جئتِ تبحثين عنّي؟

نظرت بريدا في أعماق عينيه، وقالت:

- نعم.

أملت أن تُقنعه إجابتها، إلا أنها لم تعد متأكدة من أي شيء. فالسير عبر الغابة المثلجة، وضوء الشمس على الثلج، والمحادثة السهلة حول أمور العالم العادية، كلّها جعلت انفعالاتها تعدو مثل أحصنة

جامحة. وعليها أن تُقنع نفسها من جديد بأنها هناك لسبب واحد فقط، وستصل إلى هدفها بأي وسيلة ممكنة، لأن الله كان امرأة قبل أن يصبح رجلاً.

نهض المجوسي عن كومة الحجارة التي جلس عليها، وسار صوب الجدار الوحيد الذي لم يتداع إلى ركام. يوجد باب في وسط الجدار، وقف مستنداً إليه. أناره ضوء شمس المساء من الوراء بحيث لم تستطع بريدا أن ترى وجهه.

قال «يوجد أمر واحد لم تعلّمك إياه ويكا. ربما نسيت ذلك، أو لعلها أرادتك أن تكتشفيه وحدك».

- «حسناً، ها أنا، وحدي».

وتساءلت في نفسها إذا لم تكن خطة معلّمتها تقضي في الأساس، بجمعها مع هذا الرجل.

قال أخيراً: ساعلّمكِ، تعالي معي.

أشجار المكان الذي سارا إليه، أكثر ارتفاعاً، وجذورها أشد سمكاً. لاحظت بريدا أن لبعضها سلالم خشبية مربوطة بالجذوع. وعند أعلى كلّ سلّم، يوجد ما يشبه الكوخ.

فكّرت «لا بد من أنه المكان الذي عاش فيه نساك حكمة الشمس».

شرعت في التسلّق. وشعرت، في منتصف الطريق، بالخوف لأن أي سقطة ستكون قاتلة. لكنها قررت المضي؛ فهي في مكان مقدّس، تحميها فيه أرواح الغابة. لم يسألها المجوسي إذا كانت تريد القيام بذلك، وربّما هذا غير ضروري في حكمة الشمس.

أطلقت تنهيدة عميقة لدى بلوغهما القمة، لأنها قهرت مرّة أخرى أحد مخاوفها.

- «هذا مكان جيّد لتعليمك الطريق»، قال، «مكان للمَكْمَن».

- المكمن؟

- يستخدم الصيادون هذه الأكواخ. عليهم أن يكونوا على ارتفاع كبير حتى لا تشتمّ الحيوانات رائحتهم. ويتركون، خلال السنة، طعاماً على الأرض لتتعوّد المجيء إلى هنا فيقتلوها في يوم من الأيام.

لاحظت بريدا رصاصات فارغة على الأرضية، وأصيبت بصدمة.

قال: انظري إلى أسفل.

بالكاد يتسع المكان لشخصين، ويكاد جسده يلامس جسدها. فعلت ما طلبه إليها. لا بد من أن الشجرة واحدة من أطول الأشجار، لأنها استطاعت رؤية رؤوس الأشجار الأخرى، والوادي، والجبال المغطّاة بالثلج في الأفق. المكان جميل هناك، ولم يكن في حاجة إلى التفوه بما قاله عن أن المكان مكمن.

رفع المجوسي السقف المصنوع من الخيش، وامتلأ الكوخ فجأة بضوء الشمس. الطقس بارد. بدا لبريدا أنهما في مكان سحري في قمّة العالم. اضطرت إلى السيطرة على انفعالاتها التي أرادت أن تنطلق من جديد.

قال المجوسي، «لم أحتج إلى المجيء بك إلى هنا لأشرح لك ما تريدين معرفته. لكنني وددتُ أن تفهمي المزيد عن هذه الغابة. أجيء في الشتاء، عندما يكون كل من الصياد والطريدة بعيداً، فأتسلّق هذه الاشجار وأتأمل الأرض».

أرادها أن تشاركه في عالمه. شرع الدم يجري بسرعة أكبر في عروق بريدا. شعرت بخلو البال وهي منغمسة في واحدة من هنيهات الحياة تلك، حيث فقدان السيطرة هو البديل الوحيد الممكن.

نقيم علاقتنا بالعالم من خلال حواسنا الخمس. والانغماس في عالم السحر يعني اكتشاف حواس أخرى غير معروفة، والجنس يدفعنا في اتجاه باب واحد من تلك الأبواب.

شرع الآن في التحدّث بصوت أكثر أرتفاعاً. بدا أشبه بمعلّم يشرح أمثولة في علم الأحياء. فكّرت في نفسها، من دون أن تقتنع، «ربما كان من الأفضل هكذا».

- لا يهم إذا كنت تسعين إلى الحكمة، أو إلى اللذة، من خلال قوة الجنس، لأنها تجربة ستبقى على الدوام كلّية، لأنها التجربة الوحيدة التي تلامس - أو يجب أن تلامس - الحواس الخمس دفعة واحدة عندما تكون قنواتنا كلها مفتوحة على مصراعيها مع الشخص الآخر.

«تختفي الحواس الخمس لحظة ذروة الجماع، وتدخلين عالم السحر، وتفقدين القدرة على الرؤية والسمع والتذوّق واللمس أو الشم. يختفي كل شيء خلال تلك الثواني الطويلة، وتحلّ محلّه النشوة. إنها النشوة نفسها التي يبلغها المتصوّفة بعد سنوات من التجرّد والترويض».

أرادت بريدا أن تسأل عن سبب عدم محاولة الصوفيين بلوغها عبر ذروة الجماع، لكنها تذكّرت أن بعضهم متحدرون من الملائكة.

«الحواس الخمس هي التي تدفع الناس إلى بلوغ هذه النشوة. وكلما جرى تحفيز هذه الحواس كان الدافع إلى النشوة أشدّ، وكانت النشوة أقوى. هل تفهمين؟».

هزّت برأسها موافقة، فهي تفهم بالتأكيد. لكن السؤال ترك مشاعرها أكثر تباعداً. تمنّت لو أنه لا يزال يتمشّى في الغابة إلى جانبها.

«هذا كل ما في الأمر».

«أعرف ذلك كلّه، لكنني ما زلت لا أستطيع القيام به». لم تجرؤ بريدا على ذكر لورنس. شعرت بأن ذلك سيكون خطراً. «قلتَ لي بوجود وسيلة لبلوغ ذلك».

إنها مضطربة ومنزعجة، وقد أخذت انفعالاتها تتمرّد وتخرج عن السيطرة.

تطلّع المجوسي من جديد إلى الغابة من تحته. تساءلت بريدا إذا كان هو أيضاً يتصارع مع انفعالاته، لكنها لم ترد الاعتقاد بما تفكّر فيه، ولا ينبغي لها أن تفعل ذلك.

عرفت ما هي حكمة الشمس، وأن معلّميها يعلّمون عبر المكان والزمان. وقد سبق لها أن فكّرت في ذلك أوّلاً، قبل أن تسعى إلى العثور عليه. تخيّلت أنهما قد يصبحان في يوم من الأيام معاً، على غرار حالتهما الآن، من دون أي شخص آخر في الجوار. هذا ما هم عليه معلّمو حكمة الشمس: يعلّمون دوماً من خلال الفعل ولا يعطون للنظرية اهتماماً أكثر مما تستحق. فكّرت في ذلك كلّه قبل أن تأتي إلى الغابة. وبرغم ذلك جاءت لأن لطريقها الجديدة أهمية تفوق أهمية أي شيء آخر. فقد أرادت مواصلة حكمة حيواتها المتعدّدة.

لكنه شرع الآن يتصرّف كويكا التي تتحدّث عن الأمور فحسب.

قالت: «علّمني».

أخذ المجوسي يحدّق في الأغصان العارية المغطاة بالثلج. استطاع، في تلك اللحظة، أن ينسى أنه المعلّم ويصبح مجرّد مجوسي، ويصير رجلاً مثل بقية الرجال. يعرف أن توأم روحه هنا أمامه. استطاع التحدّث عن هالة الضوء التي في وسعه رؤيتها، وسيكون عليها أن تصدّقه، فيتم اللقاء من جديد بينهما. وهي، حتى لو غادرت باكية، ستعود في النهاية، لأنه يقول الحقيقة. تحتاج إليه بقدر ما هو في حاجة إليها. إنها حكمة توائم الروح: يتعرّف دائماً أحدهما إلى الآخر.

لكنه معلّم، وقد أقسم، في أحد الأيام في قرية إسبانية، يميناً

مقدسة ألا يجبر المعلّم شخصاً آخر أبداً على اتخاذ خيار. ارتكب هذا الخطأ سابقاً، وهو بسبب ذلك أمضى تلك السنوات كلّها منفياً عن العالم. الأمر مختلف الآن، إلا أنه لا يزال يمتنع عن ركوب المخاطرة. وفكّر للحظة: «يمكنني التخلي عن السحر من أجلها»، إلا أنه سرعان ما أدرك حماقة تلك الفكرة. الحب لا يحتاج إلى هذا النوع من التخلّي. يسمح الحب الحقيقي لكل شخص بسلوك طريقه الخاصة، وهو مدرك أنه لن يفقد الاتصال أبداً بتوأم روحه.

عليه أن يصبر، وأن يتذكّر أناة الرعاة، ويعرف أنهما، عاجلاً أم آجلاً، سيصبحان معاً. هذه هي سُنّة وجودهما. وقد آمن بها طوال حياته.

قال أخيراً، وقد سيطر على انفعالاته، «ما تطلبينه إلي سهل للغاية». انتصر الانتظام.

«تأكدي، عندما تلمسين الشخص الآخر، من أن حواسك كلها تعمل لأن للجنس حياة خاصة به. ما إن تبدئي حتى تفقدي كل سيطرة. فهو يسيطر عليك. وسيبقى، إلا إذا جلبتِ إليه مخاوفك، ورغباتك، وأحاسيسك. فهذا هو السبب الذي يجعل الناس عاجزين. خذي معك إلى السرير، عندما تمارسين الجنس، حبّك وحده وحواسك الخمس كلّها. عندها فقط ستختبرين مناجاة الله».

تطلّعت بريدا إلى الرصاصات الفارغة على الأرض. لم تخنها مشاعرها ولو للحظة. تعرف الآن الطريقة المثلى، وقالت في نفسها إن هذا هو كل ما هي مهتمة به.

«ذلك كلّ ما يمكنني أن أعلّمك إيّاه».

لم تتحرك. لقد أدى الصمت إلى ترويض الأحصنة الجامحة.

«تنفّسي على نحو عميق وهادئ سبع مرّات متتالية، وتأكدي من أن حواسك كلّها تعمل قبل أن يحدث أي احتكاك جسدي. ودعي الأمور تتّخذ مجراها».

إنه معلّم حكمة الشمس. وقد نجح في اختبار آخر. فتوأم روحه تعلّمه أشياء أيضاً.

«حسناً، لقد أريتك متعة المنظر من هذا المكان المرتفع. يمكننا النزول الآن».

جلست مشوّشة الذهن، تراقب الأولاد يلعبون في الساحة. أخبرها أحدهم مرّة أن لكل مدينة «مكانها السحري»، مكان نذهب إليه عندما نريد أن نفكّر جدّياً في الحياة. وقد شكّلت تلك الساحة «مكانها السحري» في دبلن. وهي تقع على مقربة من الشقة التي استأجرتها أوّل مجيئها، وقد امتلأت بالأحلام والتوقعات. قضت خطتها في ذلك الوقت بأن تلتحق بمعهد الثالوث الأقدس لتصبح في مآل الأمر أستاذة في الأدب. وقد تعوّدت قضاء الكثير من الوقت على ذلك المقعد، تكتب الشعر وتحاول التصرف على غرار معبوداتها الأدبية.

لكن المال الذي أرسله والدها لم يكف، واضطرت إلى شغل وظيفة في شركة الاستيراد والتصدير التي تعمل فيها الآن. لم تبال، فهي سعيدة بما تفعله، وشكّل عملها في الواقع واحداً من أهم الأمور في حياتها لأنه يُضفي إحساساً بالواقع على كل شيء، ويمنعها من الإصابة بالجنون، وسمح لها بالحفاظ على توازن ثمين بين العالمين المنظور واللامنظور.

واصل الأولاد اللعب. وقد أخبروا جميعهم مرة، مثلها، روايات عن جنيات وساحرات، ارتدين الأسود بالكامل، وقدّمن التفاح المسموم إلى فتيات مسكينات صغيرات تائهات في الغابة. لا يستطيع أي من هؤلاء الأولاد أن يتخيّل أن ساحرة حقيقية، حيّة، تشاهدهم الآن يلعبون.

طلبت إليها ويكا، بعد ظهر ذلك اليوم، أن تجرّب تمريناً لا يمتُّ بصلة إلى حكمة القمر، تمريناً مفيداً لكل من يرغب في إبقاء الجسر مفتوحاً بين العالمين المنظور واللامنظور.

إنه تمرين على درجة كبيرة من السهولة. عليها أن تتمدد وتسترخي، وتتخيّل واحدة من مناطق التسوق الرئيسية في المدينة. ثم، عليها أن تركّز في واجهة محددة لأحد المتاجر، وتلاحظ كل تفصيل موجود في الواجهة، ومكانه، وكم يبلغ ثمن كل سلعة من السلع. وعليها، حين تنتهي من التمرين، أن تذهب إلى الشارع، وتتأكد إذا كانت محقة أم لا.

وها هي الآن في الساحة تشاهد الأولاد. عادت للتو من المتجر، وكانت واجهته كما تخيّلتها تماماً. وتساءلت إن كان هذا حقيقة تمريناً للأشخاص العاديين، أم أن أشهراً من تدريباتها كساحرة ساعدت في ذلك. لن تعرف أبداً.

لكن شارع التسوّق الذي تخيلته كان قريباً جداً إلى «مكانها السحري». وفكّرت في أن «لا شيء يقع مصادفة». وقد تكدّر قلبها في شأن مسألة لم يمكنها حلّها: هي الحب. إنها تحب لورنس، وهي متأكدة من ذلك. عرفت أنها حين تبرع في حكمة القمر، سوف ترى هالة النور فوق كتفه اليسرى. فعندما ذهبا معاً، بعد ظهر أحد الأيام، إلى مقهى لتناول فنجان من الشوكولاتة الساخنة على مقربة من البرج الذي أوحى برواية «اوليسز» لجيمس جويس، شاهدت ذلك الضوء الخاص في عينيه.

المجوسي على حق. فحكمة الشمس هي طريق كل شخص، وهي موجودة ليفكّ رموزها كلّ من يعرف نعمة الصلاة والصبر، ويريد أن يتعلّم ما لديه ليعلم غيره إيّاه. وهي كلّما انغمست في حكمة القمر، أدركت حكمة الشمس وأُعجبت بها.

المجوسي! إنها تفكّر فيه من جديد. هذه هي المشكلة التي عادت بها إلى «مكانها السحري». فهي غالباً ما فكّرت فيه منذ زيارتها كوخ الصيادين. وهي ترغب في أن تكون هناك الآن بالذات لتتمكن من أن تخبره عن هذا التمرين الأخير، لكنها تعرف أن هذه ليست إلا ذريعة. فما تريده فعلاً هو أن يدعوها إلى الذهاب في رحلة جديدة أشبه بنزهة في الغابة. وهي متأكدة من أنه سيُسرّ لرؤيتها، وقد شرعتْ في الاعتقاد، لسبب غامض ما، لم تجرؤ حتى على التفكير فيه، أنه هو أيضاً يستمتع برفقتها.

فكّرت في نفسها وهي تحاول أن تنزع المجوسي من رأسها، في أنها عبثاً تحاول، وسرعان ما سيعود، وهمست في سرّها كمن تغبط نفسها على «كنزها الدفين»: «لطالما كانت لي مخيّلة نيّرة».

لم تشأ الاستمرار في أن تهجس فيه. فهي امرأة تألف أعراض الوقوع في الحب، وعليها الآن أن تتفاداه مهما يكن الثمن. فقد حبّت لورنس، وتريد للأمور ان تستمر على ما هي عليه. لقد تغيّر عالمها أكثر مما يجب.

هاتفها لورنس صبيحة يوم السبت.

قال: «لنذهب ونتمشَّ على طول الجرف».

حضّرت بريدا بعض الطعام، وتحمّلا معاً مشقة الرحلة الطويلة في حافلة غير مدفأة كما ينبغي لحافلة مثلها أن تكون، واستمرا تلسعهما قرصات البرد حتى بلغا القرية قرابة منتصف النهار.

شعرت بريدا بالإثارة. لقد قرأت الكثير في سنتها الأولى، كطالبة أدب في الجامعة، عن الشاعر الذي عاش هناك. رجل غامض يعرف الكثير عن حكمة القمر، كان عضواً في جمعيات سرّية، وترك في كتبه رسالة خفية لأولئك الذين يتوخّون الطريق الروحية. اسمه و. ب. ييتس. وقد تذكّرت بيتين من الشعر له بدا أنهما وُضعا خصيصاً لذلك الصباح البارد مع طيور النورس تحلّق فوق المراكب الراسية في الميناء الصغير:

«نثرت أحلامي تحت قدميك،

امشي بلطف لأنك تَخْطين على أحلامي».

توجها إلى الحانة الوحيدة الموجودة في القرية، تناولا كؤوس الويسكي تباعاً ليدفآ، ثم انطلقا. فسحت الطريق الصغيرة المرصوفة بالحصى والمعبدة بالزفت، المجال أمام صعود شاق، حتى بلغا بعد

نصف ساعة ما يسميه السكان المحلّيون «الأجراف»، وهو كناية عن قطعة بارزة من النتوءات الصخرية التي تسقط في انحدار شديد في البحر. يوجد ممر لسلوكه، وسوف يستطيعان، حتى بمشية متمهّلة، أن يكملا الدرب كلها في أقل من أربع ساعات، فيتمكّنا من اللحاق بالحافلة العائدة إلى دبلن.

ابتهجت بريدا بالمنظر من فوق. لطالما وجدت صعوبة في تحمّل فصل الشتاء. لا يتعلق الأمر بالانفعالات التي قد تحتفظ لها الحياة بها. فكل ما تفعله هو الذهاب إلى العمل نهاراً، والجامعة في المساء، والسينما في نهايات الأسبوع. وأدّت، بحكم الواجب، الشعائر والرقصات التي علمتها إياها ويكا، لكنها شعرت بتوق إلى الخروج إلى العالم، ومشاهدة بعض الطبيعة، والتمتع بها.

الطقس مكفهز والغيوم شديدة الانخفاض، لكن التمرين البدني وكؤوس الويسكي المتتالية، ساعدت على درء البرد. الممر أضيق من أن يتمكنا من السير فيه جنباً إلى جنب؛ فمضى لورنس في الطليعة، وتبعته بريدا متأخرة عنه بعض الشيء. يصعب الحديث في مثل هذه الظروف، إلا أنهما تبادلا بعض الكلمات، بما يكفي للشعور بتقاربهما، والتمتع بالطبيعة من حولهما.

سرحت عيناها، وهي تتأمل بافتتان الأولاد في المنظر الطبيعي الساحر الذي يكاد يخلب قلبها وروحها. لا بد من أنه ذاته، لم يتغيَّر كما كان منذ آلاف السنين، في عصر لم يكن فيه لا مدن، ولا مرافئ، ولا شعراء، ولا نساء شابات ينشدن حكمة القمر. يومها، لم يوجد سوى الصخور، والأمواج المتكسرة، وطيور النورس تحلق تحت الغيوم المنخفضة. استرقت بريدا، بين الفينة والفينة، النظر إلى الهوّة، وشعرت ببعض الدوار. البحر يقول أشياء لم تستطع

فهمها، وطيور النورس ترسم أنماطاً لا تستطيع متابعتها. وها إنها، برغم ذلك، تنظر إلى ذلك العالم البدائي كما لو أن حكمة الكون الحقيقية موجودة هناك، وليس في أي من الكتب التي قرأتها، أو الشعائر التي مارستها. ومع ابتعادهما عن الميناء، أخذت أهمية كل شيء آخر في التضاؤل: أحلامها، حياتها اليومية، بحثها. لم يعد يوجد سوى ما أسمته ويكا: «توقيع الله».

لم يبق من قوى الطبيعة المحض إلا تلك اللحظة البدائية، وذلك الشعور بكونها، بلحمها ودمها، في صحبة شخص تحبه.

توسعت الطريق فجأة بعد نحو ساعتين من السير، وقررا الجلوس معاً للراحة. لا يمكنهما التوقف طويلاً. فسرعان ما سيصبح البرد لا يُحتمل، وعليهما متابعة المسير، لكنها شعرت بالحاجة إلى قضاء بضع دقائق إلى جانبه، سارحة في الغيوم والسماء، ومصغية إلى صوت هدير البحر.

أمكن بريدا أن تشمّ هواءً بحرياً، وتشعر بطعم الملح في فمها. اتكأت بوجهها على سترة لورنس علّها تستمد منه بعض الدفء، وتبث في روحها بعضاً من حرارته. إنها لحظة امتلاء عظمى. وحواسها الخمس كلها تعمل.

نعم، حواسها الخمس تعمل بطاقتها كلها.

فكرت لبرهة في المجوسي ثم كفّت. فكل ما تهتم به الآن، هو تلك الحواس الخمس التي يجب أن تستمر في العمل. إنها اللحظة المناسبة.

- أحتاج إلى الحديث معك، يا لورنس.

تمتم لورنس شيئاً لم تدرك كنهه، ولا مغزاه، لكنه شعر بالخوف في قلبه. أدرك، وهو يوزع نظراته بين الغيوم فوق، أو الهوّة

تحت، أن تلك المرأة هي أهم شيء في حياته، وسر امتلائها الآن، وأنها التفسير، والسبب الوحيد لوجود تلك الصخور، وتلك السماء، وذلك الشتاء. وما همّ، لو أنها لم تكن معه هنا، ولو أن جميع ملائكة السماء هبطت لتواسيه، لأن الجنة ستصبح بلا معنى.

قالت بريدا بلطف، «أريد أن أقول لكَ إنني أحبك، لأنك أظهرت لي بهجة الحب».

شعرت بالامتلاء والاكتمال، كما لو أن المنظر الطبيعي كله يتغلغل في روحها. أخذ يداعب شعرها. باتت متأكدة من أنها، إذا ركبت المجازفة، فستختبر الحب كما لم تختبره من قبل.

قبّلته بريدا. شعرت بطعم فمه، وبملمس لسانه. كانت على دراية بكل حركة يقومان بها، وأحسّت بأنه يشعر بالشيء ذاته تماماً، لأن حكمة الشمس تكشف عن نفسها دوماً لمن ينظرون إلى العالم كما لو أنهم يرونه للمرة الأولى.

- أريد أن أمارس الحب معك يا لورنس، هنا بالذات.

مرّت أمور مختلفة سريعاً في ذهنه: إنهما في مكان عام، وقد يمر أحد بهما، وقد يراهما شخص آخر فيه ما يكفي من الجنون لزيارة هذا المكان في عزّ الشتاء. لكن من هو على مس كاف من الجنون سوف يفهم أيضاً أنه لا يستطيع إيقاف بعض القوى ما إن يتم تحريكها.

دس يده تحت كنزتها وداعب نهديها. سلّمت بريدا نفسها بالكامل. ولجت قوى العالم حواسها الخمس التي أخذت في التحول إلى طاقة ساحقة. تمددا على الأرض بين الصخور، بين الهوة والبحر، بين حياة طيور النورس المحلّقة من فوق وموت الصخور من تحت. وشرعا، من دون خوف، في ممارسة الحب لأن الله يحمي الأطهار.

لم يعودا يشعران بالبرد. دماؤهما تنساب بسرعة في عروقهما إلى حد أنها انتزعت بعضاً من ثيابها، وكذلك فعل هو. اختفى أي ألم، شُدَّت الركبتان والظهر إلى الأرض الصخرية، وقد أصبح ذلك جزءاً من لذتهما، ومكمّلاً لها. عرفت بريدا أنها على مشارف هزّة الجماع، لكنه لا يزال شعوراً بعيداً جداً لأنها ما زالت مرتبطة بالكامل بالعالم: امتزج جسدها وجسد لورنس بالبحر والصخور، بالحياة والموت. بقيت لما أمكن من الوقت في تلك الحالة، بينما بعضٌ منها يعي على نحو غير واضح أنها تقوم بأمر لم يسبق لها أن مارسته من قبل. ما تشعر به الآن، هو إعادة لمّ شتات نفسها مرة أخرى، ومعنى الحياة. إنها عودة إلى جنة عدن. إنها اللحظة التي أعاد فيها آدم استيعاب حوّاء في جسده، ليستعيد النصفان عملية الخلق الأولى.

فقدت في النهاية السيطرة على العالم من حولها، وبدا أن حواسها الخمس أفلتت من عقالها وهي لا تتمتع بما يكفي من القوة للإمساك بها. أطلقتها، كمن أصيب بصاعقة مقدسة، واختفى العالم، وطيور النورس، وطعم الملح، والأرض الصلبة، ورائحة البحر، والغيوم، وظهر مكانها ضوء ذهبي كبير أخذ يكبر فيكبر إلى أن لامس أبعد نجم في المجرة.

عادت من تلك الحالة بالتدريج، وعاد البحر والغيوم إلى الظهور، لكن كل شيء امتلأ بإحساس عميق من السلام، سلام كونٍ أصبح، ولو للحظات، قابلاً للتفسير، لأنها في مناجاة مع العالم. اكتشفت جسراً آخر يجمع بين العالمين المنظور واللامنظور، ولن تنسى بعد الآن أبداً الطريق ألتي أوصلتها إليه.

اتصلت بويكا هاتفياً في اليوم التالي وأخبرتها بما حدث. لبرهة لم تقل ويكا شيئاً.

ثم نطقت أخيراً، «تهانيّ، لقد قمت بالأمر».

شرحت لها أن قوة الجنس ستدخل من الآن فصاعداً تغييرات عميقة في الطريقة التي ترى فيها العالم وتختبره.

- ها أنت جاهزة الآن لاحتفال الاعتدال. يبقى أمر واحد فقط.

- أمر واحد آخر؟ لكنك قلتِ إن هذا هو الأمر فحسب.

- إنه على درجة كبيرة من السهولة. عليك فقط أن تحلمي بالثوب الذي سترتدينه في ذلك اليوم.

- وماذا لو لم أستطع.

- ستفعلين. فقد أنجزت الجزء الأكثر صعوبة.

غيّرت عندها الموضوع، على جري عادتها. أبلغت بريدا أنها اشترت سيارة جديدة، وتحتاج إلى التسوّق، فهل ترغب في الذهاب معها؟

أشعرت الدعوة بريدا بالاعتزاز، وسألت المسؤول عنها إذا كان في وسعها مغادرة العمل باكراً. إنها المرّة الأولى التي تُظهر لها ويكا فيها نوعاً من المودّة، ولو تعلّق الأمر بدعوتها إلى الانضمام إليها في

رحلة تسوّق. عرفت أن كثراً من تلامذة ويكا الآخرين يودّون لو أنهم مكانها.

قد تكون فترة بعد الظهر هذه ستتيح لها الفرصة كي تُظهر لويكا كم أنها مهمة لها، وكم تتحرق لتصبح صديقتها. يصعب على بريدا الفصل بين الصداقة والبحث الروحي، وقد خُرجت لأن معلّمتها لم تُبدِ قط، حتى الآن، أدنى اهتمام بحياتها الخاصة. لم يذهب الحديث بينهما قط إلى ما هو أبعد مما تحتاج بريدا إلى معرفته، لتتمكن من العمل من خلال حكمة القمر.

انتظرت ويكا، في الساعة المحدّدة، داخل سيّارة أمزجي، مكشوفة حمراء، وقد رفعت سقفها. سيّارة كلاسيكية بريطانية، محفوظة في شكل جيّد، هيكلها لمّاع، ولوحة أجهزة القياس الخشبية فيها مصقولة. لم تجرؤ بريدا حتى على المخاطرة في تخمين كم قد يبلغ ثمنها. أفزعتها بعض الشيء فكرة أن تمتلك ساحرة مثل هذه السيارة الباهظة الثمن، وهي التي سمعت في طفولتها، قبل أن تعرف أي شيء عن حكمة القمر، جميع أنواع الحكايات عن ساحرات يرتبطن بعهود مريعة مع الشيطان لقاء المال والسلطة.

سألت وهي تدلف إلى الداخل، «ألا تُشعر القيادة، عندما يكون سقف السيارة مكشوفاً، بالبرد بعض الشيء؟».

أجابت ويكا، «لا يمكنني أن أنتظر حتى الصيف. لا أستطيع لأنني، منذ زمن بعيد، أتحرّق شوقاً إلى الذهاب في رحلة كهذه».

ذلك جيّد. فهي، أقلّه في هذا، تحسُّ بأنها تشبه أي شخص طبيعي آخر.

جالتا عبر الشوارع، ونالتا نظرات الإعجاب من مارة أكبر سنّاً، وبعض صافرات الإعجاب والثناء من الرجال.

قالت ويكا، «إن قلقك من عدم قدرتك على الحلم بالثوب هو علامة جيّدة». لكن بريدا كانت قد نسيت أمر حديثهما الهاتفي.

- لا تتخلي أبداً عن الشكّ، لأنك تتوقّفين بذلك عن المضي قدماً، فيتدخّل الله عند هذا الحدّ ويسحب البساط من تحت قدميك، وهي طريقته في السيطرة على مختاريه ليتأكّد من أنهم سيتبعون دوماً، حتى النهاية، طريقهم المحدّدة. وهو يجبرنا على المضيّ إذا لم نعد لأي سبب كان، نرضى بأن نقع فريسة أوهامنا، ونحن نعتقد مخطئين، بأننا نحوز ما يكفي من المعرفة، أو أن نطمئن إلى أن ذلك سوف يحدث.

«بيد أن عليك أن تحترسي من أن تدعي الشكّ يشلّك. اتخذي دوماً القرار الذي تحتاجين إلى اتخاذه إليه، ولو أنك غير متأكدة من قيامك بالصواب. لن تخطئي أبداً إذا أبقيت في ذهنك، لدى اتخاذك قراراً ما، مثلاً ألمانياً قديماً تبنّته حكمة القمر: «الشيطان يسكن في التفاصيل». تذكّري هذا المثل، وستتمكنين دوماً من تحويل القرار الخاطئ إلى رأي سديد».

توقّفت ويكا فجأة خارج مرأب.

وقالت، «ثمة أيضاً تطيّر مرتبط بهذا المثل. هو لا يهبّ لنجدتنا إلا عندما نحتاج إليها. فأنا قد ابتعت للتو هذه السيارة، والشيطان موجود في التفاصيل».

ترجّلت من السيارة فور توجُّه الميكانيكي صوبها.

«هل الغطاء مكسور يا سيدتي؟».

لم تتكلف ويكا عناء الجواب طلبت إليه أن يفحص السيارة، في حين جلست السيدتان في مقهى عند الطريق وتناولتا الشوكولاتة الساخنة.

«راقبي ما يفعله الميكانيكي»، قالت ويكا وهي تنظر صوب المرأب. فتح غطاء السيارة، ووقف يحدّق إلى المحرك دون أن يأتي ولو بحركة واحدة.

«إنه لا يلمس أي شيء. ينظر فقط. يقوم بهذا العمل منذ سنوات، ويعرف أن السيّارة تتحدّث معه بلغة خاصة. تصوَّري أن حدسه هو الذي يعمل الآن. وليس عقله».

توجّه الميكانيكي فجأة، إلى قطعة محددة في المحرك، وشرع يعمل عليها.

فتابعت ويكا: «لقد وجد العلّة. لم يُضع أي وقت سُدىً، لأن ثمة تواصل تام بينه وبين السيارة. فكل ميكانيكي جيّد تعرّفت إليه، يعمل على هذا المنوال».

«كذلك الميكانيكيون الذين عرفتهم»، فكّرت بريدا، لكنها افترضت دوماً أنهم يتصرفون على هذا النحو، لأنهم لا يعرفون من أين يبدأون. لم تلاحظ قط أنهم يشرعون دوماً في المكان الصحيح.

«لماذا لا يحاولون فهم مسائل الكون الأساسية لو أن في حياتهم حكمة الشمس؟ لماذا يفضّلون إصلاح السيارات، أو العمل في حانات يقدمون فيها القهوة؟»

«وما الذي يجعلك تعتقدين أننا، بتكرُّسنا هكذا للسحر، نفهم العالم أفضل من الآخرين؟

«لديّ كثر من التلاميذ، وجميعهم أشخاص عاديون بامتياز.

يبكون في السينما، ويقلقون لتأخر أولادهم في العودة إلى المنزل، برغم أنهم يعرفون أن الموت ليس النهاية. ليست ممارسة السحر إلا طريقة للتقرّب من الحكمة المطلقة، وسيقودك كل ما تفعلينه إلى هناك ما دمتِ تعملين بقلب مفعم بالحب. في استطاعتنا، نحن الساحرات، أن نخاطب روح العالم، وأن نرى علامة النور فوق الكتف اليسرى لتوأم روحنا، ونتأمل اللامنتهى من خلال توهج شمعة وصمتها، لكننا لا نفهم أمراً واحداً، أيا يكن بسيطاً، في محركات السيارات. هل لك أن تتخيلي ذلك. ولسنا وحدنا. كذلك الميكانيكيون أيضاً يحتاجون إلينا بالقدر الذي نحتاج إليهم به. يجدون جسرهم المفضي إلى العالم الخفي في محرّك سيارة، بينما نعثر عليه نحن في حكمة القمر، لكن الجسر يربطنا في النهاية بالعالم اللامنظور ذاته.

«أدّي دورك، ولا تقلقي في شأن ما يفعله الآخرون. آمني بأن الله يحدّثهم، وأنهم منخرطون، بقدركِ، في اكتشاف مغزى الحياة».

عادتا إلى المرأب. الميكانيكي يقف متباهياً بأنه كشف سرّ عطل السيارة. أخبرهما أن أنبوباً واحداً في محركها كان على وشك الانفجار، ولو انفجر، لورطهما حينها في مشاكل خطيرة لا أول لها ولا آخر.

ماحكتْه ويكا بعض الشيء في شأن أجرته، لكنها فرحت كثيراً لأنها تذكّرت المَثَل.

ذهبتا إلى أحد شوارع التسوق الرئيسية في دبلن. صدف أنه موقع المتجر الذي كان على بريدا أن تتخيله كجزء من أحد التمارين. كانت ويكا، كلما تطرقت المحادثة إلى المواضيع الشخصية، تردّ بغموض أو بمراوغة، لكنها تخوض نقاشاً لا ينتهي بتوقّدِ قريحة في شأن مسائل تافهة كالأسعار، والثياب، وفظاظة بائعي المتاجر. وقد ابتاعت كل ما اشترته بعد ظهر ذلك اليوم عن تحذلق وحسن ذوق.

علمت بريدا أن ليس من اللائق سؤال إحداهن عن مصدر مالها، لكن فضولها بلغ حداً كادت تنتهك معه قاعدة التهذيب الأساسية تلك. انتهى بهما المطاف أخيراً في مطعم ياباني، وأمامهما طبق من «الساشيمي».

قالت ويكا «فليبارك الله طعامنا. جميعنا بحّارة في يمٍّ مجهول، وليهبنا الرب ما يكفي من الشجاعة لقبول هذا اللغز».

أجابتها بريدا، «لكنك معلّمة حكمة القمر، ولا بد من أنك تعرفين الأجوبة».

استغرقت ويكا في التفكير للحظة، وهي تحدّق إلى الطعام. ثم قالت:

«أعرف كيفية السفر والتنقّل بين الحاضر والماضي. أعرف عالم الأرواح، وقد ناجيت قوى بلغت درجة كبيرة من الغرابة، بحيث لا

توجد كلمات في أي لغة لوصفها. وربّما استطعت القول إنني أمتلك المعرفة الصامتة للرحلة التي جاءت بالجنس البشري إلى حيث هو الآن.

«لكنني، بسبب معرفتي هذا كله، ولأنني معلّمة، أعلم أيضاً بأننا لن ندرك أبداً الغاية من وجودنا. قد نعرف كيف وُجدنا هنا، وأين، ومتى، لكن ستبقى الـ «لماذا» المحيّرة، دوماً سؤالاً بلا جواب. وحده بارئ الكون الأعظم ومهندسه يعرف هدفه الرئيسي، ولا أحد سواه».

ساد حينها للحظات صمت مهيب، عادت ويكا لتقطع «قدسيته»:

«الآن بالذات، ونحن نتناول الطعام، يكافح 99 في المئة من سكان هذا الكوكب، بطريقتهم الخاصة، مع هذا السؤال المحيّر بالذات: ما هي علّة وجودنا؟ ويعتقد كثر منهم أنهم وجدوا الجواب في الدين، أو في المادية. وييأس غيرهم ويصرفون حياتهم ومالهم في محاولة للإحاطة بمعنى ذلك كلّه. قلة فقط تترك السؤال يمضي في حال سبيله، بلا جواب، وهي تعيش للحظتها ولا يعنيها من حياتها أكثر من ذلك، بغض النظر عن النتائج والانعكاسات.

«وحدهم الشجعان والذين يعلمون بحكمتَي الشمس والقمر، يدركون أن الإجابة الوحيدة الممكنة، هي: لا أعرف.

«قد يبدو الأمر، من باب أولى، مهولاً، ويدعنا مهدّدين على نحو خطير، في تعاطينا مع العالم وأموره، ومع فهمنا الخاص لوجودنا. لكننا ما إن نتجاوز خوفنا الأول، حتى نتعوّد تدريجاً الحل الوحيد الممكن، فنسعى خلف أحلامنا. والطريقة الوحيدة لإظهار أننا

مؤمنون، ونترك قدَرنا بين يدي الله، هي في امتلاك شجاعة اتخاذ الخطوات التي طالما أردنا اتخاذها.

،وسوف تتخذ الحياة معنى مقدّساً حين نقبل هذا، ونختبر الانفعال ذاته الذي لا بد من أن العذراء قد مرَّت به بعد ،ظهر يوم كان فيه عادياً تراءى لها غريب وقدّم إليها عرضاً. وقالت العذراء حينها ،ليكن لي بحسب قوله،، لأنها أدركت أن قبول ،اللغز هو أعظم ما يمكن الكائن البشري فعله،.

عاودت ويكا، بعد صمت طويل، الإمساك بسكينها. وغرزتها في صحنها، واستأنفت تناول الطعام. تطلّعت إليها بريدا وهي تشعر بالفخر لأنها إلى جانبها. لم يعد يزعجها السؤال الذي لن تطلرحه أبدا حول مصدر أموالها، أم إذا كانت تحب شخصاً ما، أو تغار من آخر. فكّرت في عظمة أرواح الحكماء الحقيقيين الذين أمضوا حيواتهم كلّها يبحثون عن جواب غير موجود، ولم يسقطوا في إغراء اختراع أي إجابة يدركون أن لا وجود لها البتة. بل واصلوا، بدلا من ذلك، العيش بتواضع في كون لن يفهموه أبداً. وهم لن يتمكنوا من المشاركة إلا بطريقة وحيدة، هي اتباع ،رغباتهم الخاصة، وأحلامهم، لأنها ما يجعل البشر يصبحون أداة في يد الله.

- ما الجدوى، إذاً، من البحث عن جواب؟.

- نحن لا نبحث عنه، بل نصدّق، وعندها تزداد الحياة حدّة وتألقاً، لأننا نؤمن بأن كل دقيقة تمرّ، وكل خطوة نخطوها، تحملان معنى يذهب إلى ما هو أبعد منّا نحن كأفراد. ندرك أن لهذا السؤال جواباً في مكان، وقد يُكشف اللثام عنه في زمن، قد يكون بعيداً. ونعرف أن ثمة سبباً لوجودنا هنا، وهذا كافٍ لنا.

،ننغمس في ،ليل الظلمة، بإيمان، وننجز ما تعوّد الخيميائيون

القدامى أن يسموه ،أسطورتنا الشخصية،، ونسلّم أنفسنا بكلّيتها إلى كل لحظة، عارفين أن ثمة يداً ترشدنا دائماً، وأن الأمر متوقف بكليته علينا، أقبلنا بذلك أم عاندنا،.

أمضت بريدا ساعات، في تلك الليلة، تستمع إلى الموسيقا، وهي مأخوذة كلّياً بمعجزة أنها حيّة. فكّرت في أدبائها المفضّلين. وكان أحدهم - الشاعر الإنكليزي وليام بليك - قد زودها بجملة واحدة، فيها ما يكفي من الإيمان للمضي قدماً في البحث عن الحكمة.

ما هو مُثْبَت الآن، لم يكن سوى مجرّد تخيّل في ما مضى.

حان وقت ممارسة إحدى شعائرها. وهي ستمضي الدقائق القليلة المقبلة تتأمل لهب إحدى الشموع، وقد جلست، للقيام بذلك، قبالة المذبح الصغير. عادت بها طقوس التأمل إلى بعد ظهر اليوم الذي مارست فيه ولورنس الحب بين الصخور، عندما حلّقت طيور النورس عالياً، وبلغت حدّ الغيوم، ورفرفت على علو منخفض بأجنحتها، وهامت نشوتها التي مسّت كيانها وروحها أيضاً... ولامست معاً أمواج البحر.

ربما سأل السمك ذاته كيف استطاعت هذه الكائنات الغامضة الطيران، وهي التي غارت إلى عالمه، ثم غادرت بالسرعة ذاتها التي دخلت بها.

ولربما تساءلت الطيور أيضاً كيف لهذه الكائنات، التي تعتاش منها وتعيش تحت الموج، أن تتنفّس في الماء.

الطيور موجودة، والأسماك تشاركها في نعمة الوجود أيضاً، وقد تصطدم عوالمها أحياناً، لكن لا يمكنها أن تجيب بعضها عن أسئلة بعض ولكل منها، برغم ذلك، أسئلته الخاصة التي لا تنفك عن التوالد والتي لا ينتهي البحث عن أجوبة لها.

نظرت بريدا إلى الشعلة أمامها، وشرع مناخ سحري بالانتشار من حولها. هذا ما يحدث في العادة، لكن الشعور في تلك الليلة كان أكثر حدّة.

إذا أمكنها أن تطرح سؤالاً، فلأن له جواباً في كون آخر، قد يعرفه أحدهم ولو لم تفك أسراره هي. لا تحتاج إلى فهم الحياة، بل يكفي العثور على من يفعل ذلك، والنوم من ثم بين ذراعيه والإغفاء كطفل. وهي تعرف أنه يوجد من هو أكثر قوّة منها، يحميها من كل شرّ، ويدرأ عنها كلّ خطر.

تلت، بانتهائها من الشعائر، صلاة عرفان صغيرة للخطوات التي اتخذتها حتى الآن. والشكر أقل الواجب الذي يمكن أن تقدم طقوسه، لأن الشخص الأول الذي سألته عن السحر لم يحاول أن يشرح لها الكون، بل جعلها، عوضاً عن ذلك، تقضي الليل بطوله في غابة مظلمة.

تحتاج الآن إلى الذهاب إليه لتشكره على كل ما علّمها إياه.

كانت، في كلّ مرة تشق فيها طريقها بحثاً عنه، تفتّش عن شيء، وتكتفي، بعثورها عليه، بالمغادرة دون كلمة وداع. وقد أرشدها، برغم ذلك، إلى الباب الذي تأمل أن تعبر من خلاله إلى الاعتدال المقبل. وعليها، أقلّه، أن تقول له «شكراً».

لا، لا تخشى الوقوع في حبّه. فقد قرأت في عيني لورنس أموراً

عن الجانب الخفي والغامض لروحها، واتضحت لها الأمور تماماً في ما يتعلّق بحبّه من القوة التي راودتها في الشكوك حول إمكانها الحلم بثوب.

قالت للمجوسي وهما يهمّان بالجلوس، «شكراً لقبولك دعوتي». ها هما في الحانة الوحيدة في القرية، المكان الذي لاحظت فيه للمرة الأولى النور الغريب في عينيه.

لم يتفوّه المجوسي بحرف ظل هائماً في صمته. لاحظ أن طاقتها مختلفة كثيراً. من الواضح أنها استطاعت إيقاظ القوّة داخلها.

«في الليلة التي تركتني فيها وحدي في الغابة، أخذت على نفسي عهداً بالعودة، إما لأشكرك، وإما لأمطرك بلعناتي. أقسمت أن أعود حين أجد طريقي. لكنني لم أفِ بأي من عهديَّ. جئتك دوماً بحثاً عن المساعدة، ولم تخذلني قط. قد يبدو الأمر غروراً منّي، لكنني أريدك أن تعرف أنك تصرّفت كأداة في يد الله، وأرغب في تكون ضيفي الليلة».

أوشكت على طلب كأسين من الويسكي، لكنه نهض ومضى إلى البار وعاد حاملاً زجاجة نبيذ وعبوة مياه معدنية، وكأسين.

قال: «عندما يلتقي شخصان لاحتساء الشراب في بلاد فارس القديمة، يتم اختيار أحدهما «ملك الليل»، وهو في العادة الشخص الذي سيدفع».

لم يعرف إذا كان صوته قد بدا مستقرّاً كفاية. فهو رجل واقع في الحب، وطاقة بريدا تغيّرت.

وضع النبيذ والمياه المعدنية أمامها.

- يتوقف على «ملك الليل» أن يحدد نبرة المحادثة. فإذا سكب في كأس الشراب الأول ماء أكثر من النبيذ، فيعني هذا أنه يرغب في التحدث في أمور جدية. أما إذا سكب كمية متعادلة من الاثنين، فسيتحدثان في أمور جدية وممتعة معاً. وإذا ملأ الكأس نبيذاً ولم يضف إليه سوى نقاط قليلة من الماء، فستكون الليلة ساخنة وممتعة.

ملأت بريدا الكأسين حتى طفحتا بالنبيذ، ولم تضف إليهما سوى قطرات قليلة من الماء.

وكررت القول، «جئت لأشكرك لأنك علمتني أن الحياة فعل إيمان، وأنني جديرة بالبحث، وقد ألهمني ذلك كثيراً في الاهتداء إلى الطريق التي اخترتها».

أفرغ كلاهما سريعاً كأسه الأولى. شعر هو بالتوتر، وهي راودتها حالة جارفة من الاسترخاء.

قالت بريدا، «مواضيع خفيفة فقط، أليس كذلك؟».

قال المجوسي إنه يعود إليها، لكونها «ملكة الليل»، أن تقرر ما الذي سيتحدثان عنه.

- أريد أن أعرف بعض الشيء عن حياتكَ الشخصية، وإذا كنت قد أقمت يوماً أي علاقة غرامية مع ويكا.

هزّ برأسه إيجاباً. شعرت بريدا برعشة من الغيرة لا تفسير لها، ولم تتأكد إذا كانت منه، أم من ويكا.

قال «لكننا لم نفكّر قط في العيش معاً». فكلاهما على معرفة بالحكمتين، وكلاهما يعرف أنه ليس توأم روح الآخر.

فكّرت بريدا في سرها «لم أرد أن أتعلّم كيفية رؤية هالة النور». لكنها عرفت الآن أن لا مفرّ لها من ذلك. هذا ما هو عليه الحب بين السحرة.

شربت المزيد. وها إنها تقترب أكثر من هدفها، لم يعد الوقت الباقي على الاعتدال الربيعي طويلاً، وبات في وسعها أن تسترخي. مر زمن بعيد منذ أن سمحت لنفسها بأن تشرب أكثر مما ينبغي، لكن كل ما عليها فعله الآن هو أن تحلم بثوب.

واصلا الحديث والشرب. شاءت بريدا العودة إلى ويكا، لكنها أرادته أيضاً أن يصبح أكثر استرخاء. أبقت على كأسيهما مليئتين فأنهيا الزجاجة الأولى وسط حديث عن صعوبات العيش في مثل هذه القرية الصغيرة حيث يربط السكان المحليون بين المجوسي والشيطان.

سُرّت بريدا لشعورها بأنها تحظى باهتمامه. لا بد من أنه مستوحش كثيراً. ربما لم يوجه إليه أحد في القرية أكثر من بضع كلمات مهذّبة. فتحا زجاجة أخرى. دُهشت لرؤية مجوسي يقضي النهار بطوله في الغابة سعياً إلى مناجاة الله، ويغرم أيضاً بالشرب والسكر، ويبدع في ارتشاف كؤوسهما.

نسيت، مع إنهائهما الزجاجة الثانية، أنها هنا لشكر الرجل الجالس قبالتها. هي تدرك الآن أن علاقتها به شكّلت دائماً نوعاً من التحدّي المقنّع. لم تشأ أن تتصوره إنساناً عادياً، وها إنها تقترب على نحو خطير من القيام بذلك. وهي تفضّل صورة الرجل الحكيم الذي قادها إلى كوخ في أعالي الأشجار، ويمضي معظم وقته يتأمل مغيب الشمس.

شرعت في الحديث عن ويكا لتكتشف ردّ فعله. تحدّثت عنها

كمعلّمة ممتازة لقّنتها جميع ما تحتاج إلى معرفته حتى الآن، لكنها فعلت ذلك بطريقة حذقة جعلتها تبدو كأنها كانت تعرف الأمور التي تتعلمها.

قال المجوسي: «لكنك تعرفينها. إنها حكمة الشمس».

فكّرت بريدا: «إنه لن يعترف بويكا كمعلّمة جيّدة». وشربت كأساً أخرى من النبيذ، وواصلت الحديث عن معلمتها، فلم يُدل المجوسي بالمزيد من التعليق.

قالت: «أخبرني عن علاقتك بها»، لترى إذا كان في وسعها استفزازه. لم تشأ أن تعرف. لم ترد في الحقيقة أن تسبر مشاعره تجاهها، إلا أنها الطريقة الفضلى ليُصدر رد فعل.

«إنها مسألة حب في عمر الشباب. كنّا جزءاً من جيل لم يعرف أي حدود: جيل البيتلز والرولينغ ستونز».

فوجئت لسماعها هذا. فالنبيذ يصيبها بالتوتّر أكثر مما يجعلها تسترخي. وهي لا تزال تريد طرح تلك الأسئلة، لكنها تدرك الآن أنها غير سعيدة بالأجوبة.

تابع، وهو غير مدرك أحاسيسها: «في ذلك الوقت التقينا. كان كل منا يسعى إلى طريقه، وحدث أن تلاقت طريقانا لما قصدنا المعلّم نفسه. تعلّمنا معاً حكمتَي الشمس والقمر، وأصبح كلّ منا معلّماً على طريقته».

قررت بريدا متابعة الموضوع. بمقدور زجاجتين من النبيذ أن تجعلا غريبين تماماً يشعران كأنهما صديقان من أيام الطفولة، فالنبيذ يمدّ الناس بالشجاعة.

- لماذا افترقتما؟

جاء دور المجوسي لطلب زجاجة أخرى. لاحظت هذا، وازداد توتّرها. لن تحتمل أن تكتشف أنه لا يزال واقعاً في حب ويكا.

- افترقنا عندما تعلّمنا عن توائم الروح.

- هل كنتما لتبقيا معاً لو أنك لم تعرف في شأن هالات النور تلك، أو ذلك الضوء الخاص في عيني توأم روحك؟

- لا أدري. كل ما أعرفه أننا لو بقينا لما نجح الأمر. فنحن لا نفهم الحياة والكون، إلا عندما نعثر على توأم روحنا.

توقّفت بريدا للحظة، وقد أعياها الكلام، وحان دور المجوسي ليتولى الحديث.

أخذ رشفة من نبيذ تلك الزجاجة الثالثة، وقال بعدها: «لنذهب. أحتاج إلى الشعور بالريح والهواء البارد يلفح وجهي».

كان واضحاً أن السكر قد أخذ منه، وصار معه، على غير عادته، خائفاً. شعرت بالفخر بنفسها، فها هي تستطيع أن تتحمّل مفعول الشراب وتقاوم سكره، أفضل مما يمكنه، وهي ليست خائفة من فقدان السيطرة على روحها. لقد خرجت في تلك الليلة، وفي نيتها إمتاع نفسها، ولا يبدو أن شيئاً يمكن أن يقف في وجهها.

- قليلاً بعد. فأنا في النهاية «ملكة الليل».

تناول المجوسي كأساً أخرى، لكنه عرف أنه قد تجاوز حدوده، وقد يأخذه السكر إلى متاهات هو في غنى عنها.

قالت بتحدّ: «لم تسألني شيئاً عن نفسي. ألست فضولياً؟ أم أنك تستطيع استخدام قوى ما لترى مباشرة من خلالي؟».

شعرت لبرهة بأنها ذهبت بعيداً جدّاً، لكن ما لبثت أن أبعدت

تلك الفكرة، لا لشيء، إلا لأنها لاحظت تبدّلا في عيني المجوسي. ففيهما الآن نور مختلف كلّياً. بدا كأن شيئاً قد تبلور في بريدا. شعرت كأن جداراً قد انهدم، وكل شيء سيصبح من الآن مسموحاً. تذكّرت المرة الأخيرة التي التقيا فيها، ورغبتها في البقاء معه، وبرودته هو. وها هي تدرك أنها لم تأت إلى هنا في هذه الليلة لتشكره، بل بحثاً عن الانتقام: لتقول له إنها اكتشفت القوة مع رجل آخر... تحبه.

وتساءلت: «ولمَ أحتاج إلى الانتقام؟ لمَ أنا غاضبة منه؟». لكن، لم يسمح لها النبيذ بالإجابة عن هذين السؤالين... وارواء غليلها.

أخذ المجوسي ينظر إلى الشابة قبالته، واستمرت الرغبة في إظهار قوّته تراود ذهنه. في ليلة كهذه، منذ سنوات بعيدة، تبدّلت حياته كلّها. ربّما حدث ذلك في زمن البيتلز والرولينغ ستونز، لكن من المعروف أنه يوجد دوماً أناس في الجوار يبحثون عن قوى مجهولة، حتى لو لم يؤمنوا بها. استخدموا قوى سحرية، ظنّاً منهم أنهم أشد قوة من القوى ذاتها، واقتنعوا بأن في وسعهم التخلّي عن الحكمة حين يحل بهم سلطان السأم. وكان هو أيضاً واحداً من هؤلاء الناس. دخل العالم المقدّس من خلال حكمة القمر، فتعلّم الشعائر، عبر الجزء الذي يربط العالمين المنظور واللامنظور.

تخبّط في البداية في لجّة هذه القوى وحده، وهو يتعلّم من الكتب من دون مساعدة أحد. ثم التقى معلمه الذي أبلغه، في لقائهما الأول، أن من الأفضل له أن يتعلّم من خلال حكمة الشمس. لكن المجوسي لم يرد ذلك. فحكمة القمر أكثر إثارة للاهتمام، وتتضمن ممارسة شعائر قديمة وتعلّم حكمة الزمن. وهكذا، لقّنه معلّمه حكمة القمر، قائلاً إن هذه الطريق قد تقوده في مآل الأمر إلى حكمة الشمس.

كان، في ذلك الوقت، واثقاً تماماً بنفسه وبالحياة وبفتوحاته. أمامه مستقبل مهني واعد ومتألق، وقد قرر استخدام حكمة القمر لتحقيق مآربه. فمهمته التي نذر نفسه لها ليست سهلة، لكنه قرر

خوض مجازفتها. وتطلبت منه ممارسة السحر أن يصبح في البداية معلّماً، وألا ينتهك أبداً الحدود الوحيدة المفروضة على جميع معلّمي حكمة القمر، وهي: عدم التدخل في الإرادة الحرّة لإنسان آخر. يمكنه، باستخدام معرفته السحرية، شق طريقه الخاصة في العالم، لكن لا يستطيع التخلّص من شخص ما، لا لسبب، إلا لأنه يعترض طريقه. كما لا يستطيع إجباره على اتباع طريقته. ذلك كان المحظور الوحيد، والشجرة الوحيدة في جنة عالم السحر الخالدة، التي يُحظر عليه تناول ثمارها.

جرى كل شيء على ما يرام إلى أن وقع في هوى واحدة من تلميذات معلّمه الأخريات، وهي هامت على وجهها في غرامه. عرف كلاهما الحكمتين. علم بأنه ليس رجلها، وعرفت أنها ليست امرأته. واستسلما برغم ذلك لحبهما، تاركين للحياة أن تفرّق بينهما عندما يحين الوقت. لم يخفف هذا من عشقهما، بل جعلهما يعيشان كلّ لحظة كما لو أنها الأخيرة لهما، وأذكى الحب بينهما كلّ توقّد للأمور التي تتخذ صفة الأبدية، لا لسبب إلا لأنهما سيموتان.

ثم إنها، في يوم من الأيام، التقت رجلاً آخر، لم يعرف شيئاً عن الحكمتين، كما لم يمتلك الهالة التي كانت تشع فوق كتفه اليسرى، ولا الضوء الخاص في عينيه الذي يكشف عن أن الشخص الآخر هو توأم الروح. لكن الحب لا يحترم الأسباب، وهي وقعت في العشق، وهي رأت أن وقتها مع المجوسي قد بلغ نهايته.

تخاصما وتقاتلا، توسل وارتجى. عرض نفسه لجميع الإذلالات المعتادة التي يعانيها الهائمون في الحب. تعلّم الأمل والخوف والقبول. وهي أمور لم يحلم قط بأنه سيتعلمها. قال مجادلاً، «إنه لا يحمل هالة النور فوق كتفه اليسرى، قلتِ لي ذلك بنفسك». لكنها لم

تبالِ، لأنها أرادت، قبل أن تلتقي أخيراً توأم روحها، أن تعرف رجالاً آخرين... أن تختبر العالم.

فرض المجوسي حدّاً لألمه، حين يبلغه حتى ينسى كل شيء يتعلّق بها. بلغ، لسبب لم يعد يذكره، هذا الحد، لكنه اكتشف بدلاً من نسيانها، أن معلّمه على حق. فالانفعالات أشبه بالأحصنة الجامحة، تحتاج إلى الحكمة للتمكن من السيطرة عليها، ولجمها كان هواه أقوى من سني دراسته لحكمة القمر، وأمضى من جميع تقنيات السيطرة على الذهن التي تعلّمها، ومن الانتظام المتشدد الذي كان عليه الانصياع له للوصول إلى ما وصل إليه. لكن الهوى - تلك القوة العمياء، التي تقودنا وتوسوس لنا - ظلّ يهمس في أذنه ويناجي روحه، باللّين حيناً وبالشدة أحياناً، وينهاه عن أن يخسر تلك المرأة.

لم يكن يملك شيئاً ضدها، فهي مثله معلّمة، وقد اكتسبت براعتها في مهنتها هذه عبر تجسُّدات متعدّدة، امتلأ بعضها بالشهرة والمجد، وطُبع بعضها الآخر بالنار والألم. وهي ستعرف كيف تدافع عن نفسها.

لكنهما ليسا وحدهما في معمعة العشق هذه. ثمة طرف ثالث يسكن معهما في دوامته، ومنخرط حتى أذنيه في هذا الصراع المحتدم. رجل علق في شبكة القدر الغامضة، وهي شديدة الالتباس، بحيث لا قدرة للمجوس أو للساحرات على فهمها. رجل عادي، يحب المرأة ربما بقدر حب المجوسي لها، ويريد لها السعادة، ولا يتوانى عن القيام بأي شيء، مهما يكن، من أجلها. رجل عادي رمته الأقدار الغامضة في خضم هذه المعركة بين رجل وامرأة يعرفان حكمة القمر.

لم يعد في وسع المجوسي أن يتحمل الألم، فأكل في ليلة من

الليالي من الثمرة المحرّمة. استخدم القوة والمعرفة اللتين تعلّمهما من حكمة الزمن، وأبعد ذلك الرجل عن المرأة التي أحب.

هو لا يعرف حتى هذا اليوم، إن كان قد اكتشف الأمر، أم لا، لكن المرجّح أنها تعبت من امتلاكها لهذا القلب، ولم تمانع كثيراً في التخلي عنه. لكن معلّمه عرف. فلطالما سبر أغوار كل شيء، وحكمة القمر لا تتسامح مع أولئك المبتدئين الذين يستخدمون السحر الأسود، للتأثير في الحب.

لا بدَّ إذاً، من الوقوف وجهاً لوجه مع معلّمه. وعندما تواجها أدرك أنه يستحيل عليه كسر التعهّد المقدّس الذي أقسمه. أيقن أن القوى التي اعتقد أن في وسعه السيطرة عليها، أشد قوّة منه كثيراً. عرف أنه سلك الطريق المختارة، لكنها ليست كغيرها من الطرق. أدرك أنه لن يترك هذه الدرب أبداً طوال فترة تجسّده.

عليه الآن، وقد ضلَّ السبيل، أن يدفع الثمن. عليه أن يتجرّع الوحدة، وهي أقسى أنواع السموم، إلى أن يشعر الحب بأنه قد تحوّل مرّة أخرى إلى معلّم. وعندها، فإن الحب ذاته الذي جرحه، سيحرّره من جديد، ويكشف له في النهاية عن توأم روحه.

«لم تسألني شيئاً عن نفسي. ألستَ فضولياً؟ أو هل تستطيع استخدام قوى ما لترى مباشرة من خلالي؟».

لم يستغرقه ماضيه أكثر من ثانية واحدة ليومض داخل ذهنه كانت فترة كافية ليقرّر هل يسمح للأمور بأن تحدث كما يجب لها أن تحدث في حكمة الشمس، أم يحدّثها عن هالة النور، ويتدخّل بالتالي في القدر.

تريد بريدا أن تصبح ساحرة، لكنها لم تحقّق طموحها بعدُ. تذكّرَ الكوخ العالي فوق الشجرة عندما كاد أن يخبرها، وها إنه لا يتمالك نفسه من جديد. المشكلة التي لا يعرف إلى حلها سبيلاً الآن، أنه قد خفّف من حذره فنسي أن الشيطان يسكن في التفاصيل. فجميعنا سادة قدرنا الخاص. ويمكننا بسهولة ارتكاب الأخطاء ذاتها المرّة تلو المرّة. نستطيع أن نهرب بسهولة من كل ما نرغب فيه وتضعه الحياة، بكل سخائها، في تصرّفنا.

وفي استطاعتنا، بدلاً من ذلك، أن نسلّم ذواتنا إلى العناية الإلهية، فنمسك بيد الله، ونحارب في سبيل أحلامنا ونحن نعتقد أنها تتحقق دائماً في اللحظة المناسبة.

قال المجوسي: «لنذهب». استطاعت بريدا أن ترى أنه جاد هذه المرّة.

دفعت الفاتورة مسجّلة بذلك نقطة لمصلحتها، فهي في النهاية

«ملكة الليل». ارتديا معطفيهما وخرجا إلى البرد الذي أصبح الآن أقل حدة، فالربيع سيحل في غضون أسابيع.

ساراً معاً إلى محطة الحافلات. ثمة حافلة ستنطلق في غضون دقائق. تبدّلت مشاعر بريدا، خارجاً في البرد، من الاستياء إلى ارتباك رهيب لم تتمكن من تفسيره. لم تشأ الصعود إلى الحافلة. كل شيء يبدو خاطئاً، وقد بدا لها أنها أخفقت كلّياً في تحقيق الهدف الأساسي من الأمسية، وعليها أن تصلح كلّ شيء قبل أن تغادر. جاءت إلى هنا لتشكره، وها هي تتصرّف تماماً على غرار ما فعلت في المناسبتين السابقتين.

قالت إنها تشعر بتوعك، ولم تصعد إلى الحافلة.

مرّت خمس عشرة دقيقة، وجاءت حافلة أخرى.

فعاودت القول، «لا أريد المغادرة، ليس لأنني تماديت في الشرب وأشعر بالسقم، بل لأنني أفسدت كل شيء. لم أشكرك كما يجدر بي أن أفعل».

قال المجوسي، «هذه هي آخر حافلة».

- سآخذ سيارة أجرة في وقت لاحق، ولو بكلفة كبيرة.

ما إن غادرت الحافلة حتى أسفت بريدا لعدم ركوبها. إنها مشوشة. ليس لديها فكرة عمّا تريده. «أنا ثملة». فكّرت، ثم قالت:

«لنمشِ بعض الشيء. أحتاج إلى أن أصحو».

تمشّيا عبر القرية الخالية، وأنوار الشوارع مضاءة والنوافذ معتمة. «هذا غير ممكن. رأيت الضوء في عيني لورنس، وبرغم ذلك أريد أن أبقى هنا مع هذا الرجل. ليست سوى امرأة عادية، متقلّبة، مزاجية، لا تستحق كل ما تعلّمته واختبرته من خلال أعمال

السحر». وهي خجلة من نفسها: لم يتطلّب الأمر أكثر من بضع كؤوس من النبيذ ليصبح لورنس، الذي طالما آمنت بأنه توأم روحها، وكل ما تعلّمته من حكمة القمر، فجأة، بلا أهمية. تساءلت لفترة وجيزة إذا كانت مخطئة، فربما كان الضوء في عيني لورنس ليس النور الذي تتحدّث عنه حكمة الشمس. لكن لا، إنها تخدع نفسها، لا يخفق أحد في التعرف إلى الضوء في عيني توأم روحه.

فلو أنها التقت لورنس في مسرح مكتظ بالناس، لعرفت، في اللحظة ذاتها التي تلتقي فيها أعينهما، أنه الرجل الخاص بها حتى لو لم تتحدث معه من قبل. ستجد طريقة لوصل التناغم الروحي بينهما، وهو سيرحب بذلك، لأن الحكمتين لا تخطئان أبداً: فتوائم الروح تلتقي دوماً في النهاية. وهي لطالما سمعت الناس يتحدثون، قبل وقت طويل على معرفتها شقائق الأرواح، عن ظاهرة لا تفسير لها، هي: الحب من أول نظرة.

في وسع أي كائن بشري أن يتعرّف إلى هذا الضوء من دون الحاجة إلى قوى سحرية. عرفت عنه قبل أن تعرف وجوده. فهي، مثلاً، قد رأته في عيني المجوسي في المرّة الأولى التي قصدا فيها الحانة.

توقّفت.

فكّرت من جديد، «أنا مخمورة حدَّ الانتشاء». عليها أن تنسى الأمر. وهي تحتاج إلى أن تُحصي مالها لترى إذا كانت تحمل ما يكفي لدفع إيجار تاكسي العودة. إنه لأمر مهمّ.

لكنها رأت الضوء في عيني المجوسي؛ ذلك الضوء الذي ينبئها بأنه توأم روحها.

قال المجوسي، «أنت شاحبة. لا بد من أنك أسرفت في الشرب».

- سيعدو الأمر. لنجلس قليلاً إلى أن ينتهي، ثم أذهب إلى المنزل.

جلسا على المقعد. انشغلت هي في البحث داخل حقيبتها عما بقي فيها من مال. يمكنها أن تقف، وتجد سيارة أجرة وتغادر إلى الأبد، فلديها معلّمة، وتعرف كيف تواصل طريقها. تعرف توأم روحها أيضاً. ولو أنها قررت النهوض الآن والمغادرة، فستستمر في تحقيق الرسالة التي حدّدها لها الله.

إنها في الحادية والعشرين، إلا أنها تعرف بالفعل أن من الممكن لتوأمي روحين أن يلتقيا في التجسد ذاته، لكن النتيجة الحتمية هي الألم والعذاب.

فكيف يمكنها تفادي ذلك؟

«لن أعود إلى المنزل»، قالت «سأبقى هنا».

أبرقت عينا المجوسي، إذ تحول ما كان أملاً إلى يقين.

واصلا السير. راقب المجوسي لون هالة بريدا يتغيّر مرّات عدة، وأمل أنها تسلك الطريق الصحيحة. أدرك العواصف والهزّات التي تقضّ نفس توأم روحه، بيد أنه يعرف أن هذه هي طبيعة التحوّلات. فهكذا تتحوّل الأرض والنجوم والجنس البشري.

لمّا غادرا القرية وسارا في الريف ناحية الجبال التي يلتقيان فيها دائماً، طلبت إليه التوقف.

قالت، «لنذهب في هذا الاتجاه»، واستدارت، برغم أنها لم تعرف السبب، صوب طريق يصل إلى حقل قمح. أحسّت بحاجة مفاجئة إلى الشعور بقوة الطبيعة، وبالأرواح الودّية التي تعيش، منذ خُلق الكون، في جميع مناطق الأرض الرائعة، وقد ارتسم بدر هائل الحجم في السماء، منيراً الطريق والريف المجاور.

تبعها المجوسي دون أن ينبس بكلمة واحدة. شكر الله من أعماق قلبه على إيمانه، ولأنه لم يسمح له بارتكاب الخطأ ذاته مرتين، وهو ما كان على وشك فعله قبل دقيقة بالتمام من الاستجابة لصلاته.

سارا عبر حقل القمح الذي حوّله ضوء القمر إلى بحر فضي. مشت بريدا بلا هدف، وهي لا تملك أي فكرة عما ستكون عليه خطوتها التالية. أخذ صوت في داخلها يحثّها على المضي قدماً،

ويخبرها بأنها تتمتع بالقدر ذاته من قوّة جدّاتها، ولا حاجة إلى القلق لأنهن يقدن خطاها ويحمينها بواسطة حكمة الزمان.

توقفا وسط الحقل. أحاطت بهما الجبال التي ينبت على أحدها الصخر الذي يمكن منه التقاط مشهد رائع لغياب الشمس، ويوجد أيضاً كوخ الصيادين الأكثر ارتفاعاً، والمكان الذي واجهت فيه امرأة شابة، في إحدى الليالي، الخوف والظلمة.

،أنا جاهزة،، فكّرت في نفسها ،جاهزة، وأعرف أنني محميّة،. استحضرت صورة الشمعة الدائمة الاحتراق في منزلها، عهدها مع حكمة القمر.

قالت، وقد توقّفت، ،هذا مكان جيّد،.

التقطت غصناً ورسمت في الأرض دائرة كبيرة وهي تتلو الأسماء المقدّسة التي لقّنتها إياها معلّمتها. لم يكن خنجرها الشعائري معها، ولم تحمل أياً من أدواتها المقدّسة، لكنّ جدّاتها هنا، ويقلن لها إنهن كرّسن أدوات المطبخ من أجل تفادي إحراقهن على العمود.

قالت، ،كل شيء مقدّس. ذلك الغصن مقدّس،.

،نعم،، أجاب المجوسي. ،كل شيء في هذا العالم مقدّس، ويمكن لحبة رمل أن تشكّل جسراً إلى العالم اللامنظور،.

أجابته بريدا، ،لكن الجسر إلى هذا العالم اللامنظور هو، في هذه اللحظة، توأم روحي،.

عادل هو الله، وامتلأت عيناه بالدموع.

دخلا كلاهما الدائرة وقد أقفلت شعائرياً. إنها الحركة الوقائية ذاتها التي استخدمها المجوس والساحرات منذ الأزل.

قالت بريدا، ،كنت على ما يكفي من السخاء لتُريني عالمك. وأنا أمارس هذه الشعائر الآن لأُريك أنني أنتمي إلى ذلك العالم،.

رفعت ذراعيها صوب القمر، واستحضرت قوى الطبيعة السحرية. فغالباً ما شاهدت معلّمتها تفعل هذا لدى ذهابهما إلى الغابة، وها إنها تفعل الأمر ذاته وهي واثقة من عدم وقوع أي خطأ. فالقوى تخبرها بأنها ليست في حاجة إلى تعلّم أي شيء، بل عليها أن تتذكّر فقط، المرات الكثيرة التي قامت فيها بذلك في حيواتها المتعدّدة، كساحرة. وقد صلّت حينها ليأتي الحصاد جيّداً، ولتتمتع الحقول بخصوبة دائمة. وها إنها الكاهنة التي جمعت معاً، في عصور أخرى، معرفة الأرض وتحوّل البذور، وصلّت بينما كان رجلها يعمل في الأرض.

ترك المجوسي بريدا تقوم بالخطوات الأولى. يعرف أنه سيتولّى الأمر، لكنه يحتاج إلى أن يدوّن في المكان والزمان واقع أنها هي التي بدأت العملية. فمعلّمه، الذي يهيم في تلك اللحظة في جسم هيولي ما، في انتظار حياته المقبلة، موجود هنا في حقل القمح هذا، تماماً كما كان موجوداً في الحانة خلال تجربته الأخيرة، وهو سعيد بلا شك بأن تلميذه قد تعلّم من معاناته. استمع المجوسي بصمت إلى دعاءات بريدا التي لمّا توقّفت، قالت:

،لا أدري لماذا قمت بهذا كله، لكنني أعرف أنني أنجزت الجزء المتعلّق بي،.

فقال، ،سأتابع،.

ثم استدارا شمالاً وقلّد أصوات الطيور التي لم تعد موجودة إلا في الأساطير والخرافات. ذلك هو التفصيل الوحيد الذي كان ناقصاً.

فويكا معلّمة جيّدة، وقد لقّنت بريدا كل شيء تقريباً ما عدا النهاية.

ولمّا تم استصراخ صوت البجع المقدّس والفينيق، امتلأت الدائرة كلها، بضوء غامض لم ينر أي شيء من حوله، لكنه برغم ذلك ضوء. تطلّع المجوسي إلى توأم روحه، فرآها بهيّة في جسدها الأبدي، مع هالة ذهبية وخيوط نور دقيقة تنبثق من سرّتها ومن رأسها. يعلم بأنها ترى الأمر ذاته، وتلحظ هالة النور فوق كتفه اليسرى، ويعرف أن عينيها قد تكونان مغبشتين بعض الشيء بسبب مفعول النبيذ الذي شرباه في وقت سابق.

قالت بلطف عندما رأت هالة النور: «توأم روحي».

فأجابها المجوسي: «سأسير معك من خلال حكمة القمر». وعلى الفور، تحوّل حقل القمح من حولهما إلى صحراء رمادية، تراءى فيها معبد ونساء يرتدين الأبيض ويرقصن أمام بوابته الكبيرة. أخذت والمجوسي يشاهدان هذا من على كثيب مرتفع، من دون أن تعرف إذا كان في إمكان هؤلاء النسوة رؤيتها.

شعرت بوجود المجوسي إلى جانبها. أرادت أن تسأله عن مغزى الرؤية، لكنها عجزت عن الكلام. وشاهد هو الخوف في عينيها، فعادا إلى دائرة الضوء في حقل القمح.

سألته أخيراً: «ماذا كان ذلك؟».

- هدية مني إليك. إنه واحد من المعابد السرية الأحد عشر في حكمة القمر. هدية حبّ وشكر لأنك موجودة، ولأنني انتظرت طويلاً طويلاً للعثور عليك.

«خذني معك»، قالت «أظهر لي كيفية ولوج عالمك».

سافرا معاً عبر المكان والزمان من خلال الحكمتين. شاهدت بريدا مروجاً تتلألأ بالأزهار والحيوانات التي قرأت عنها في الكتب فقط، ورأت قصوراً غامضة ومدناً بدا أنها تطفو على غيوم من نور. أضاءت السماء عندما رسم لها المجوسي، فوق حقل القمح، الرموز المقدسة للحكمة. بدا أنهما في حضرة المنظر الطبيعي الجليدي لواحد من قطبي الأرض، لكنه ليس كوكبنا لأن فيه كائنات أخرى أصغر حجماً، بأصابع طويلة وأعين غريبة، تعمل على سفينة فضاء كبيرة. وكانت كلما أرادت أن تقول له شيئاً، تختفي الصور ليحل محلها غيرها. أدركت بريدا بروحها الأنثوية أن الرجل الذي إلى جانبها، يحاول أن يُظهر لها كل ما تعلّمه على مر السنين، ولا بد من أنه انتظر هذا الوقت كله ليقدم إليها هذه الهدية فحسب. يمكنه أن يعطي نفسه لها الآن بلا خوف، لأنها توأم روحه. وفي استطاعتها أن تسافر معه عبر جنّة النعيم حيث تعيش الأرواح المضمخة المنوَّرة، وتزورها بين الفينة والفينة أرواح أخرى لا تزال تبحث عن النور المقدَّس كي تغذي نفسها بالأمل.

لم يسعها أن تقول كم مرّ من الوقت قبل أن تجد نفسها وقد عادت مع ذلك الكائن المنير إلى الدائرة التي رسمتها بنفسها. عرفت الحب من قبل، لكنه الحب الذي، حتى تلك الليلة، عنى أيضاً الخوف. وقد شكّل ذلك الخوف، مهما بدا زهيداً، حجاباً دائماً يمكن من خلاله رؤية كل شيء تقريباً، لكن بلا ألوان. أدركت عند تلك اللحظة، بوجود توأم روحها هنا أمامها، أن الحب هو إحساس بالارتباط الكلي بالألوان، أشبه بآلاف أقواس القزح، وقد رُكّب واحدها فوق الآخر. فكّرت، وهي تحدّق إلى أقواس القزح هذه، «كم أنني افتقدت لمجرّد أنني خفت أن أفقد».

وها هي مستلقية والكائن المضيء من فوقها، وهالة النور تعلو كتفه اليسرى، وخيوط الضوء تنبثق من رأسه وسرّته.

قالت، «أردت التكلّم معك، لكنني عجزت».

فأجاب، «ذلك بسبب النبيذ».

لكن الحانة، والنبيذ، والشعور بالانزعاج، لم تعد سوى ذكرى بعيدة لبريدا.

- أشكرك على الرؤى.

«لم تكن رؤى»، قال الكائن المضيء. «ما شاهدته هو حكمة الأرض وكوكب بعيد».

لم تشأ بريدا التحدّث في الأمر. لم تُرد أي أمثولة. تسعى إلى ما اختبرته فحسب.

«أنا كذلك ملأى بالنور؟».

- نعم، مثلي تماماً. اللون ذاته، والضوء أيضاً، وشعاعات الطاقة عينها.

أصبح اللون ذهبياً الآن، وباتت موجات الطاقة المنبثقة من السرّة والرأس زرقاء باهتة لماعة.

قالت بريدا، «أشعر كأننا تهنا وقد أنقذنا الآن».

- أنا متعب. يجب أن نعود. فأنا أيضاً أسرفت في الشرب.

تعرف بريدا أنه، في مكان ما في الخارج، يوجد عالم من الحانات، وحقول القمح، ومواقف الحافلات، لكنها لا تريد العودة إليه. كلّ ما تبغيه هو البقاء في ذلك الحقل إلى الأبد. سمعت صوتاً بعيداً يبتهل، بينما أخذ الضوء من حولها يتلاشى تدريجاً إلى أن

اختفى كلّياً. أنار قمر هائل الحجم السماء مضيئاً الريف. كانا عاريين يحتضن أحدهما الآخر، لا يشعران بالبرد ولا بالخجل.

طلب المجوسي إلى بريدا أن تُنهي الشعائر بما أنها هي التي بدأتها. تلفظّت بالكلمات التي تعرفها، وساعدها عند الضرورة. وما إن تم النطق بآخر عبارة حتى فتحت الدائرة، فارتديا ملابسهما وعاودا الجلوس على الأرض.

قالت بريدا بعد فترة، «لنغادر هذا المكان»، فنهض المجوسي وتبعته. لم تعرف ماذا تقول. شعرت بأنها خرقاء، وهو أيضاً. تبادلا الاعتراف بالحب. وها هما، مثل أي زوجين آخرين في مثل هذه الظروف، مرتبكان من تبادل النظرات.

واستمرا على هذه الوتيرة، إلى أن كسر المجوسي الصمت:

- عليك أن تعودي إلى دبلن. أعرف رقم هاتف شركة سيارات أجرة.

لم تعرف بريدا إذا كان عليها أن تشعر بالخيبة أم بالراحة. فقد أخذ الشعور بالفرح يتضاءل ويفسح المجال للغثيان وأوجاع الرأس، فأيقنت أنها ستشكّل رفقة سيئة جداً.

وافقت غصباً عنها، وتوجت امتعاضها بكلمة «حسناً»، تحتمل ألف تأويل.

استدارا وقفلا عائدين إلى القرية. اتصل بإحدى سيارات الأجرة من كشك للهاتف، وجلسا على حافة الرصيف ينتظران وصولها.

قالت، «أريد أن أشكرك على الليلة».

لم ينبس بكلمة.

- لا أدري إذا كان الاعتدال الربيعي وقفاً على الساحرات، لكنه سيشكّل يوماً مهمّاً لي.

- ،الحفلة هي الحفلة،.

،إذاً، أحبّ أن أدعوك،.

أتى بحركة توحي بأنه يريد أن يغيّر الموضوع. لا بدّ من أنه يفكّر في ما تفكّر فيه، ويراوده ذلك الألم الذي يراودها، والإحساس الممضّ باقتراب موعد فراقهما. فكم يصعب التخلّي عن توأم الروح حين يتم العثور عليه. تخيّلته يعود إلى المنزل وحيداً، يتساءل متى ستعود. وهي ستقفل راجعة، لأن قلبها يطلب إليها ذلك برغم أن تحمّل وحدة الغابة أصعب مما هو في المدن.

تابعت بريدا تقول، ،لا أدري إذا كان الحب يظهر فجأة، إلا أنني أعرف أنني منفتحة على العشق، وجاهزة له،.

وصلت سيارة التاكسي أخيراً. ها قد أزفت لحظة الوداع. نظرت بريدا من جديد إلى المجوسي، وشعرت بأنه عاد سنوات كثيرة إلى الوراء.

قال لها، بما يشبه اعترافاً ضمنياً بقسوة الفراق الذي هما مقدمان عليه: ،أنا أيضاً جاهز للحب،.

تدفّق ضوء الشمس إلى المطبخ الواسع عبر النوافذ المتوهجة بالنظافة.

- ،هل نمت جيداً يا حبيبتي؟،.

وضعت والدتها كوباً من الشاي على الطاولة مع بعض الخبز المحمّص، ثم عادت إلى المطبخ لتقلي البيض واللحم المقدد.

- نعم، كأنه مضى عليَّ سُبات مديد، شكراً. وبالمناسبة، هل جهز ثوبي؟ فأنا أحتاج إليه في حفلة يوم ما بعد الغد.

جاءتها أمها بالبيض واللحم المقدّد وجلست قربها. علمت بأن أمراً غريباً يحدث مع ابنتها، لكن لا يسعها شيء حياله. ودّت لو أنها تتحدّث معها اليوم، كما لم تفعل من قبل، لكنها لن تحقق الكثير إذا فعلت، فثمة عالم جديد في الخارج، يشغل فتاتها؛ عالم لا دراية لقلب الأم به.

خافت على ابنتها لأنها تحبها، ولأن بريدا موجودة وحدها في هذا العالم الجديد.

- سيكون ثوبي جاهزاً، أليس كذلك يا أمي؟

أجابتها والدتها، ،نعم، عند موعد الغداء،. أسعدها ذلك، فثمة أمور على الأقل لم تتغيَّر في العالم. وهناك مشكلات لدى البنات لا تزال الأمهات يجدن حلولاً لها.

ثم ترددت قبل أن تسأل:

- كيف لورنس؟

- بخير. سيأتي مساء الغد ليقلّني.

شعرت بالراحة والحزن معاً. فلطالما خدشت مشكلات قلبها روحها، وآذتها. وقد شكرت الله بامتنان، لأن ابنتها لا تواجه مثل هذه الأزمات.

وربما كان هذا هو المجال الذي يمكنها فيه تقديم النصح لكون الحبّ لم يتغير إلا قليلاً على مر العصور.

شرعتا في السير حول القرية الصغيرة التي أمضت فيها بريدا طفولتها. لم تتبدّل المنازل، ولا يزال الناس ينشغلون في الأمور نفسها التي طالما شغلتهم. التقت ابنتها بعض أصدقاء الدراسة القدامى ممن يعملون الآن إما في بنك القرية وإما في متجر قرطاسيتها. تبادلوا التحية وتوقفوا للدردشة. وقال بعضهم لبريدا كم أنها كبرت، وآخرون اعترفوا كم أنها تبدو جميلة. ثم حطتا حوالى العاشرة في المقهى الذي تعوّدت أمها أن تقصده في أيام السبت، قبل أن تلتقي زوجها، في تلك الأيام التي كانت لا تزال تأمل فيها لقاء شخص ما فتجرفهما دوامة الشغف وتحلم بوضع حد لحلقة الأيام المتشابهة التي لا تنتهي.

نظرت من جديد إلى ابنتها وهي تُطلعها على آخر أخبار سكان القرية. وقد سرّها أن بريدا لا تزال مهتمّة.

قالت بريدا، «عليّ حقاً أن أحصل على الثوب اليوم». بدت قلقة، برغم أن هذا ليس سبب توترها. فقد عرفت أن أمها لن تخذلها أبداً.

قررت الوالدة أن تخاطر وتطرح السؤال الذي غالباً ما يكره

الأولاد الإجابة عنه، لأنهم يتمتعون بالاستقلالية، والحرية، وقادرون على حلّ مشاكلهم بأنفسهم.

- أثمة ما يشغل بالك؟

«هل سبق لك أن وقعت في حب رجلين معاً، يا أمي؟»، قالت الفتاة العاشقة والحائرة، وفي صوتها نبرة تحدٍّ كما لو أن الحياة لم تنصب شباكها إلا لها وحدها.

قضمت أمها قطعة من كعكتها، وسرعان ما حلّت في عينيها نظرة بعيدة كما لو أنها رجعت بعيداً في الذكريات، بحثاً عن زمن كاد يضيع.

- نعم، سبق لي.

حدّقت إليها بريدا بدهشة.

فابتسمت أمها ودعتها إلى إكمال مسيرتهما، ومغادرة المقهى. وما إن خرجتا بعيداً قليلاً، حتى صارحت ابنتها:

«والدك هو حبّي الأوّل والأكبر. وأنا لا أزال سعيدة كثيراً معه. وحصلت، عندما كنت أصغر منك، على كل ما يمكنني الحلم به. اعتقدنا، أنا وصديقاتي في تلك الحقبة، أن الحب هو السبب الوحيد للحياة. وإذا لم تجدي شخصاً ما، فلن يمكنك الادعاء عندها أنك حققت أحلامك كلها».

فقالت بريدا وقد عيل صبرها، «التزمي الموضوع، يا أمي».

«لكنني امتلكت أيضاً أحلاماً أخرى. حلمت، مثلاً بما استطعت تحقيقه، أي بالمضي إلى المدينة الكبرى واكتشاف العالم الموجود خارج قريتي. وكانت الطريقة الوحيدة لحمل والديَّ على قبول

قراري، هي في القول لهما إنني أحتاج إلى متابعة بعض الدروس غير المتوفّرة محلّياً.

«لطالما جافاني النوم في الليالي، وأنا أفكّر في كيفية إثارة الموضوع مع والديَّ. خططت بالضبط لما أريد قوله، وتوقعت ما سيقولانه رداً على ذلك، وكيف سأجيب بدوري».

لم يسبق لوالدتها أن تحدّثت إليها على هذا النحو من قبل. شعرت بمزيج من العطف والأسف. كان بإمكانهما التمتع بأوقات مماثلة أخرى، لو لم تكن كل منهما عالقة في عالمها الخاص، وقيمها الشخصية.

«التقيت والدك قبل يومين من استعدادي للتحدّث مع أهلي. نظرت في عينيه، ورأيت فيهما بريقاً خاصاً، كما لو أنني التقيت، بعد طول انتظار، الشخص الذي أرغب كثيراً في أن تجمعني الأقدار به».

- «نعم، مررت في التجربة نفسها».

«أدركت أيضاً، بعد لقائي أباك، أن بحثي قد بلغ محطته الأخيرة. لم أعد في حاجة إلى تفسير آخر للعالم. ولم أشعر بالإحباط لعيشي هنا، وأنا أرى دوماً الأشخاص أنفسهم، وأقوم بالأعمال ذاتها، لأن كلّ يوم أصبح مختلفاً بسبب الحب الكبير الذي كان يعاود كل لحظة إيقاد جذوة شغفه بيننا.

«بدأنا نخرج معاً، ثم تزوجنا. لم أحدّثه قط عن أحلامي بالذهاب إلى المدينة الكبيرة والعيش فيها، وباكتشاف أماكن أخرى وأناس مختلفين، لأن قريتي أصبحت فجأة تتسع للعالم بأسره. وأصبح الحبّ تفسيري الأكبر للحياة».

«أشرتِ إلى شيء آخر يا أمي».

لكن أمها اكتفت بالرد، «دعيني أرِك شيئاً».

سارتا إلى أسفل الدرج الموصل إلى كنيسة القرية الكاثوليكية التي دُمرت وأعيد بناؤها على مرّ القرون. تعوَّدت بريدا أن تحضر القداس فيها كل يوم أحد، وتذكّرت أن تسلق الأدراج وهي طفلة، كان شاقاً كثيراً عليها. وتوزع عند بدايته نقشان، واحد للقديس بولس إلى اليسار وآخر للقديس يعقوب إلى اليمين، وقد تآكلا بعض الشيء بفعل الزمن والسياح. وغطّت الأوراق الجافة الأرض كما لو أن الخريف هو الذي سيحلّ وليس الربيع.

تقع الكنيسة عند رأس التلّة، وتستحيل رؤيتها من مكانهما بسبب كثافة الأشجار. جلست أم بريدا على الدرجة الأولى ودعتها إلى أن تحذو حذوها.

قالت، «بدأ الأمر في هذا المكان، عندما قرّرت بعد ظهر أحد الأيام، لسبب أو لآخر، أن أجيء إلى هنا لأصلّي. احتجت إلى الوحدة، وإلى التفكير في حياتي، واعتقدت أن الكنيسة هي المكان الملائم لذلك.

«لكنني ما إن وصلت إلى هنا حتى التقيت رجلاً يجلس حيث أنت الآن، وإلى جانبه حقيبتان. بدا ضائعاً كلّياً، وهو يقلّب بيأس صفحات الكتاب الذي في يده. اعتقدت أنه سائح يبحث عن فندق، فتوجهت إليه. بل إنني شرعت حتى في الحديث معه. ظهر، في البداية، مرتاعاً بعض الشيء، ثم استرخى.

«قال إنه ليس تائهاً. فهو عالم آثار يقود سيارته شمالاً، حيث تم العثور على بعض الآثار، وقد تعطّل محركها. وفي انتظار قدوم الميكانيكي قريباً، قرر أن يزور الكنيسة. سألني عن القرية والبلدات الأخرى المجاورة، وعن المباني الأثرية.

«اختفت فجأة، كما بسحر ساحر، جميع المشاكل التي كنت أتخبّط فيها. شعرت بأنني مفيدة، وبدأت أخبره بكل ما أعرفه، وأنا أشعر بأن السنوات الطويلة التي قضيتها في المنطقة، بات لها في النهاية معنى. يوجد أمامي رجل درس الشعوب والمجتمعات، وقد يحفظ في ذاكرته، من أجل منفعة الأجيال المقبلة، كل ما سمعته واكتشفته وأنا طفلة. جعلني ذلك الرجل الجالس على الدرج، أدرك أنني مهمّة للعالم ولتاريخ بلدي. شعرت بأجمل ما يمكن الكائن البشري أن يملكه، وهو أنني ضرورية.

«انتهيت من إخباره عن الكنيسة، لكننا مضينا في الحديث عن أمور أخرى. أبلغته كم أنني فخورة بقريتي، وردّ ببعض العبارات لكاتب لا أذكر اسمه الآن، تتحدث عن أن إدراك المرء قريته يساعده على إدراك العالم».

أجابتها بريدا، «إنه تولستوي».

لكن والدتها كانت لا تزال مسافرة في الزمن، تماماً كما فعلت هي في يوم من الأيام، إلا أن أمها لم تتطلّب كاتدرائيات هائمة في المتسع، ومكتبات تحت الأرض، أو كتباً أكلها الغبار، بل تطلّبت فقط ذاكرة بعد ظهر ذلك اليوم الربيعي، ورجلاً جالساً على الدرج ومعه حقيبتان.

«تحادثنا لبعض الوقت. كانت لدي فترة بعد الظهر لقضائها معه، لكنني قررت، وقد يصل الميكانيكي في أي لحظة، أن أستفيد من كل ثانية إلى الحد الأقصى. فسألته عن عالمه، والحفريات الأثرية، وتحديات قضاء حياته وهو يبحث عن الماضي عبر الحاضر. وحدّثني هو عن المحاربين، والحكماء، والقراصنة ممن سكنوا بلادنا في السابق.

«وقبل أن أستيقظ، كانت الشمس قد انخفضت في الأفق. لم يسبق في حياتي قط أن مرّ الوقت بمثل هذه السرعة. أحسست بأنه شعر بالأمر ذاته. واصل طرح الأسئلة عليّ لإبقاء الحديث مستمرّاً، وكي لا يمنحني الوقت لأقول إنه عليّ أن أغادر. تحدّث من دون توقّف، أخبرني عن كل تجاربه، وأراد أن يعرف كل شيء عنّي أيضاً. أمكنني أن أرى في عينيه أنه يرغب فيّ بقوة، برغم أنني كنت أبلغ في ذلك الوقت ضعفي عمرك الآن.

«كان الطقس ربيعياً، والهواء يعبق برائحة رائعة. شعرت بأنني شابة من جديد. توجد زهرة لا تتفتح إلا في الخريف، وقد شعرت، في ساعات بعد الظهر ذاك اليوم، بأنني تلك الزهرة. كما لو أن ذلك الرجل ظهر فجأة على الدرج في خريف حياتي، عندما اعتقدت أنني اختبرت كل ما يمكنني اختباره، ليظهر لي أن المشاعر - الحب على سبيل المثال - لا تشيخ مع الجسد. مشاعر تهبُّ على أرواحنا قادمة من جزء من العالم نجهله، ولا نعرفه. لكنه عالم لا وجود فيه للزمان، ولا موطئ قدم للمكان فيه، أو للحدود.

صمتت، وبقيت جامدة في مكانها لبرهة، وعيناها لا تزالان شاردتين مسمّرتين في ذلك الربيع البعيد.

«شعرت، أشبه بمراهقة في الثامنة والثلاثين، بأن شخصاً يريد وصالي بقوة، ثم يودّ مني أن أغادر. توقّف فجأة عن الكلام، ونظر في عمق عينيّ، وابتسم، كما لو أن قلبه أدرك ما أفكر فيه وأراد أن يقول لي إنه صحيح، وإنني مهمّة جداً له. صمت لبعض الوقت عن أي كلام، ثم ودّعني وودّعته والميكانيكي لمّا يصل بعد.

«تساءلت، طوال أيام كثيرة، إذا كان هذا الرجل موجوداً فعلاً، أم أنه ملاك أرسله الله ليعلّمني الدروس السرّية للحياة. قرّرت في

النهاية أنه رجل حقيقي؛ شخص أحبني ولو لساعات بعد ظهر يوم واحد، وأعطاني كل ما احتفَظَ به لنفسه طوال حياته: كفاحاته، أفراحه، مصاعبه، وأحلامه. وأنا أيضاً منحته نفسي كاملة في بعد الظهر ذاك اليوم. كنت رفيقته، زوجته، المستمعة إليه، عشيقته. وقد اختبرتُ في بضع ساعات فقط حبّ حياة كاملة».

تطلّعت الأم إلى الابنة، وهي تأمل أنها قد فهمت، لكنها شعرت في أعماقها بأن بريدا تعيش في عالم لا مكان فيه لهذا النوع من الحب.

وانتهت إلى القول، «لم أكفَّ قط عن حب والدك، ولو ليوم واحد. فلطالما وقف إلى جانبي باذلاً ما في وسعه، وأريد أن أبقى معه إلى النهاية. لكن القلب غامض، وأنا في الحقيقة لا أزال لا أفهم ما الذي جرى بعد ظهر ذلك اليوم. ما أعرفه أن لقائي هذا الرجل تركني أشعر بأنني أكثر ثقة، وأظهر لي لا زلت أملك القدرة على أن أحِبَّ وأحَب، وعلّمني أمراً آخر لن أنساه أبداً: لا يعني العثور على أمر مهمّ في الحياة، التخلّي عن جميع الأمور المهمّة الأخرى، ولا التنكُّر لها.

«لا أزال أفكّر فيه أحياناً. أودّ لو أعرف مكانه، وهل لا يزال حيّاً، أم أن الله قد استعاد روحه. أعرف أنه لن يعود أبداً. ولهذا، يمكنني أن أحبّه بمثل هذه القوة وهذا اليقين، لأنني لا أستطيع أن أفقده. فهو، بعد ظهر ذلك اليوم، قد وهبني نفسه بكلّيتها».

نهضت الوالدة، وقالت، «من الأفضل أن أذهب إلى المنزل، وأنتهي من تحضير ثوبك».

أجابت بريدا، «أعتقد أنني سأبقى هنا لبعض الوقت».

توجّهت إلى ابنتها وقبّلتها بمحبّة.

«شكراً لاستماعك إليّ. إنها المرّة الأولى التي أخبر فيها هذه القصة لأحد. لطالما خفت أن أموت قبل أن أفعل ذلك، فتُمحى القصة عن وجه الأرض إلى الأبد. وها أنت الآن ستحتفظين لي بها».

صعدت بريدا الدرج ووقفت خارج الكنيسة: هذا المبنى الصغير، المستدير، الذي يشكّل مفخرة المنطقة. إنه واحد من أهم أماكن العبادة المسيحية في إيرلندا، وأقدمها، ويأتي الباحثون والسياح سنوياً لزيارته. لم يبقَ شيء من البنية الأساسية التي تعود إلى القرن الخامس سوى بعض الأطلال الأثرية هنا وهناك. كل تدمير كان يعفو عن مكان سليم بما يسمح للزائر بتقفي تاريخ الأساليب المعمارية المختلفة التي تشكّل الكنيسة.

وقفت بريدا خارجاً تستمع إلى موسيقا أرغن يعزف في الداخل. كل شيء مخطط بوضوح شديد في تلك الكنيسة. فالكون موجود بالتحديد في مكانه المفترض، ولا يحتاج كل من يدخل أبوابها المشرعة للمؤمنين، إلى القلق من أي شيء. لا توجد قوى غامضة في الأعالي، ولا «ليالي ظلمة» تدعو المرء إلى الإيمان من دون إدراك. فلا كلام على إحراق الناس على العمود، ويعيش رجال دين العالم معاً كما لو أنهم حلفاء، رابطين الناس مرة أخرى بالله. لكن جزيرتها لا تزال تشكّل استثناءً لهذا التعايش السلمي. ما زال الناس، في الشمال، يقتلون بعضهم البعض باسم الدين، لكن ذلك سيتوقّف في النهاية. يكاد يتم التبرؤ من الله: فهو والدنا الكريم، وجميعنا سنخلص.

* * *

قالت في نفسها، «أنا ساحرة»، وهي تكافح ضد اندفاعة متنامية لدخول الكنيسة. فكنيستها باتت اليوم حكمة مختلفة. ولو أنها دخلت من هذه الأبواب فستدنّس المكان وتُدَنَّس هي أيضاً برغم أن الله الذي تبحث عن حقيقته المطلقة هو نفسه واحد أحد.

أشعلت سيجارة وحدّقت إلى الأفق وهي تحاول ألا تهجس في هذه الأمور، وفكّرت بدلاً من ذلك في أمها. شعرت بالحاجة إلى العودة راكضة إلى المنزل، وتطويق عنقها بذراعيها، وبأن تقول لها إنها، بعد يومين، ستُلَقَّن الأسرار الكبرى للسحر، وقد قامت برحلات عبر الزمن واختبرت قوة الجنس، وفي إمكانها الآن أن تحزر ما يوجد في واجهة متجر باستخدامها تقنيات حكمة القمر. تتمنى لو تخبرها بأنها تحتاج إلى الحبّ والتفهم لأنها هي أيضاً تعرف قصصاً لا يمكنها أن ترويها لأحد.

توقّف الأرغن عن العزف، وتناهت إلى سمع بريدا من جديد أصوات القرية، وغناء الطيور، وحفيف الهواء الذي يحرّك الأغصان ويبشّر بعودة الربيع. سمعت صرير باب يُفتح ويُغلق في الجهة الخلفية للكنيسة معلناً مغادرة أحدهم. وللحظة، شاهدت نفسها في يوم أحدٍ من ذاكرة طفولتها الخصبة، تقف حيث هي الآن، وتشعر بالحنق لأن القداس استغرق وقتاً طويلاً جداً، وسرق ساعات جميلة من يوم الأحد، كانت ستخصصها لاستكشاف الحقول.

«يجب أن أدخل». ربما كان في وسع والدتها أن تتفهم شعورها، لكنها بعيدة الآن. وها إن أمامها كنيسة فارغة، وهي لم تسأل ويكا قط عن دور المسيحية بالتحديد في كل ما حدث. أحسّت بأنها إذا دخلت من ذلك الباب، فستخون كلّ شقيقاتها اللواتي أحرقن على العمود.

ثم قالت في سرها، «لكنني أنا أيضاً أُحرقت على العمود».

وتذكّرت الصلاة التي تلتها وبكا في يوم ذكرى استشهاد الساحرات، وأشارت فيها إلى يسوع ومريم. فالحب يسمو على كلّ ما عداه، ولا يوجد حقد فيه، بل خطأ ظرفي فقط. وربّما قرّر البشر عند حد ما، أن يصنعوا من أنفسهم ممثلين عن الله، وارتكبوا بالتالي أخطاء، الله براء منها كلّها.

دخلت الكنيسة في النهاية. لم يكن أحد في الداخل. بدا من بعض الشموع المحترقة أن أحدهم قد كلّف نفسه ذلك الصباح عناء تجديد عهده مع القوة التي يمكنه الشعور بها هنا، وهكذا اجتاز الجسر الذي يربط بين العالمين المنظور واللامنظور. أسفتْ للأفكار التي راودتها قبل دخول الكنيسة: فهنا أيضاً، ما من شيء له تفسير، وعلى الناس المخاطرة والغوص في «ليل ظلمة الإيمان». وها إن الإله البسيط في الظاهر موجود أمامها وقد بسط ذراعيه.

ليس في استطاعته مساعدتها. فهي في قراراتها وحدها، وليس في مقدور أحد أن يُعينها في ما هي فيه. عليها أن تتعلم ركوب المخاطر، هي التي لا تملك المواهب ذاتها، التي للمصلوب أمامها، الذي عرف ماهية رسالته كونه ابن الله. وهو لم يرتكب أي خطأ قط. لم يدرك مطلقاً الحب الإنساني العادي، بل حب والده. وكلّ ما وجب عليه القيام به هو الكشف عن حكمته، وتعليم البشر الطريق الحقيقية إلى السماء.

أهذا، إذاً، كل ما في الأمر؟ تذكّرت صف التعليم الديني في يوم أحد، كان الكاهن فيه مُلهماً أكثر من المعتاد. وكان هذا الجزء من الدرس يتعلّق بيسوع الذي يرشح دماً ويصلّي إلى الله ليدفع عنه الكأس التي أجبر على تجرُّعها.

وسأل الكاهن، «لماذا يفعل، إذا كان يعرف بالفعل أنه ابن الله؟». وأجاب، «هذا لأنه عرف ذلك في قلبه فقط. فلو أنه تأكّد من الأمر

على نحو مطلق لما كان لرسالته معنى، إذ يصبح عندها إنسانياً بالكامل. لأن كون المرء إنسانياً يعني أن تنتابه الشكوك، ويواصل، برغم ذلك، طريقه».

نظرت من جديد إلى الصورة، وشعرت للمرة الأولى في حياتها بأنها أكثر قرباً منها. فهنا، ربما، رجل خائف ووحيد، يواجه الموت ويسأل: «أبتاه، أبتاه، لماذا تركتني؟». وهو يقول ذلك، لأنه، حتى هو، غير متأكد إلى أين هو ذاهب. ركب المخاطرة وخاض، على غرار جميع البشر، في «ليل الظلمة»، مدركاً أنه لن يعرف الجواب إلا في نهاية رحلته. وهو أيضاً اضطر إلى المرور في حالة القلق التي تسبق اتخاذ القرار بتركه والده وأمه وقريته الصغيرة ليمضي في البحث عن أسرار الإنسان وكنه الشريعة.

ولا بد، باجتيازه ذلك كلّه، من أنه عرف الحب، برغم أن الأناجيل لا تشير إلى ذلك أبداً. يصعب تبادل مشاعر الحب بين الناس، وهي عصية على الفهم أكثر من حب الكائن الأعظم. إلا أنها تتذكّر أنه عندما قام من الموت، ظهر أولاً على المرأة التي رافقته حتى النهاية.

بدت الصورة الصامتة وكأنها توافق معها. فقد عرف هو الناس، والنبيذ، والخبز، والحفلات، وجميع جمالات العالم. ويستحيل أنه لم يعرف أيضاً حبّ امرأة، وقد رشح دماً على جبل الزيتون لأنه صعب عليه، لكونه عرف حب شخص واحد، أن يغادر الأرض ويضحّي بنفسه، محبّة لجميع البشر.

اختبر كلّ ما يمكن للعالم أن يقدّمه. وبرغم ذلك واصل مسيرته، عارفاً أن «ليل الظلمة» سينتهي على الصليب، أو على كومة مشتعلة من الحطب.

«ربي، جميعنا موجودون على الأرض لركوب مخاطر تلك «الليلة الظلماء». أخاف الموت، وأخشى أكثر أن تذهب حياتي هدراً. أخاف أن يلزمنا الحبّ بأمور تتجاوز إدراكنا صحيح أنه يشعّ نوراً وضّاء على درجة كبرى من التألّق، لكن الظلال التي يطرحها ترعبني».

أدركت فجأة أنها تصلّي. وذلك الإله الصامت، البسيط، ينظر إليها، ويبدو أنه يفهم كلامها ويأخذه على محمل الجد.

جلست لفترة تنتظر جوابه، لكنها لم تسمع صوتاً أو ترَ إشارة. فالجواب هنا أمامها، في ذلك الرجل المسمّر على الصليب الذي قام بدوره، وأظهر للعالم أنه لو أدى كل واحد دوره لما وجب على أحد أن يتألّم. فقد عانى هو الألم نيابةً عن جميع أولئك الذين امتلكوا الشجاعة للقتال في سبيل أحلامهم.

وجدت بريدا نفسها تنتحب بصمت، برغم أنها لم تعرف السبب.

النهار مكفهرّ، لكنها لن تمطر. عاش لورنس لسنوات طويلة في تلك المدينة ويعرف غيومها. نهض، ومضى إلى المطبخ ليُعدّ بعض القهوة. انضمت إليه بريدا في الوقت الذي أخذت فيه المياه بالغليان.

قال، «أويتِ إلى الفراش في وقت متأخر جداً الليلة الماضية».

لم تجب.

تابع، «اليوم هو اليوم المقرر، وأعرف مدى أهميته لك. أحب أن أكون معك هناك».

قالت بريدا، «إنها حفلة».

- وماذا يعني ذلك؟

- إنها حفلة، ونحن، منذ تعارفنا، نذهب إلى الحفلات معاً. أنت مدعوّ أيضاً.

خرج المجوسي ليرى إذا كان شتاء اليوم السابق قد أضرّ بنباتاته الاستوائية. إنها بخير. ابتسم في قرارة نفسه. يبدو أن قوى الطبيعة تتعاون أحياناً.

فكّر في ويكا. فهي لن تتمكن من رؤية هالتَي النور، لأنه لا يمكن إلا لتوأمي الروح المعنيين أن يرياها، لكنها ستلاحظ بالتأكيد الطاقة المنبثقة من إشعاعات النور المتنقلة بينه وبين ربيبتها. فالساحرات نساء قبل كل شيء.

تصف حكمة القمر الأمر بأنه «رؤيا الحب»، وهذا قد يحدث أحياناً بين أناس ليسوا توائم أرواح؛ لكنهم هائمون في العشق. إلا أنه تخيّل أن هذا سيملأها حنقاً؛ حنق النساء الذي شعرت به خالة ذاتِ الرداء الأبيض، التي لم يسعها أن تسمح لامرأة أخرى بأن تكون أكثر جمالاً منها.

لكن ويكا معلّمة، وستدرك على الفور مدى عبثية مشاعر الحنق، إلا أن لون هالتها سيكون عند ذاك قد تغيّر.

حينها، سيتوجه صوبها، يقبّلها على خدها، ويقول إنه استطاع أن يدرك أنها غيورة. ستنفي الأمر، ويسألها حينها عن سبب غضبها.

ستقول إنها امرأة، ولا تحتاج إلى تفسير مشاعرها. وسيقبّلها مرّة أخرى على خدّها، لأن ما قالته صحيح. سيخبرها كم اشتاق إليها

زمن فراقهما، وأنه معجب بها أكثر من أي امرأة أخرى في العالم، باستثناء بريدا، لأن بريدا هي توأم روحه.

وستشعر ويكا عندها بالسعادة، لكونها امرأة حكيمة.

فكّر قائلاً «لا بدّ من أنني أتقدّم في السن، وأشرع في تخيّل المحادثات». ثم تناهى إليه أن الأمر ليس مسألة عمر فحسب؛ فهذه هي الطريقة التي طالما تصرّف بها الرجال الذين وقعوا في الحب.

سُرّت ويكا لأن المطر توقّف، وانقشعت الغيوم قبل هبوط الليل. فالطبيعة تحتاج إلى أن تكون على وفاق مع سيرورة حياة الكائنات البشرية.

اتخذت جميع الخطوات الضرورية. لعب كل واحد دوره، وأصبح كل شيء في مكانه.

مضت إلى المذبح وابتهلت إلى معلّمها. طلبت إليه الحضور في تلك الليلة التي يجب فيها تلقين ثلاث ساحرات جديدات «الأسرار الكبرى»، وهي تتحمل وحدها مهمة تعليمهن.

ثم مضت إلى المطبخ لتحضير بعض القهوة. عصرت بعض البرتقال، وتناولت قليلاً من الخبز المحمص والخبز الهش. فهي لا تزال تهتم بمظهرها لأنها تعلم مدى جمالها. ولا تحتاج إلى إهماله لتثبت أنها ذكيّة أيضاً، وقادرة.

حرّكت قهوتها بذهن شارد وهي تتذكّر اليوم الشبيه بهذا النهار منذ سنوات بعيدة، عندما ختم معلمها قَدَرَها بالأسرار الكبرى. وحاولت للحظة أن تتخيّل الشخص الذي كانته حينذاك، وماهية أحلامها، وماذا أرادت من الحياة.

وقالت بصوت مرتفع، «لا بد من أنني أتقدم في السن، وأجلس ها هنا مفكّرة في الماضي». شربت قهوتها وبدأت في تحضيراتها. لا تزال ثمة أمور يجب القيام بها. وهي تعرف أيضاً أنها لا تتقدم في السن لأنه لا وجود للوقت في عالمها.

دُهشت بريدا لعدد السيارات المتوقفة إلى جانب الطريق، وقد حلّت سماء صافية محلّ غيوم الصباح المثقلة، وأخذ آخر أشعة شمس المغيب فيها بالتلاشي. إنه يوم الربيع الأول، برغم البرد القارس في الجو.

طلبت الحماية من أرواح الغابة، ثم تطلّعت إلى لورنس الذي ردّد الكلمات ذاتها على نحو أخرق بعض الشيء، لكنه بدا سعيداً كثيراً لوجوده هناك. ينبغي لكل منهما، إذا بقيا معاً، أن ينخرط في واقع الآخر، من وقتٍ إلى وقت، إذ يوجد بينهما أيضاً جسر بين العالمين المنظور واللامنظور. والسحر موجود في كل عمل من أعمالهما.

سارا مسرعين عبر الغابة حتى بلغا الفسحة. باتت بريدا الآن مستعدة لما تراه: رجال ونساء من جميع الأعمار، ومن حيزٍ واسع من المهن بلا شك، وقد التقوا في مجموعات، يتحدّثون ويحاولون جعل الحدث كله يبدو كأنه أكثر الأمور طبيعية في العالم. إلا أنهم يشعرون، في الواقع، بالدرجة ذاتها من الحيرة التي تشعر بها هي ولورنس.

سأل لورنس، وهو لم يتوقّع وجود مثل هذا الحشد، «هل جميع هؤلاء الناس جزء من الاحتفال؟».

شرحت بريدا أن البعض ضيوف مثله، وأنها ليست متأكدة بالضبط ممن سيشارك، وأن كلّ شيء سينكشف في وقته.

اختارا زاوية يضعان فيها حاجياتهما، بما في ذلك الكيس الذي يحمله لورنس، وفي داخله ثوب بريدا وثلاث زجاجات نبيذ. فقد أوصت ويكا بأن يأتي كل شخص، من المشاركين والضيوف، بزجاجة نبيذ كبيرة. وسبق للورنس أن سأل بريدا عن الضيف الآخر قبل مغادرتهما المنزل، فأبلغته أنه المجوسي الذي ذهبت لزيارته في الجبال، ولم يعط لورنس المسألة مزيداً من الاهتمام.

سمع امرأة إلى جانبه تعلّق، «تخيّلوا، تخيلوا ما سيقوله أصدقائي إذا عرفوا أنني أشارك في اجتماع ليلي سرّي للساحرات».

اجتماع ليلي سرّي للساحرات. لقد نجا هذا الاحتفال من إراقة الدم، والنيران، وعصر العقل، والنسيان. حاول لورنس استعادة روعه، ففي النهاية يوجد كثر من الأشخاص مثله هنا. لكن قشعريرة اعترته عندما شاهد كومة من الحطب في وسط الفسحة.

كانت ويكا تتحدّث مع آخرين، لكنها حين رأت بريدا جاءت لإلقاء التحية وسؤالها إذا كانت بخير. شكرتها بريدا على لطفها وعرّفتها حينها بلورنس.

قالت، «لقد دعوت شخصاً آخر أيضاً».

نظرت إليها ويكا مندهشة، ثم ابتسمت ابتسامة عريضة. فتأكدت بريدا من أنها عرفت من تعني.

قالت ويكا، «أنا سعيدة. فهذا في النهاية احتفاله هو أيضاً. لقد مرّ زمن طويل لم أر فيه ذلك الساحر العزيز. وربّما تعلّم بعض الأمور».

وصل المزيد من الناس ولم تتمكّن بريدا من التمييز بين المدعوين والمشاركين. وبعد نصف ساعة، وقد أصبح عدد المجتمعين يناهز المئة، تحدّثت ويكا بهدوء ودعت إلى الصمت.

قالت، «إنها مراسم، لكنه أيضاً احتفال. ولا يمكن أي احتفال أن يبدأ بدون أن يملأ الجميع كؤوسهم».

فتحت زجاجة النبيذ التي تحملها، وملأت كأس الشخص الذي إلى جانبها. وسرعان ما أخذ النبيذ في الانسياب والأصوات في الارتفاع. لم تشأ بريدا الشرب، فلا يزال حقل القمح الذي أراها في الرجل المعابد السرّية لحكمة القمر، ماثلاً في ذهنها. ثم إن الضيف الذي تنتظره لم يصل بعد.

شرع لورنس، من جهته، يشعر باسترخاء أكبر، وأخذ يتحدث مع الناس من حوله.

وقال لبريدا، وهو يبتسم «إنها لحفلة عن حقّ!» فقد جاء إلى هنا متوقّعاً أمراً فوق العادة، فتبيّن أنه مجرّد حفل أكثر متعة من الحفلات التي يقيمها رفاقه العلماء.

وعلى مسافة بعيدة بعض الشيء، وقف رجل ذو لحية بيضاء عرّفه على أنه أستاذ في الجامعة. لم يعرف ما الذي يفعله في الحقيقة هنا، لكن الأستاذ تعرّف إليه أيضاً بعد فترة، ورفع كأسه مرحّباً.

شعر لورنس بالراحة. لم تعد الساحرات عرضة للمطاردة، ولا المتعاطفون معهن أيضاً.

سمعت بريدا أحدهم يقول، «الأمر أشبه بنزهة». نعم، إنه أشبه بنزهة، وهو ما جعلها تشعر بالحنق، لأنها توقّعت أمراً أكثر شعائرية، وأكثر شبهاً بالحفلات الليلية السرية التي شكّلت وحياً لغوياً، وسان - سانس، وبيكاسو. والتقطت حينها الزجاجة التي إلى جانبها وشرعت في الشرب.

حفلة. يتم عبور الجسر بين العالمين المنظور واللامنظور بوساطة

حفل. أرادت بريدا أن تعرف كيف يمكن لأي شيء مقدّس أن يحدث في مثل هذا المناخ الدنيوي.

الليل يهبط سريعاً والناس يواصلون الشرب. وما إن أوشك الظلام يغمر كلّ شيء، حتى أوقد بعض الموجودين من الرجال النار، من دون ممارسة أي شعائر محدّدة. هكذا كان الأمر في الماضي، لأن النار لم تكن إلا مجرّد مصدر للضوء قبل أن تصبح عنصراً قوياً في شعائر السحر. وهو ضوء تجمّعت النساء من حوله للحديث عن رجالهن، وتجاربهن السحرية، ولقاءاتهن مع الطواغيت والجنّيات اللواتي يضاجعن الرجال في المنام، وهن شياطين الجنس الأكثر إثارة للخوف في القرون الوسطى. هذا ما كان عليه الأمر في الماضي: حفلة، مهرجان شعبي ضخم، احتفال سعيد بالربيع والأمل في عصر شكّلت فيه سعادة المرء تحدّياً للقانون لأن أحداً لا يستطيع أن يمتّع نفسه في عالم مصنوع فقط لتجربة الضعيف. نظر سادة الأرض، المنزوون في قصورهم المظلمة، إلى النيران في الغابات، وشعروا بأنهم يتعرّضون للسرقة. هؤلاء الفلاحون متشوقون إلى السعادة، ولا يمكن لأي ممن اختبرها أن يشعر أبداً بالاستئناس مع الحزن. وعندها سيتوقع الفلاحون أن يكونوا سعداء على مدار السنة، وهو ما سيشكّل تهديداً لكامل المنظومة السياسية والدينية.

انتشى أربعة أو خمسة أشخاص من السكر، وشرعوا في الرقص حول النار، وهم يحتمل أنهم يقلّدون الاجتماع الليلي السري للساحرات. رأت بريدا بين الراقصين مبتدئاً ممّن التقتهم في الاحتفال الذي نظمته ويكا في ذكرى استشهاد الأخوات. صُدمت لأنها افترضت أن أتباع حكمة القمر سيتصرّفون على نحو أكثر

التزاماً بقدسية المكان. تذكّرت الليلة التي أمضتها مع المجوسي وكيف أن الشراب أعاق التواصل بينهما في خلال رحلتهما الهيولية.

سمعت أحدهم يقول، «سيموت أصدقائي حسداً. لن يصدّقوا أبداً أنني كنت هنا».

لا طاقة لها على احتمال ذلك، وتحتاج إلى الابتعاد قليلاً لتفهم تماماً ما يحدث، ولتقاوم رغبة قوية في المغادرة والعودة إلى المنزل قبل أن يخيب أملها كلّياً بكل ما آمنت به منذ ما يقارب السنة حتى الآن. بحثت عن ويكا، ورأتها تتحادث وتضحك مع بعض المدعوين. وقد أخذ عدد الراقصين حول النار يتزايد مع الوقت، البعض يصفّق ويغنّي، وآخرون من المحافظين يرافقون المغنّين على الإيقاع، بالضرب على الزجاجات الفارغة بالعيدان أو بالمفاتيح.

قالت للورنس «أحتاج إلى أن أتمشّى».

كان قد تحلّق حوله عدد من الناس وقد أخذوا بما يخبرهم به عن النجوم القديمة ومعجزات الفيزياء المعاصرة. لكنه توقّف فجأة عن الكلام، وسألها: «أترغبين في أن أجيء معك؟».

- لا، أفضّل أن أكون وحدي.

تركت المجموعة وسارت عبر الغابة. أخذت الأصوات تصبح أكثر ضجيجاً، واختلط كلّ شيء في رأسها: الكسر، التعليقات، الأناس حول النار الذين يدّعون أنهم سحرة وساحرات. لقد انتظرت هذه الليلة طويلاً ليتبيّن أنها ليست سوى واحدة، شبيهة بتلك التي تحييها الجمعيات الخيرية ويتناول فيها الناس الطعام ويسكرون ويخبرون النكات، ويلقون من ثم الخطابات عن الحاجة إلى مساعدة الهنود في نصف الكرة الجنوبي، أو عجول البحر في القطب الشمالي.

بدأت في السير عبر الغابة وقد أبقت النار دوماً في مجال رؤيتها. سارت عبر طريق وفّرت لها منظراً من فوق الصخرة المحورية. إلّا أن المنظر من فوق كان أكثر إثارة للخيبة: ويكا منشغلة في التجوال بين مختلف المجموعات، تسأل إذا كان كل شيء على ما يرام، وأناس يرقصون حول النار، وبعض الأزواج يتبادلون أولى قبلاتهم الناتجة عن السكر. لورنس يتحدّث بحماسة مع رجلين، ربما عن أمور من الجيّد مناقشتها في إطار حانة ما، لكن ليس في احتفال كهذا. وكان أن دخل قادمٌ حديثاً الغابة، غريب اجتذبه الضجيج يبحث عن بعض المتعة.

عرفته من طريقته في المشي.

إنه المجوسي.

هبّت بريدا وشرعت تركض عائدة عبر الطريق. أرادت بلوغه قبل أن يصل إلى الحفلة. فهي تحتاج إلى أن يساعدها كما فعل من قبل، لأنها تريد أن تفهم معنى ما يحدث هناك.

ظنّ المجوسي، وهو يقترب «أن ويكا لا بد أنها تعرف كيف تنظّم اجتماعاً ليلياً سرّياً للساحرات». تمكّن من رؤية الفيض الخالص للطاقة بين الأشخاص الموجودين، والشعور به. فالاجتماع السرّي، في هذه المرحلة من الشعائر، يشبه أي حفلة أخرى. فمن المهم ضمان أن يصبح الموجودون على الموجة ذاتها. وهو، في اجتماعه السرّي الأول، شعر بصدمة شديدة من جرّاء ذلك كلّه. وتذكّر أنه استدعى معلّمه وسأله عمّا يجري.

سأله معلمه وقد انزعج من مقاطعة المجوسي لحديثه المهم: «ألم يسبق لك أن حضرت حفلة من قبل؟».

أجاب المجوسي بأنه فعل ذلك بالتأكيد.

«وما الذي يجعل من الحفلة احتفالاً جيداً؟».

«أن يمتّع الجميع أنفسهم».

قال معلّمه، «منذ الأيام الأولى لهم في الكهوف والبشر يقيمون الحفلات. إنها الشعائر الجماعية الأولى التي نعرف بها، وقد أخذت حكمة الشمس على نفسها إبقاء هذه الشعائر حيّة. تنقّي الحفلة الجيّدة أذهان جميع المشاركين فيها، وهو أمر تحقيقه صعب جداً. فالأمر لا يتطلب سوى بضعة أشخاص لإفساد المزاج العام. ويعتقد هؤلاء أنهم أكثر أهمية من الآخرين، ويصعب إرضاؤهم لأنهم يعتقدون أنهم يهدرون وقتهم لأنهم لا يستطيعون التواصل مع أي

يكن. وينتهي بهم الأمر، في العادة، ضحايا شكل غامض من أشكال العدالة الشاعرية، فيميلون إلى المغادرة وقد ناؤوا تحت اليرقات الهيولية الخارجة من أولئك الناس الذين استطاعوا الالتحام مع الآخرين. فتذكّر أن الطريق الأولى إلى الله هي الصلاة، والأخرى هي الفرح».

مرّت سنون كثيرة على ذلك الحديث مع معلّمه. وشارك المجوسي، من يومها، في اجتماعات سرّية كثيرة، وهو يعرف أن ذلك مثالٌ تم تدبيره بمهارة كبيرة، إذ إن مستوى الطاقة الجماعية يتزايد طوال الوقت.

بحث عن بريدا وسط الجمع الكبير من الناس، وهو غير المعتاد على الحشود. يعلم بأنه يحتاج إلى المشاركة في تلك الطاقة الجماعية، وهو على أتم الاستعداد لذلك، لكن تعوزه أولاً إعادة تعويد نفسه. وفي وسعها أن تساعده، وهو سيشعر باطمئنان أكبر حين يعثر عليها.

إنه مجوسي، ويعرف في شأن هالة النور. وكل ما يحتاج إليه هو تبديل مشاعره، وستظهر هذه الهالة وسط جميع هؤلاء الناس. لقد بحث لسنوات عن ذلك النور، وهو هنا على مسافة أمتار منه.

بدّل المجوسي حالة مشاعره. ونظر من جديد إلى الأشخاص المجتمعين هناك، لكن هذه المرّة بإحساس مختلف، فاستطاع رؤية حيّز واسع من الهالات المختلفة الألوان، وكلّها تأخذ في الانتقال إلى ما هو أكثر قرباً من اللون الذي سيهيمن على تلك الليلة.

فكّر من جديد، «إن ويكا معلّمة ممتازة. وهي تعمل بسرعة كبيرة جدّاً. فسرعان ما ستهتزّ الهالات كلّها وذبذبات الطاقة التي

تحيط بكل جسم حيّ، كأنها واحدة. وعندها يمكن البدء بالجزء الثاني من الشعائر».

تطلّع يمنة ويسرة إلى أن حدّد أخيراً مكان هالة النور، فقرر أن يفاجئها، واقترب من دون أن يصدر صوتاً.

قال، «بريدا».

همس أحد الشبان بتهذيب، «لقد ذهبت تتمشّى».

للحظة بدا أنها دامت دهراً، نظر المجوسي إلى الرجل الواقف أمامه.

«لا بد من أنك المجوسي الذي أخبرتني بريدا الكثير عنه»، قال لورنس. «انضم إلينا، فهي لن تتأخر».

لكن بريدا كانت قد وصلت، فوقفت قبالة الرجلين، تتنفّس بصعوبة، وعيناها جاحظتان.

أحس المجوسي بشخص ما يراقب من الجانب الآخر من النار. يعرف تلك النظرة، وهي لن تتمكن من رؤية هالات النور، لأن توائم الروح وحدها تتعرف بعضها إلى بعض. إلا أنها نظرة عميقة وقديمة، نظرة من يعرف حكمة القمر وقلوب الرجال والنساء.

استدار المجوسي في مواجهة ويكا. فابتسمت له من الجانب الآخر للنار، فهي قد أدركت كلّ شيء في جزء من الثانية.

سمّرت بريدا كذلك عينيها بالمجوسي وقد أضاءهما السرور لمجيئه.

قالت، «أودّ أن أعرّفك بلورنس». لقد أصبحت الحفلة فجأة ممتعة، وهي لم تعد في حاجة إلى أي شروحات.

بقي المجوسي على تلك الحالة من الشعور المتبدّل. وشاهد هالة

بريدا تتحول سريعاً وتقترب من اللون الذي اختارته ويكا. فهي مسرورة وسعيدة لمجيئه، ويمكن لما يقوله أو يفعله أن يخرب تلقينها في تلك الليلة. وعليه أن يسيطر على مشاعره بأي ثمن.

قال للورنس: «سررت بالتعرّف إليك، فما رأيك في أن تصبّ لي كأساً من النبيذ؟».

ابتسم لورنس وناوله الزجاجة. وقال: «أهلاً بك في المجموعة، فأنا متأكد من أنك ستستمتع بالحفلة».

أشاحت ويكا بنظرها وأطلقت تنهيدة ارتياح. فبريدا لم تلاحظ شيئاً. وهي تلميذة جيّدة، وستكره ويكا أن تخرجها من حفلة التلقين الليلة بسبب فشلها في اتخاذ أبسط الخطوات، وعدم الانضمام إلى حفل الانشراح العام.

وفي وسعه أن يهتم بنفسه، لأن وراء المجوسي سنوات من العمل والانتظام، وسيتمكن من السيطرة على مشاعره، على الأقل لما يكفي من الوقت لاستبدالها بغيرها. وهي تحترم عمله الشاق وعناده، وتشعر ببعض الخوف من قوته الخارقة.

حادثت بعض مدعويها الآخرين، لكنها لم تتمكن من تجاوز دهشتها لما رأته للتو. هذا هو إذاً السبب في إعارته هذا القدر من الاهتمام لبريدا التي هي في النهاية ساحرة مثل أي ساحرة أخرى أمضت مختلف تجسداتها تتعلّم حكمة القمر.

فبريدا توأم روحه.

«لا بدّ من أن حدسي النسائي لا يعمل كما يجب». فهي قد تصوّرت كل شيء إلا السبب الأكثر بداهة. وعزّت نفسها

بالتفكير في أن فضولها كلّه عاد بنتيجة إيجابية على الأقل: إنها الطريق التي اختارها الله ليمكّنها من إعادة اكتشاف تلميذتها.

لمح في الحشد شخصاً يعرفه، فاعتذر للحظة للذهاب والتحدّث إليه. أحسّت بريدا بالغبطة، وقد استمتعت بوجوده قربها، لكنها حبّذت فكرة أن تتركه يذهب. أنبأها حدسها النسائي بأن من الأفضل ألا يقضي هو ولورنس الكثير من الوقت معاً، فقد يصبحان صديقين، ومن الأفضل لرجلين يحبان المرأة نفسها، أن يكره أحدهما الآخر، من أن يصبحا صديقين، فلو حدث ذلك لانتهى بها الأمر إلى خسارتهما معاً.

تطلّعت إلى الناس المتحلّقين حول النار. شعرت فجأة بالرغبة في الرقص هي أيضاً. طلبت إلى لورنس الانضمام إليها، فتردّد للحظة. ثم استجمع شجاعته ووافق. استمرّ الناس في الدوران والتصفيق. يشربون النبيذ، ويضبطون الإيقاع بالقرقعة بالعيدان والمفاتيح على الزجاجات الفارغة. وكان المجوسي، كلّما مرّت راقصة من أمامه، يبتسم ويرفع لها كأسه. إنها واحدة من أفضل ليالي حياتها.

انضمت ويكا إلى حلقة الراقصين، حيث يشعر الجميع بالاسترخاء والفرح. وها إن المدعوين، القلقين بعض الشيء مما قد يحدث، والمنشغلي البال حيال ما قد يرون، يندمجون الآن بكلّيتهم في روح الليل. لقد حلّ الربيع، وهم يحتاجون إلى الاحتفال، وملء أرواحهم الإيمان بأيام مقبلة تنيرها الشمس، ولينسوا، بأسرع ما يمكن، الأمسيات الكئيبة وليالي الوحدة التي أمضوها في المنزل.

ارتفع صوت التصفيق، وها إن ويكا هي التي تحدد الإيقاع الآن. إنه إيقاع ملحّ ومنتظم. تسمّرت أعين الجميع في النار. لم يشعر أحد بالبرد، بدا كما لو أن الصيف قد حلّ بالفعل. فشرع الناس المتحلقون حول النار في نزع ثيابهم..

«فلنغنّ!» قالت ويكا. وغنّت مرات عدة أغنية مؤلفة من بيتين بسيطين من الشعر، وسرعان ما أخذ الجميع يرددونها معها. قلة من الناس أدركت أنها كلمات الساحرات المقدّسة، حيث ما يهم هو جرْس الكلمات وليس معناها. إنه صوت اتحاد المواهب، ويمكن لمن وُهبوا الرؤية السحرية - مثل المجوسي وغيره من المعلمين الحاضرين - رؤية خيوط النور تجمع بين مختلف الناس.

ضجر لورنس أخيراً من الرقص، وأراد الانضمام إلى «الموسيقيين». وابتعد آخرون عن النار، بعضهم لأنه تعب، وآخرون لأن ويكا طلبت إليهم المساعدة على إبقاء الإيقاع مستمرّاً. وحدهم الملقّنون لاحظوا ما يجري، وعرفوا أن الحفلة أخذت تدخل في المجال المقدّس. وسرعان ما بقيت نساء حكمة القمر والساحرات اللواتي سيتم تلقينهن الليلة، يرقصن وحدهن حول النار.

حتى تلامذة ويكا الذكور توقّفوا عن الرقص، لأن شعائر تلقين الرجال مختلفة، وتحدث في تاريخ آخر. أخذت الطاقة النسائية، طاقة التحوّل، تدور وتدور في الحيز الهيولي فوق النار مباشرة. هكذا هو الأمر منذ الأزل.

* * *

بدأت بريدا تشعر بحزّ شديد. لا يمكن أن يكون النبيذ السبب، لأنها لم تشرب سوى القليل منه. ربما كان وهج النار. شعرت برغبة كبيرة في خلع قميصها، لكنها شعرت بإحراج أخذ يفقد

بالتدريج كل معنى، وهي تصفّق وتنشد تلك الأغنية البسيطة وترقص حول النار. تسمّرت عيناها الآن في اللهب، وأخذت أهمية العالم تتضاءل باطراد. إنه شعور مشابه كثيراً لما اختبرته عندما كشفت لها أوراق الحظ عن نفسها للمرة الأولى.

،سأدخل في غيبوبة ذهنية،، لكنها لم تهتم، وهمست في سرها: ،وإن يكن، فهذه الحفلة ممتعة،!

،يا للموسيقا الغريبة،، شرع لورنس يفكّر، وهو يحافظ على الإيقاع ضارباً على الزجاجة. لاحظت أذنه، المتدرّبة على الاستماع إلى وقع جسده، أن إيقاع التصفيق وجرْس الكلمات يهتزان في وسط صدره تماماً، كما يحدث عندما يسمع الطبل الأعظم في حفل موسيقي كلاسيكي. والغريب في الأمر هو أن الإيقاع يتحكم على ما يبدو في خفقان قلبه أيضاً.

أخذ يتزايد في الخفقان حيث سرّعت ويكا الإيقاع. لا بد من أن الأمر ذاته يقع للجميع.

أنبأه عقله أن ،المزيد من الدم ينساب إلى رأسي،. لكنه يشارك في شعائر ساحرات، وليس الوقت مناسباً للتفكير في مثل هذه الأمور؛ وفي وسعه التحدّث عن الأمر لاحقاً مع بريدا.

وقال بصوت مرتفع: ،إنها حفلة، وأريد أن أستمتع،. وصاح أحدهم قربه: ،اسمع، اسمع،! وقد ازدادت سرعة بريدا في التصفيق بعض الشيء.

* * *

،أنا حرّة. وفخورة بجسدي لأنه علامة الله في العالم المنظور،. لم

تعد حرارة النار تُطاق. فقد بدا لها العالم بعيداً جداً، ولم تعد تبالي بالأمور السطحية. إنها حيّة، والدم يهدر في شرايينها، وسلّمت بكلّيتها، جسداً وروحاً، إلى بحثها. فالرقص حول النار ليس بجديد عليها، لأن الإيقاع أيقظ ذكريات نائمة لزمن كانت فيه معلّمة حكمة الزمان. وهي ليست وحدها، لأن الحفلة هي إعادة لقاء مع ذاتها ومع الحكمة التي حملتها عبر حيوات كثيرة. وقد شعرت باحترام عميق لنفسها.

فها هي مرّة أخرى في جسد جميل، حارب لملايين السنين من أجل البقاء في عالم معاد. عاش في البحر، وزحف على الأرض، وتسلّق الأشجار، ومشى على القوائم الأربعة، وهو الآن يقف باعتزاز وقدماه راسختان في الأرض. يستحق هذا الجسد الاحترام على كفاحه الطويل. ولا توجد أجساد جميلة أو بشعة، لأنها جميعها تبعت المسار ذاته، وهي كلّها الجزء المنظور للروح التي تسكنه.

شعرت بالاعتزاز الشديد بجسدها.

وخلعت قميصها.

إنها لا ترتدي حمّالة صدر، لكن هذا لا يهم. نعم، هي فخورة بجسدها وليس بمقدور أحد أن ينتقدها على ذلك: حتى لو كانت في السبعين من العمر، لأن الروح تستطيع أن تقوم بعملها من خلال جسدها.

ولم يهم أيضاً أن النساء الأخريات حول النار فعلن الأمر ذاته.

حلّت أخيراً حزام سروالها ووقفت هناك عارية. شعرت بأنها أكثر حرّية من أي وقت مضى في حياتها. فليس لما تقوم به من سبب. تفعل ذلك لأن العري هو الطريقة الوحيدة، في تلك اللحظة، لإظهار مدى حرّية روحها. ولا يهم وجود أناس آخرين يرتدون

ثيابهم ويتفرجون، فكل ما ترغب فيه هو أن يشعروا حيال أجسادهم بما تشعر به حيال جسدها. وفي وسعها الرقص بحرّية بدون أن يعرقل أي شيء حركاتها. فكلّ ذرّة من جسدها تلامس الهواء، والهواء سخيّ جلب معه من بعيد عطوراً سرّية تكسوها من رأسها إلى أخمص قدميها.

لاحظ الرجال والمدعوّات الأخريات الذين يضربون على زجاجات النبيذ، أن النساء حول النار عاريات، فصفقوا أو أمسكوا بأيديهم وغنّوا، أحياناً بلطافة وأحياناً بجموح. لم يعرف أحد من الذي يضبط الإيقاع؛ أهم الأناس الذين يطرقون على الزجاجات، أم التصفيق، أم الموسيقا. بدوا جميعهم مدركين ما يجري، حتى لو أن أحدهم امتلك في تلك اللحظة ما يكفي من الشجاعة لكسر الإيقاع، لما أمكنه ذلك. ويواجه المعلمون في هذا الوقت من الشعائر واحدة من أكبر مشكلاتهم، وهي التأكد من عدم إدراك أحد أنه في حالة غيبوبة ذهنية. يحتاجون إلى الشعور بأنهم يسيطرون على الأمر ولو لم يكونوا كذلك. ولا تنتهك ويكا القانون الوحيد، وهو عدم التلاعب بإرادة الآخرين، وهو أمر إذا كُسر تعاقب عليه الحكمة بشدّة استثنائية، لأن الجميع يعرفون أنهم موجودون في اجتماع ليلي سرّي للساحرات، وأن الحياة تعني، بالنسبة إلى الساحرات، مناجاة الكون.

ولن يخبر أي من هؤلاء الناس عمّا رآه عندما تصبح هذه الليلة، في وقت لاحق، مجرّد ذكرى. ليس ما يمنعهم من ذلك سوى أنهم شعروا جميعهم بأنهم في حضرة قوة عظيمة، قوة غامضة ومقدّسة، وفائقة الحدّ، قوّة لن يجرؤ أي بشريّ على تحدّيها.

طلبت إليهن المرأة المتشحة بالثوب الأسود أن يستدرن. وهي المرأة

الوحيدة التي لا تزال ترتدي كامل ثيابها، بينما الأخريات جميعهن عاريات ويرقصن ويصفّقن ويتمايلن.

وضع رجل كومة من الأثواب قربها. ثلاثة سيتم ارتداؤها للمرة الأولى، واثنان متشابهان تماماً من حيث الطراز. هؤلاء هم الأشخاص الذين يتمتعون بالموهبة نفسها التي اتخذت شكلها المادي في الثوب الذي حلمت به كل امرأة.

لم تعد ويكا في حاجة إلى التصفيق الآن، فالآخرون استمروا في ذلك، كما لو أنها هي التي لا تزال تحافظ على الإيقاع.

ركعت. ضغطت بإبهاميها على رأسها وشرعت في إعمال القوّة.

إن قوّة حكمة القمر، حكمة الزمان، موجودة هناك. وهي قوّة على درجة كبيرة من الخطورة، قوّة يمكن للساحرات استحضارها حين يصبحن معلّمات. وتعرف ويكا كيفية استخدامها، إلا أنها طلبت برغم ذلك الحماية أوّلاً من معلّمها.

في تلك القوة تسكن حكمة الزمان. هناك الأفعى، الحكيمة والبارعة. وحدها العذراء تستطيع أن تُخضع الأفعى بأن تسحق رأسها تحت عقبها. لذلك صلّت ويكا أيضاً للعذراء مريم، طالبة إليها صفاء الروح ونقاءها، وثبات اليد، وحماية ردائها بحيث يمكنها إنزال تلك القوة على النساء أمامها من دون أن تغوي أياً منهن، أو تسيطر عليها.

رفعت وجهها صوب السماء، وتلت، بصوت ثابت وواثق، كلمات القديس بولس:

«فالذي يفسد هيكل الله يُفسده الله، لأن هيكل الله مقدّس، وهو أنتم.

«لا يخدعن أحد نفسه. إن ظنّ أحد بينكم، في هذا الدهر، أنه حكيم، فليصرْ جاهلاً ليصير حكيماً.

«لأن حكمة هذا العالم جهالة عند الله. فقد كُتب، أنه يصطاد الحكماء بخدعتهم.

«وأيضاً، إن الربّ يعلم أفكار الحكماء أنها باطلة.

«إذاً، فلا يفتخرن أحد ببشر، لأن كلّ شيء هو لكم».

أبطأت ويكا إيقاع التصفيق بحركات قليلة من يدها. أخذ الأشخاص الذين يضربون على زجاجات النبيذ يفعلون ذلك ببطء أكبر، وكذلك شرعت النساء في إبطاء تمايلهن ودورانهن. تُبقي ويكا القوة تحت السيطرة، وعلى الأوركسترا كلّها أن تعمل جيّداً، من البوق الأعلى صوتاً إلى أهدأ كمان. احتاجت، لتحقيق ذلك، إلى مساعدة من القوة، لكن من دون أن تستسلم لها فعلاً.

صفّقت بيدها مُحدثة ما يكفي من الضجة، فتوقّف الجميع تدريجياً عن العزف والرقص. اقتربت الساحرات من ويكا والتقطن أثوابهن، وبقيت ثلاث نساء فقط عاريات. وكانت قد مرّت، عند هذا الحد، ساعة وثمان وعشرون دقيقة من الصوت المتواصل. كان جميع الموجودين في حالة من الشعور المتبدّل، لكن لم يفقد أيّ منهم، في ما عدا النساء الثلاث العاريات، إدراكهم مكان وجودهم، أو ما يقومون به.

أما النساء الثلاث فكنّ في حالة من الغيبوبة الذهنية. فامسكت ويكا بخنجرها الشعائري ووجهت كل قوته المركزة صوبهن.

ستظهر مواهبهن سريعاً. وهي طريقتهن في خدمة العالم؛ فها هن قد بلغن أخيراً منتهى الطرقات الطويلة والملتوية التي سلكنها. وكل منهن جديرة بما حقّقته، بعدما اختبرها العالم بكل

طريقة ممكنة. وسوف تتابع حياتها اليومية وامتلاك مواطن ضعفها المعهودة، وتمارس أفعالها المعتادة بما فيها من لطافة وقسوة. وستتواصل عذابات نفسها وفرحها، تماماً كما هو أمر كلّ من يشكّل جزءاً من عالم يفيض دائماً. وستعلم أيضاً، في الوقت المحدد، بأن كل كائن بشري يحمل في داخله أمراً أكثر أهمية من ذاته الخاصة، هو موهبته الخاصة تحديداً، لأن الله استودع في يد كلّ شخص موهبة، وهي الأداة التي يستخدمها ليُظهر نفسه للعالم ويساعد الإنسانية، فالله قد اختار الكائنات البشرية لتساعده في الأرض.

والبعض يدرك موهبته من خلال حكمة الشمس، والبعض الآخر من خلال حكمة القمر، لكنهم، في مآل الأمر، يعرفون جميعهم ما هي مواهبهم، حتى لو تطلّب منهم ذلك تجسدات عدّة.

وقفت ويكا قرب الحجر العظيم الذي وضعه الكهنة الكلتيون هناك، وقد تحلّقت الساحرات بثيابهن السوداء في نصف دائرة من حولها. تطلّعت إلى النساء العاريات الثلاث، وكانت أعينهن تلمع.

«اقتربن».

سارت النساء إلى وسط الدائرة النصفية، وطلبت ويكا إليهن الاستلقاء، ووجوههن إلى الأرض وأيديهن منبسطة على شكل صليب.

شاهد المجوسي بريدا تستلقي على الأرض. وحاول التركيز في هالتها. لكنه رجل، والرجل ينظر دوماً إلى جسد المرأة.

لم يرد أن يتذكّر. لم يشأ أن يفكّر هل هو يتألم أم لا. أدرك

أمراً واحداً فقط، هو أن مهمته مع توأم روحه التي إلى جانبه قد انتهت.

«من المؤسف قضاء مثل هذا الوقت القصير معها». لكن لا يسعه التفكير على هذا المنوال. لقد تشاركا، في فترة زمنية ما، في الجسد نفسه، وشعرا بالألم نفسه، والملذات نفسها. وربّما سارا في غابة تشبه هذه الغابة، ونظرا إلى سماء الليل التي تتلألأ فيها النجوم المشرقة نفسها. وابتسم لدى تفكيره في معلّمه الذي جعله يمضي تلك الفترة الطويلة في الغابة، لا لشيء إلا ليفهم لقاءه توأم روحه.

هكذا هي الأمور في حكمة الشمس، حيث يُجبر كل شخص على تعلّم ما يحتاج إلى تعلّمه وليس ما يريد تعلّمه. سينتحب قلبه الرجولي لفترة طويلة، لكنه يشعر في قلبه المجوسي بالزهو وبالشكر للغابة.

نظرت ويكا إلى النساء الثلاث الممددات عند قدميها، وشكرت الله على تمكُّنها من مواصلة القيام بالعمل نفسه عبر هذا القدر من الحيوات الكثيرة، فحكمة القمر معين لا ينضب. كرّس الكهنة الكلتيون تلك الفسحة في الغابة في زمن دخل طيّ النسيان منذ وقت بعيد، ولم يبق الكثير من شعائرهم إلا الحجر الذي تقف أمامه. وهو حجر هائل الحجم، كبير، إلى درجة أن الأيدي البشرية لم تتمكَّن من نقله إلى هنا. فالقدامى عرفوا كيف ينقلون مثل هذه الحجارة بوسائل سحرية. لقد بنوا الأهرامات، والمراصد، ومدناً بكاملها في جبال أميركا الجنوبية، مستخدمين القوى التي تعرفها حكمة القمر. ولم يعد الإنسان في حاجة إلى مثل هذه المعرفة، فمحيت من الزمن لئلا تُستخدم لغايات تدميرية. إلا أن

ويكا تود لو أنها عرفت، ولو من باب الفضول المحض، كيفية قيامهم بذلك.

رخبت بالأرواح الكلتية الحاضرة. وهذه الأرواح هي من المعلّمين الذين توقّفوا عن التجسد وباتوا يشكلون الآن جزءاً من حكمة الأرض السرية، ولولاهم، ولولا قوّة معرفتهم، لفقد الكوكب وجهته منذ زمن بعيد. يطفو أولئك المعلّمون الكلتيون في الهواء فوق الأشجار إلى يسار الفسحة، أجساماً هيولية محاطة بنور أبيض حاد. وهم الذين أخذوا، على مرّ العصور، يأتون إلى هنا في كل اعتدال ليتأكدوا من الحفاظ على التقاليد. وقالت ويكا ببعض الفخر، إنه لا يزال يتم، بالتأكيد، الاحتفال بالاعتدالات حتى بعد اختفاء الثقافة الكلتية من التاريخ الرسمي للعالم. فلا أحد، إلا يد الله، يستطيع تدمير حكمة القمر.

راقبت الكهنة لبعض الوقت، وتساءلت: ماذا بمقدورهم أن يفعلوا بأناس اليوم؟ هل يشعرون بالحنين إلى الأيام التي ألفوا فيها المجيء إلى هذا المكان عندما بدا الاتصال بالله أكثر بساطة ومباشرة؟ وفكّرت ويكا: «لا»، وقد صدق حدسها. فالانفعالات البشرية هي التي تبني حديقة الله، وعلى الناس، لتحقيق ذلك، أن يعيشوا زمناً طويلاً، في عصور مختلفة، وقد تبنّوا، في الأغلب، عادات مختلفة. ويتبع الإنسان، على غرار بقية الكون، طريقة النشوئية، فيصبح في كل يوم أفضل من اليوم السابق، حتى لو نسي أمثولات اليوم السابق، أو اشتكى زاعماً أن الحياة غير عادلة.

فملكوت السماء يشبه الزرع الذي يبذره الإنسان في الحقل؛ فهو ينام ويستيقظ، ليلاً ونهاراً، وتنمو البذور برغم أنه لا يعرف كيف.

خفرت هذه الأمثولات في روح العالم وهي موجودة لفائدة الإنسانية بأسرها. والمهم هو أنه لا يزال يوجد أناس مثل أولئك الموجودين في الاحتفال، لا يخافون «ليل ظلمة الروح»، وحكماء مثل القديس يوحنا الصليبي الذي أعطى وصفاً لذلك. فالجنس البشري يخلُص بأجمعه من جديد مع كل خطوة، ومع كل فعل إيمان. وسيستمر العالم في سلوك طريق النور ما دام يوجد أناس يعرفون أن حكمة الإنسان كلّها ليست إلا منتهى الحماقة في عين الله.

شعرت بالفخر بتلاميذها، رجالاً ونساءً، ممن أثبتوا أنهم قادرون على التضحية برفاهة عالم من التفسيرات اللطيفة والمتقنة لمواجهة تحدّي اكتشاف عالم جديد.

نظرت مرّة أخرى إلى النساء العاريات الثلاث المستلقيات على الأرض، وحاولت أن تكسوهن من جديد بألوان الهالة التي تنبثق منهن. وها هن يسافرن الآن عبر الزمن حيث يلتقين كثراً من توائم الروح الضالّين. وسينغمسن، من الليلة فصاعداً، في مهمة تنتظرهن منذ ولادتهن. وقد جاوزت إحداهن الستين، لكن ليس للعمر أي أهمية. فما يهمّ هو أنهن قد أصبحن في النهاية وجهاً لوجه مع القدر الذي انتظرهن بطول صبر، وهن، من الآن فصاعداً، سيستخدمن مواهبهن للحفاظ على بعض النباتات المهمة جداً في حديقة الله. وصلت كل واحدة منهن إلى إلى هنا لسبب مختلف: من قصة حب مُخفقة، إلى الإحساس بالسأم من الروتين، أو ربما بحثاً عن السلطة. واجهن الخوف، والقصور الذاتي، والكثير من الخيبات التي تنهال على من تتبع منهن طريق السحر. لكن الواقع هو أنهن بلغن المكان الذي يجب عليهن بلوغه، لأن يد الله ترشد دوماً من يسلكون طريقهم بإيمان.

فكّر المجوسي وعيناه لا تزالان مسمّرتين في بريدا، في أن «حكمة القمر فاتنة بمعلّميها وشعائرها، لكن توجد حكمة أخرى أيضاً». وقد شعر ببعض الغيرة من ويكا لأنها ستبقى إلى جانب بريدا لوقت طويل. والحكمة الأخرى أكثر صعوبة لأنها بسيطة، ذلك أن الأمور البسيطة تبدو دوماً شديدة التعقيد. ويعيش معلّمو هذه الحكمة في العالم، وهم لا يدركون دوماً أهمّية ما يفعلونه، إذ غالباً ما يبدو الحافز إلى التعليم مجرّد حافز عبثي وهم نجّارون، وشعراء، وعلماء رياضيون، وأناس من جميع المهن ومشارب الحياة، يعيشون منتشرين في شتى أنحاء العالم. أناس شعروا فجأة بالحاجة إلى الحديث مع أحد ما، وإلى شرح شعور لا يمكنهم فهمه تمام الفهم، لكن يستحيل أن يُبقوه لأنفسهم. وبهذه الطريقة أبقت حكمة الشمس معرفتها حيّة، لأنها حافز الخلق.

وحيثما يوجد أناس، يوجد دوماً أثر ما من آثار حكمة الشمس. وتكون هذه الآثار في بعض الأحيان منحوتة، وأحياناً أخرى طاولة، أو بضعة أبيات من قصيدة تمرّرها مجموعة معيّنة أو قبيلة ما من جيل إلى جيل. فالذين تحدّثت حكمة الشمس من خلالهم، أناس كغيرهم من الناس، نظروا في صباح واحد وفي أمسية واحدة إلى العالم، وشعروا بوجود شيء أعظم. وارتموا، من غير علم، في بحر مجهول، وغالباً لم يعاودوا القيام بذلك من جديد. فكل واحد يمتلك سرّ الكون، أقلّه مرة واحدة في كل تجسّد.

وجدوا أنفسهم، للحظة، وقد انغمسوا في «ليل الظلمة»، إلا أنهم نادراً ما عادوا إلى هذا الليل لافتقارهم إلى الإيمان الذاتي الكافي. ووجد القلب الأقدس، الذي غذّى العالم بالمحبة والسلام والتكرّس، نفسه وقد أحيط مرّة أخرى بالأشواك.

سُرّت بريدا لأنها معلّمة حكمة القمر، وكل من جاء إليها

تشوّق إلى العمل، بينما يعيش معظم أتباع حكمة الشمس في هروب دائم مما تعلّمهم إيّاه الحياة.

وفكّرت ويكا في أنه «ليست للأمر أهمية»، لأن عصر المعجزات في طريق العودة، ولا يمكن لأحد الاستمرار في اللامبالاة حيال التغييرات التي شرع العالم في اختبارها. وستُظهر قوّة حكمة الشمس نفسها بكل إشراقتها في غضون سنوات قليلة. وسيشعر جميع الذين لا يتبعون طريقهم الخاصة بعدم الرضا عن أنفسهم، وسيُضطرّون إلى القيام بخيار: فإما أن يقبلوا وجوداً تطغى عليه الخيبة والألم، وإما أن يدركوا أن كلّ شخص وُلد ليكون سعيداً. ولن يبقى أمامهم إذ ذاك من خيار سوى أن يتغيّروا، وسيبدأ عندها الكفاح العظيم: الجهاد.

رسمت ويكا بحركة تامة من يدها الممسكة بالخنجر، حلقة غير منظورة في الهواء، رسمت فيها النجمة الخماسية السحرية، وهي رمز العناصر الخمسة التي تعمل في الجنس البشري. وبات في إمكان النساء المستلقيات على الأرض أن يتصلن الآن عبرها بعالم النور.

قالت ويكا، «أغمضن أعينكن». فانصاعت النساء الثلاث.

ومارست ويكا بخنجرها الحركات الشعائرية فوق رأس كلّ منهن.

وقالت، «افتحن الآن أعين أرواحكن».

فتحت بريدا عيني روحها، وإذا بها في صحراء بدت مكاناً مألوفاً جداً. تذكّرت أنها جاءت إلى هناك من قبل، مع المجوسي.

تطلّعت من حولها، ولم تتمكّن من رؤيته. لم تشعر بالخوف، بل بهدوء وسعادة. إنها تعرف من هي وأين تعيش؛ تعرف أن الحفلة تدور في مكان آخر من الزمن. وكلّ ذلك لا يهم لأن المنظر الطبيعي الماثل أمامها أكثر جمالاً بكثير: الرمال، والجبال في البعيد، والصخرة الضخمة.

رحّب بها أحد الأصوات قائلاً، «أهلاً بك». ووقف قربها سيّد يرتدي ثياباً تشبه الثياب التي ارتداها جدّها.

«أنا معلّم ويكا. وعندما تصبحين أنتِ معلّمة سيلتقي تلاميذك ويكا هنا، وهكذا دواليك، إلى أن تُظهر روح الأرض نفسها في النهاية».

أجابت بريدا، «أنا أشارك في طقس للساحرات، في اجتماع ليلي سرّي».

فضحك المعلّم.

«لقد وجدتِ طريقك. وقلّة هم الناس الذين يمتلكون الشجاعة للقيام بذلك، لأنهم يفضّلون اتباع طريق ليست طريقهم. يختارون عدم رؤية الموهبة المعطاة لهم. أما أنتِ فقبلت بموهبتك، ولقاؤك معها هو لقاؤك مع العالم».

- لكن، لماذا؟

- لتتمكّني من زرع حديقة الله.

فقالت بريدا، «حياتي أمامي، وأريد أن أعيشها تماماً كالآخرين أريد أن أتمكّن من ارتكاب الأخطاء، أن أكون أنانية، وأن أتمتّع بنواقصي».

ابتسم المعلّم وظهر في يده فجأة وشاح أزرق.

- لا يمكنك أن تكوني قريبة إلى الناس، إلا إذا كنت واحدة منهم.

تغيّر المشهد من حولها. فهي لم تعد في الصحراء، بل منغمسة في نوع من السائل الذي تسبح فيه كائنات غريبة مختلفة.

قال المعلّم، «تتعلّق الحياة بارتكاب الأخطاء. فقد استمرّت الخلايا في التوالد بالطريقة نفسها لملايين السنين إلى أن ارتكبت إحداها خطأً فأدخلت التغيير في دائرة التكرار التي لا تنتهي».

تفرّست بريدا في البحر مندهشة. لم تسأل كيف يمكن التنفّس فيه لأن كل ما أمكنها سماعه هو صوت المعلّم، وكلّ ما أمكنها التفكير فيه هو رحلة مشابهة انطلقت بها من حقل القمح.

قال المعلّم، «الخطأ هو ما جعل العالم يتحرّك. فلا تخافي أبداً ارتكاب الخطأ».

- لكن آدم وحوّاء طُردا من الجنّة.

- سيعودان إليها في يوم من الأيام، وقد أدركا معجزة السماوات وكل الأرض. عرف الله ما يفعله عندما نبههما إلى شجرة معرفة

الخير والشر. فلو لم يُرد منهما أن يأكلا منها لما جاء على ذكرها أبداً.

- ولماذا فعل ذلك إذاً؟

- ليجعل العالم يتحرك.

تغيّر المشهد وعاد إلى الصحراء والصخرة. إنه الصباح وقد أخذ الأفق يتضرج باللون الزهري. اقترب المعلّم منها حاملاً الوشاح.

،أنا أكرّسك الآن، في هذه اللحظة. موهبتك هي أداة الله، ولتبرهني على أنك أداة مفيدة،.

التقطت ويكا الثوب العائد إلى صغرى النساء الثلاث وأمسكته بيديها الاثنتين، ثم قامت بتقدمة رمزية إلى الكهنة الكلتيين الذين يشاهدون، بشكلهم الهيولي، كلّ شيء من فوق الأشجار. ثم استدارت صوب الشابة.

وقالت، ،قفي،.

وقفت بريدا وتراقصت ظلال النار على جسدها العاري. فألسنة اللهب هذه أهلكت في السابق جسماً آخر، لكن ذلك الزمن قد ولّى.

،ارفعي ذراعيك،.

فرفعت بريدا ذراعيها وألبستها ويكا الثوب.

لفّها المعلّم بالوشاح فقالت ،كنت عارية ولم أشعر بالخجل،.

- لولا الخجل لما اكتشف الله أبداً أن آدم وحوّاء أكلا التفاحة.

أخذ المعلّم يراقب شروق الشمس، بدا ذاهلاً، إلا أن بريدا عرفت أنه ليس كذلك.

وقال ،لا تشعري بالخجل أبداً. اقبلي ما تقدّمه إليك الحياة، وحاولي أن تشربي من كل كأس. يجدر بالمرء تذوّق جميع أنواع النبيذ، فبعضه يجب ارتشافه، وفي البعض الآخر عليك شرب الزجاجة كلّها،.

- وكيف أميّز بينها؟

- من خلال التذوّق. فلا يمكنك أن تعرفي مدى جودة النبيذ ما لم تتذوّقي السيئ منه.

أدارت ويكا بريدا في مواجهة النار، وانتقلت من ثم إلى الملقّنة التالية. فالتقطت النار طاقة موهبتها وأمكنها تبيانها لها. وكانت بريدا، عند تلك اللحظة، تشاهد أحد شروقات الشمس، تلك الجمرة السماوية اللاهبة، التي ستضيء، من الآن فصاعداً، ما بقي من حياتها.

وما إن أشرقت الشمس، حتى قال المعلّم، ،عليك الذهاب الآن،.

أبلغته بريدا أنها ليست خائفة من موهبتها، ،فأنا أعرف مقصدي وما الذي سأفعله. كما أعرف أن ثمة شخصاً ساعدني في الوصول إلى هنا.

،لقد جئت إلى هنا من قبل، ووجدت أناساً يرقصون ومعبداً سرياً شُيّد للاحتفال بحكمة القمر،.

لم يقل المعلّم شيئاً، واستدار صوبها وصنع إشارة بيده اليمنى.

«تم قبولك. ولتكن طريقك طريق سلام في زمن السلم، ومعركة في أيام المعارك. فلا تخلطي بينهما أبداً».

* * *

أخذ وجه المعلّم في التلاشي ومعه الصحراء والصخرة. وحدها الشمس بقيت، لكنها أخذت تصبح أمراً واحداً مع السماء. ثم احلولكت السماء وصارت الشمس أشبه بألسنة النار.

ها! إنها قد عادت لتتذكّر كلّ شيء الآن: الضجيج، التصفيق، الرقص والغيبوبة الذهنية. تذكرت أنها خلعت ثيابها أمام جميع هؤلاء الناس، وأخذت تشعر ببعض الإحراج. لكنها تذكّرت أيضاً لقاءها المعلّم. حاولت السيطرة على شعورها بالخجل والقلق اللذين سيرافقانها دائماً، ويجب أن تألفهما.

طلبت ويكا من المتلقنات الثلاث الوقوف في منتصف الحلقة التي شكّلتها النساء. وتماسكت الساحرات بالأيدي وشكّلن دائرة.

غنّين أغاني لم يجرؤ أحد على تردادها، وانسابت الألحان من شفاههن شبه المطبقة، مطلقة ذبذبات غريبة أخذت حدّتها في الارتفاع إلى أن شابهت صراخ بعض الطيور وقد جُنّ جنونها. وهي، في مرحلة ما من المستقبل، ستتعلم كيف تؤدّي هذه الأصوات. وستتعلّم أموراً كثيرة أخرى إلى أن تصبح هي أيضاً معلّمة تُلقّن رجالاً ونساء آخرين حكمة القمر.

لكن ذلك لن يحدث إلا في الوقت المحدّد له. ولديها الوقت كله الآن، وقد وجدت قدرها من جديد، وثمة من يساعدها. وأمامها الأبدية.

بدا لبريدا أن ألواناً غريبة تحيط بالجميع، وشعرت بأن الأشياء ملتبسة عليها بعض الشيء، وهي التي أحبّت العالم كما كان من قبل.

توقّفت الساحرات عن الغناء.

قالت ويكا، «أصبح تلقين القمر مُنجزاً وتاماً. ها إن العالم يصبح حقلاً، وعليكن بالعمل للتأكد من الحصول على حصاد جيّد».

وقالت واحدة من المتلقنات، «أشعر بالغرابة، وكلّ شيء مغبّش».

- ما ترينه هو حقل الطاقة، أو هالته كما نسمّيها، وهي تحيط بكل فرد. إنها الخطوة الأولى في طريق الأسرار. وسرعان ما سيتلاشى هذا الإحساس، لكنني سأعلّمكن لاحقاً كيف توقظنه من جديد».

ثم رمت خنجرها الشعائري في الأرض بحركة سريعة ورشيقة. فانغرز سريعاً، وقبضته تهتز بقوة من شدّة الارتطام.

وقالت، «انتهت المراسم».

توجّهت بريدا صوب لورنس الذي شعّت عيناه، وقد شعر بمدى افتخاره بها وحبّه لها. ففي وسعهما النمو معاً، وابتكار طريقة جديدة في الحياة، واكتشاف كامل الكون الممتد أمامهما، وهما ينتظران أناساً شجعاناً مثلهما.

لكن ثمة رجلاً آخر أيضاً. وقد اتخذت قرارها، وهي تتحدّث مع معلّم ويكا، لأن ذلك الرجل الآخر سوف يكون بمقدوره أن يمسك بيدها في الأزمنة الصعبة، ويرفدها بخبرة ومحبّة عبر ليلة الإيمان الظلماء. ستتعلّم أن تحبّه، ويكون حبها له كبيراً بقدر الاحترام الذي تكنّه له. فكلاهما يسير في درب المعرفة نفسها، وهي لم تبلغ المكان الذي هي فيه الآن إلا بفضله. ومعه ستتعلم حكمة الشمس في يوم من الأيام.

تعرف الآن أنها ساحرة لُقّنت فنّ أعمال السحر عبر قرون كثيرة، وقد عادت إلى حيث يجب أن تكون. ومن هذه الليلة فصاعداً ستصبح الحكمة والمعرفة الأمرين الأكثر أهمية في حياتها.

قالت للورنس، «في وسعنا الآن المغادرة». فأخذ يحدّق إلى هذه المرأة الغارقة في السواد، لكن بريدا عرفت أن المجوسي سيراها وقد ارتدت الأزرق.

ناولته الكيس الذي يحتوي على ملابسها الأخرى. وقالت:

«اسبقني وانظر إن كان في وسعك أن تؤمّن لنا وسيلة تقلّنا، فأنا أحتاج إلى الحديث مع شخص ما».

أخذ لورنس الكيس، لكنه مضى بعيداً بعض الشيء صوب الطريق الذي يقطع الغابة. فقد انتهت المراسم، وعادا إلى عالم البشر بحبهم، وغيرتهم، وحروبهم من أجل السيطرة.

وعاد الخوف أيضاً، لأن بريدا أخذت تتصرف بغرابة.

فقال للشجر من حوله، «لا أدري إذا كان الله موجوداً. لكن لا يمكنني التفكير في ذلك الآن، لأنني أنا أيضاً أقف في مواجهة السر الغامض».

شعر بأنه يتكلّم بطريقة مختلفة، وبثقة غريبة لم يعرف أن يملكها من قبل. كما أنه شعر في تلك اللحظة أيضاً بأن الأشجار تستمع إليه.

«قد لا يفهمني الناس الموجودون هنا، وقد يزدرون جهودي في السعي إلى الله برغم أنني لا أؤمن به. وهو إله الشجعان، هذا إذا وُجد».

لاحظ لورنس أن يديه ترتجفان بعض الشيء. فقد انقضت الليلة ولم يفهم شيئاً مما دار فيها. وكل ما عرفه هو أنه دخل في حالة من الغيبوبة الذهنية. لكن لا علاقة لارتجاف يديه المتواصل بالانغماس في «ليل الظلمة»، كما تسميه بريدا.

رفع نظره إلى السماء. كانت لا تزال ملأى بالغيوم المنخفضة. فالله هو إله الشجعان، وسيتفهّمه لأن الشجعان هم من يتخذون القرارات برغم خوفهم، والذين «يلوّعهم» الشيطان في كلّ خطوة من خطواتهم في الطريق، ويتملكهم القلق حيال أي عمل من أعمالهم، ولا يكفّون عن التساؤل إذا كانوا على خطأ أم على

صواب. وبرغم ذلك، فإنهم يتصرفون. يفعلون ذلك لأنهم أيضاً يؤمنون بالمعجزات كالساحرات اللواتي رقصن في تلك الليلة حول النار.

ربما حاول الله العودة إليه من خلال تلك المرأة التي تسير الآن مبتعدة صوب رجل آخر. وهي إن رحلت، فربّما يرحل الله هو أيضاً إلى الأبد. فهي تشكّل فرصته، لأنها تعرف أن الحب هو الطريقة الوحيدة لانغماس الذات في الخالق. ولم يرد أن يخسر فرصة استردادها.

أخذ نَفَساً عميقاً، متنشّقاً هواء الغابة البارد والنقي في رئتيه، وقطع على نفسه عهداً مقدّساً.

فالله هو إله الشجعان.

سارت بريدا متوجهة صوب المجوسي، فالتقيا عند النار. لم تخرج الكلمات إلا بصعوبة.

وكانت هي التي كسرت الصمت:

- نحن في الطريق ذاتها.

هزّ برأسه موافقاً.

«فلنسلكها معاً».

أجاب المجوسي، «لكنك لا تحبينني».

«بل أحبّك. أنا لا أعرف بعدُ حبي لك، لكنني أحبّك. أنت توأم روحي».

ظل المجوسي محتفظاً بنظرة متباعدة في عينيه. فهو يفكّر في حكمة الشمس، وكيف أن الحبّ يشكّل واحداً من أهم

دروس هذه الحكمة. إنه الجسر الوحيد المعروف بين العالم المنظور والكون اللامنظور، واللغة الفعّالة الوحيدة لترجمة الدروس التي يلقّنها الكون يومياً للكائنات البشرية.

قالت، «لن أذهب إلى أي مكان، وأنا باقية معك».

أجابها المجوسي، «خليلك ينتظر، وأنا أبارك حبّكما».

نظرت إليه بريدا وقد التبس عليها الأمر.

فقال متابعاً، «لا يمتلك أحد مغيب شمسٍ كذلك الذي شاهدناه تلك الليلة، تماماً كما لا يمكن لأحد أن يمتلك بعد ظهرٍ من المطر الذي يطرق على النافذة، أو سكينة طفل نائم، أو اللحظة الساحرة التي يتكسر فيها الموج على الصخور. لا يمكن لأحد أن يمتلك أشياء هذه الأرض الجميلة، لكن يمكننا أن نعرفها ونحبّها. وفي أوقات كهذه يظهر الله نفسه للبشر.

«نحن لسنا سادة الشمس، أو بعد الظهر، أو الموج، أو حتّى رؤيا الله، لأننا لا نستطيع أن نمتلك ذواتنا».

ومدّ المجوسي يده إلى بريدا وأعطاها زهرة.

- عندما التقينا للمرّة الأولى، أظهرت لك «ليل الظلمة»، برغم أنني عرفت، ذلك أنني لا أستطيع أن أتذكّر العالم قبل ذلك. أردت أن أرى كيف ستواجهين قصورك الذاتي. عرفت أنّك توأم روحي، وأنك ستعلّمينني كل ما أحتاج إلى معرفته، وهذا هو سبب تقسيم الله بين الرجل والمرأة.

لمست بريدا الزهرة. بدت لها كأنها الزهرة الأولى التي تراها منذ أشهر. فقد حلّ الربيع.

- يقدّم الناس الأزهار هدايا لأنها تحتوي على المعنى الحقيقي

للحب. وعلى كلّ من يحاول امتلاك زهرة أن يشاهد جمالها يذوي. لكنك ستحتفظين بها إلى الأبد، إذا اكتفيت بالنظر إليها في الحقل، لأنها جزء من المساء، ومن غياب الشمس، ومن رائحة الأرض الرطبة، ومن الغيوم في الأفق.

بدأت بريدا تنظر إلى الزهرة، فأخذها المجوسي من يدها وأعادها إلى الغابة.

اغرورقت عيناها بالدموع، وهي فخورة بتوأم روحها.

«ما علّمتني إياه الغابة هو أنك لن تكوني لي أبداً، لذلك لن أخسرك أبداً. لقد كنتِ أملي في أيام وحدتي، وهمّي في لحظات شكّي، ويقيني في أوقات إيماني.

«كرّست نفسي وأنا أعرف أن توأم روحي ستأتي في أحد الأيام لتتعلّم حكمة الشمس. وشكّلت معرفتي لوجودك سببي الوحيد في الاستمرار في الحياة».

لم يعد في وسع بريدا إخفاء دموعها.

«ثم جئتِ، وفهمت الأمر كلّه. أتيت لتحرريني من العبودية التي أوجدتُها لنفسي، ولتخبريني بأنني حرّ في العودة إلى العالم وأموره. وها أنا أدرك كل ما احتجتُ إلى معرفته، وأحبّك أكثر من جميع النساء اللواتي عرفتهن، وأكثر من حبّي للمرأة التي نفتني إلى الغابة عن غير معرفة منها. وسأتذكّر الآن، إلى الأبد، أن الحبّ حرّية. وتلك هي الأمثولة التي استغرقتني سنوات لتعلّمها، والتي أرسلتني إلى المنفى، وتطلقني حرّاً من جديد».

فرقع لهب النار، وأدارت قلة من الوافدين حديثاً في الوداع. لكن بريدا لم تستمع إلى أي مما يدور من حولها.

سمعت صوتاً واحداً يناديها من بعيد: «بريدا»!

فقال المجوسي، «ها هو ينظر إليك، يا صغيرتي». وهي عبارة اقتبسها عن فيلم قديم سبق له أن شاهده. أحسّ بالسعادة لأنه قلبَ صفحة مهمة أخرى من حكمة الشمس. شعر بحضور معلّمه الذي اختار تلك الليلة لتلقينه الجديد.

«سأذكرك دوماً، وستتذكرينني تماماً كما سنتذكر الأمسية، والمطر على النوافذ، وجميع الأمور التي ستكون لنا دائماً لأننا لا نستطيع امتلاكها».

ونادى لورنس من جديد: «بريدا».

فقال المجوسي، «امضي بسلام، وجففي تلك الدموع، أو قولي له إن دخان النار دخل في عينيك. لا تنسني أبداً».

عرف أنه لا يفترض به قول ذلك، لكنه قاله على أي حال.

لاحظت ويكا أن بعض الناس خلّفوا بعضاً من مقتنياتهم. وستتصل بهم هاتفياً وتطلب إليهم المجيء لأخذها.

وقالت، «ستخمد النار قريباً».

بقي صامتاً. لا يزال يوجد بعض اللهب، وعيناه ما برحتا مسمَّرتين فيه.

بادرت ويكا إلى القول، «لست آسفة على أنني أغرمت بك يوماً».

«وكذلك أنا»، أجاب المجوسي.

شعرت برغبة هائلة في التحدّث عن بريدا، لكنها لم تقل شيئاً. وأوحت عينا الرجل الموجود قربها بالاحترام والحكمة.

أضافت، «من المؤسف أنني توأم روحك، كنا لنصبح زوجين مناسبين».

لكن المجوسي لم يستمع إلى ما تقوله بريدا. فأمامه عالم واسع وأمور كثيرة يفعلها. عليه أن يساعد في زراعة حديقة الله، وأن يلقّن الناس كيف يعلّمون أنفسهم. سيلتقي نساء أخريات، ويقع في الحب مرات جديدة، ويعيش هذا التجسد بقدر ما يمكنه من قوة الشعور. لقد أكملت تلك الليلة مرحلة من مراحل وجوده، وأمامه «ليل ظلمة» جديد؛ لكن المرحلة المقبلة ستكون أكثر متعة وفرحاً بكثير، وأكثر قرباً مما يحلم به. عرف ذلك بفضل الأزهار

www.rewity.com By Dalyia

والغابات، وبفضل امرأة شابة وصلت في أحد الأيام تقودها يد الله غير عارفة أنهما هناك من أجل تحقيق قدرها. عرف ذلك بفضل حكمة القمر وحكمة الشمس.